
جلسات تدبر
كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب
د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الشنيار
الجزء
٢
العبيكان

جلسات تدبر

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

الجزء الثاني

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الشياح

العبيكان
Obeikan

مؤسسة النبأ العظيم

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٤٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثنيان؛ عبدالعزيز بن عبدالرحمن

جلسات تدبرالجزء الثاني./ عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان؛ -الرياض، ١٤٤٥هـ

٤٣٢ ص؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٨-٩٧٨٩-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

رقم الايداع: ١٨٠٨٧/ ١٤٤٥

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ / ٢٠٢٤م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية-الرياض

طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧





تم نشر هذا الكتاب بالتعاون بين مكتبة العبيكان ومؤسسة النبأ العظيم لنشر هُدى القُرآن.


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المقدِّمة ٩

الإبل ١٢

اتَّقِ اللّه ١٧

أربعُ قَصص ٢٤

الأرحام ٣٢

الاستعاذة ٤٠

الاستقامة ٤٦

الإسلام والإيمان ٥٤

الأُسوةُ الحسنة ٦٢

اِقرأْ ٧٠

أمثالُكُم ٧٨

الإنفاقُ والآخرة ٨٥

أيَّامُ اللّه ٩٢

آية العِزِّ ١٠١

الإيمانُ الحقُّ ١٠٩
البلاءُ المُبِين ١١٤
التَّسبيح ١٢٥
التَّفكُّر ١٣٠
التَّوبة ١٣٨
ثانيَ اثنين ١٤٦
حاضرةُ البحر ١٥٢
خائنةُ الأَعيُن ١٥٩
خيرٌ وأبقى ١٦٧
دينُ الحقِّ ١٧٤
ذِكرُ الله ١٨٢
الرَّحمة ١٨٧
رِضاهُم ١٩٥
زُمَرًا ٢٠٢
ساعةً من النهار ٢٠٩
السِّراجُ المُنير ٢٢٠
الشَّيطان ٢٢٨
الصَّابرون ٢٣٤
الصِّدِّيقُون ٢٤٣
الصِّراطُ المستقيم ٢٥٢
العفو والصَّفح ٢٦٠

الغرفة ٢٦٤
غضُّ البصر ٢٧١
الغِلُّ ٢٧٥
فردًا ٢٧٩
الفزعُ الأكبر ٢٨٤
القتلُ والموت ٢٩٠
القَلبُ ٢٩٧
القوامة ٣٠٤
القولُ الثَّابت ٣١٣
القولُ السَّديد ٣١٩
الكمال ٣٢٧
اللَّغْو ٣٣٤
محبَّةُ المال ٣٣٩
الملائكة والعرش ٣٤٧
المِلَّة ٣٥٣
نصرُ الله ٣٥٨
نورُ الله ٣٦٣
الهُدهُد ٣٧١
الهروب ٣٧٧
وبشِّر ٣٨٤
وعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ٣٩٣

وقَودُ النَّار ٣٩٨
وَهَمّ بها ٤٠٨
ويبقى العملُ الصالح ٤١٩
يُبشِّرُ وبُشرَى ٤٢٧

المقدِّمة

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من كتاب (**جلسات تدبُّر**)، الذي أتى نتيجة التدبُّر في كتاب الله الكريم. إن القرآنَ مُحيطٌ من المياه لا ينتهي؛ فكلُّ آيةٍ في القرآن لها دلالتها. قِفْ عند كل آية، وتفكّر في مضامينها، وتدبّر معانيها، ستظل سارحًا في العظمة الربانية، عاجزًا عن الإحاطة بفوائدها، وسَتَشْعُر كلّما قرأت آيةً من كتاب الله بتدبّر، كأنك تسمعها لأوّل مرّة، وستجد لها حلاوةً وطراوة!

إن القرآن إمامٌ لِكُلِّ خير، وإن القراءة التدبُّرية منهجٌ لبعض الصحابة.

ذكر الثعالبي في كتابه (**التقاط الدرر**) ما رواه الإمام مالك في (**الموطّأ**) عن يحيى بن سعيد، أنه قال: «كنت أنا ومحمد بن يحيى بن حبّان جالسَيْن، فدعا محمدٌ رجلًا، فقال: أخبرني بالذي سمعت من أبيك، فقال الرجل: أخبرني أبي أنه أتى زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ فقال زيدٌ: حَسَنٌ، ولأن أقرأه في نصف شهر أو عشرين

يومًا، أحبُّ إليَّ. وسلْني لِمَ ذلك؟ قال السائل: فإني أسألك. قال زيد: لكي أتدبّره، وأقف عليه»[١].

قال الثعالبي: «وإنما أراد زيدٌ بن ثابت قراءة القرآن في نصف شهر أو عشرين يومًا أحبّ إليه من قراءته في سبع، وإن كان للقارئ بكل حرف من القرآن عشر حسنات، فالألف من الحمد عشر حسنات، وباللّام عشر حسنات، وبالحاء عشر حسنات، وبالميم عشر حسنات، وبالدال عشر حسنات؛ لأن الحسنة قد تُضاعَف إلى سبع مئة، فَرَجَا أن تكون حسناتُه إذا قرأ القرآن في نصف شهرٍ، أكثر من حسناتِه إذا قرأه في سبعٍ؛ لتضعيف الحسنات له في قراءته من أجل تدبّره»[٢].

إن الصحابي زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -هو الذي قد شُرِّف بكتابة المصحف- يُرجِّحُ القراءة التدبُّرية، ويرى أنَّها الأرجى ثوابًا. وذكر الثعالبي في مقدمة كتابه: أن السلف وتابعيهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يستحبّون استفتاح مصنّفاتهم بما رواه البخاري ومسلمٌ عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه**»[٣]؛ وذلك «تنبيهًا للمُطالِع على حسن النيّة»[٤].

---

(١) التقاط الدرر: عبدالرحمن الثعالبي، (ص١٤). والأثر رواه مالك في موطئه (١/ ٢٠٠ رقم ٤٧٢).
(٢) التقاط الدرر (ص١٤).
(٣) أخرجه البخاري (١/ ١ رقم١)، ومسلم (٣/ ١٥١٥ رقم١٩٠٧).
(٤) التقاط الدرر (ص٦)، وانظر: رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام: أبو حفص عمر بن علي بن سالم بن صدقة الإسكندري، تاج الدين الفاكهاني، ت: نور الدين طالب (١/ ١٩).

وقــال الثعالبي: بلغنا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قــال: «إنما يُحفظ الرجل على قدر نيّته»[1]. نسأل الله سلامة النيّة وحُسْنِها.

هذا وبالله التوفيق.

د.عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان

(١) التقـاط الـدرر (ص٦). والأثـر رواه الخطيـب البغـدادي فـي الجامـع لأخـلاق الـراوي وآداب السـامع (٢/ ٢٥٧ رقـم١٧٨٠)، وذكـره النـووي فـي الأذكار (ص٧).

الإبل

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧].

قِفْ عند الإبل متأملًا، وانظر إليها متفكرًا! كيف ذلّلها الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكانت مع عظمتها سهلة القيادة؛ يقود الراعي منها العشرات، ويُوقِّف أيًّا منها بِيُسْر، يصوِّت لإحداها لتَبْرُك فتستجيب، ويضع فوقها الأحمال ولا تمتنع، ويحلب الآخر ضرعها فلا تتحرك! لو نظرت لأنيابها، وفكّرت في شراستها لما وقاك منها واقٍ، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طوّعها للإنسان، ولو تخيّلتها مفترسة لما حماك منها حامٍ، إلا أن الله جعلها وديعةً أليفة!

في هذه الآية يندبنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للتفكر في خلق الإبل، والتدبُّر في هذا الكائن العجيب! تَرَى في الإبل الألوان المتعددة؛ المجاهيم، والصفر، والمغاتير، والوضح[1]، وغيرها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦].

(١) المجاهيم: ذات اللون الأسود، والصفر: صفراء المجاهيم التي صفارها يقترب من السواد، أما المغاتير: فيطلق عليها الوضح (العفر)، وهي ذات اللون الأبيض، ومنها الشقح، وهي ذات اللون الأبيض، مصحوبًا ببعض الاحمرار، والحمر، وهي ذات اللون الأحمر، مصحوبًا بالبياض في اليدين، والشعل، وهي ذات اللون الأشقر، ومنها: (الشقراء، والدعما، والبياضية)، والصفر: وهي ذات اللون الأصفر، المصحوب بالسواد في أعلى السنام ونهاية الذيل، وتسمى صفراء مغاتير، والزرق، وهي زرقاء المغاتير، التي لونها أبيض، مصحوبًا بسواد على الكتفين. انظر: موسوعة الإبل، موقع سلة العرب: https: / /om. s-oman. net /showthread. php

وتجد فيها ضخامة الأجسام، وقوة تحمّل الأثقال. الجمل هو الحيوان الوحيد الذي ينهض بحمولته وهو بارك! ويسير بحمولته المسافات الطوال! وهو الصبور على العطش، وعلى جفاف الصحاري، ولديه ذاكرة عجيبة؛ إذ يعود لمعاطنه من مسافات بعيدة، لا يضيع، ولا تختلط عليه الطرق!

لقد كانت الإبل وقت نزول القرآن الكريم وسيلة النقل عند العرب في تلك المرحلة، فنبَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى النظر فيها، وكيف ذلّلها لهم. كُنتُ ذات مرّة في مخيّم إبلٍ لصديق، وما إن اقتربنا من تلك الحظيرة؛ وإذا به يصوّت لهذه، فتقترب، وتخضع برقبتها، ويتقدم للأُخرى بالإناء، وتعرف أنه يريد الحليب، فتهدأ، فيلمس ضرعها، وتجود بالحليب الزلال. سبحان من أخرجه ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون:٢١].

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لمـَّا قرَّر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه السورة حديث الغاشية، وهي يوم القيامة، وبيَّن أنَّ الناس ينقسمون إلى قِسمين: وجوهٌ خاشعةٌ، عاملةٌ ناصبةٌ، تَصْلَى نارًا حاميةً، ووجوهٌ ناعمةٌ، لِسَعْيها راضيةٌ، وبيَّن جزاء هؤلاء وهؤلاء، قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، وهذا الاستفهام للتوبيخ؛ أي إنَّ الله يوبِّخ هؤلاء، الذين أنكروا ما أخبر الله به عن يوم القيامة، وعن الثواب والعقاب، أَنكر عليهم إعراضَهم عن النظر في آيات الله تعالى، التي بين أيديهم، وبدأ بالإبل؛ لأنَّ أكثر ما يُلابس الناس في ذلك الوقت الإبل، فهُم يركبونها، ويحلبونها، ويأكلون لحمها، وينتفعون من أوبارها، إلى غير ذلك من المنافع، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾، وهي الأباعر.

﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ يعني: كيف خلقها الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الجسم الكبير المتحمِّل؛ تجد الجِمال تمشي المسافات الطويلة، التي لا يبلغها الإنسان إلا بشِقِّ الأنفس، وهي مُحَمَّلةٌ بالأثقال، وتجد البعيرَ أيضًا يحمل الأوزان وهو باركٌ، ثم يقوم في حِمله لا يحتاج إلى مساعدة، والعادة أنَّ الحيوان لا يكاد يقوم إذا حُمِّل وهو باركٌ، لكن هذه الإبل أعطاها الله عَزَّوَجَلَّ قوةً وقدرةً من أجل مصلحة الإنسان؛ لأنَّ الإنسان لا يمكن أن يحمل عليها، وهي قائمةٌ لطولها، ولكن الله تعالى يسَّر له الحمل عليها، وهي باركةٌ، ثم تقوم بحِملها، وكما قال الله تعالى في سورة يس: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٣]. منافعها كثيرةٌ، لا تُحصَى، وأهلُها الذين يمارسونها أعلم منَّا بذلك؛ فلهذا قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ولم يَذكر سِواها من الحيوان: كالغنم، والبقر، والظباء وغيرها؛ لأنها -كما قلت لكم- هي أعمُّ الحيوانات نفعًا، وأكثرُها مصلحةً للعباد»[1].

وقال الرازي في تفسيره: «الإبِلُ لَهُ خواصٌّ، مِنها: أنَّه تَعالى جَعَلَ الحَيَوانَ الَّذِي يُقْتَنى أصْنافًا شَتّى؛ فَتارَةً يُقْتَنى لِيُؤْكَلَ لَحْمُهُ، وتارَةً لِيُشْرَبَ لَبَنُهُ، وتارَةً لِيَحْمِلَ الإنْسانَ في الأسْفارِ، وتارَةً لِيَنْقُلَ أمْتِعَةَ الإنْسانِ مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، وتارَةً لِيَكُونَ لَهُ بِهِ زِينَةٌ وجَمالٌ، وهَذِهِ المَنافِعُ بِأسْرِها حاصِلَةٌ في الإبِلِ، وقَدْ أبانَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الغاشية.

﴿ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل:٥-٧]. وإنَّ شَيْئًا مِن سائِرِ الحَيَواناتِ لا يَجْتَمِعُ فِيهِ هَذِهِ الخِصالُ، فَكانَ اجْتِماعُ هَذِهِ الخِصالِ فِيهِ مِنَ العَجائِبِ.

وثانِيها: أنَّه في كُلِّ واحِدٍ مِن هَذِهِ الخِصالِ أفْضَلُ مِنَ الحَيَوانِ الَّذِي لا يُوجَدُ فِيهِ إلّا تِلْكَ الخَصْلَةُ؛ لأنَّها إنْ جُعِلَتْ حَلُوبَةً سَقَتْ فَأرْوَتِ الكَثِيرَ، وإنْ جُعِلَتْ أكُولَةً أطْعَمَتْ وأشْبَعَتِ الكَثِيرَ، وإنْ جُعِلَتْ رَكُوبَةً أمْكَنَ أنْ يُقْطَعَ بِها مِنَ المَسافاتِ المدِيدَةِ ما لا يُمْكِنُ قَطْعُهُ بِحَيَوانٍ آخَرَ، وذَلِكَ لِما رُكِّبَ فِيها مِن قوَّةِ احْتِمالِ المُداوَمَةِ عَلى السَّيرِ، والصَّبرِ عَلى العَطَشِ، والِاجْتِزاءِ مِنَ العُلُوفاتِ بِما لا يَجْتَزِئُ حَيَوانٌ آخَرُ، وإنْ جُعِلَتْ حَمَلَةً اسْتُغِلَّتْ بِحَمْلِ الأحْمالِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي لا يَسْتَقِلُّ بِها سِواها، ومِنها: أنَّ هَذا الحَيَوانَ كانَ أعْظَمَ الحَيَواناتِ وقْعًا في قَلْبِ العَرَبِ، ولِذَلِكَ فإنَّهم جَعَلُوا دِيَةَ قَتْلِ الإنْسانِ إبِلًا، وكانَ الواحِدُ مِن مُلُوكِهِمْ إذا أرادَ المُبالَغَةَ في إعْطاءِ الشّاعِرِ، الَّذِي جاءَهُ مِنَ المَكانِ البَعِيدِ أعْطاهُ مئة بَعِيرٍ؛ لِأنَّ امْتِلاءَ العَيْنِ مِنهُ أشَدُّ مِن امْتِلاءِ العَيْنِ مِن غَيْرِهِ؛ ولِهَذا قالَ تَعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦]. ومِنها: أنِّي كُنْتُ مَعَ جَماعَةٍ في مَفازَةٍ فَضَلَلْنا الطَّرِيقَ، فقدَّموا جَمَلًا وتَبِعُوهُ، فَكانَ ذَلِكَ الجَمَلُ يَنْعَطِفُ مِن تَلٍّ إلى تَلٍّ، ومِن جانِبٍ إلى جانِبٍ، والجَمِيعُ كانُوا يَتْبَعُونَهُ حَتّى وصَلَ إلى الطَّرِيقِ بَعْدَ زَمانٍ طَوِيلٍ، فَتَعَجَّبْنا مِن قُوَّةِ تَخَيُّلِ ذَلِكَ بِالحَيَوانِ، أنَّهُ بِالمَرَّةِ الواحِدَةِ كَيْفَ انْحَفَظَتْ في خَيالِهِ صُورَةُ تِلْكَ المَعاطِفِ، حَتّى إنَّ الَّذِي عَجَزَ جَمْعٌ مِنَ العُقَلاءِ إلى الِاهْتِداءِ إلَيْهِ، فَإنَّ ذَلِكَ الحَيَوانَ اهْتَدى إلَيْهِ. ومِنها: أنَّها، مَعَ كَوْنِها في غايَةِ القُوَّةِ عَلى العَمَلِ، مُباينَةٌ لِغَيْرِها في الِانْقِيادِ والطّاعَةِ

لِأَضْعَفِ الحَيَواناتِ كالصَّبيِّ الصَّغِيرِ، ومُبايَنَةٌ لِغَيْرِها أيْضًا في أنَّها يُحْمَلُ عَلَيْها وهي بارِكَةٌ ثُمَّ تَقُومُ، فَهَذِهِ الصِّفاتُ الكَثِيرَةُ المَوْجُودَةُ فِيها، تُوجِبُ عَلى العاقِلِ أنْ يَنْظُرَ فـي خِلْقَتِها وتَرْكِيبِها، ويَسْـتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلى وُجُودِ الصّانِعِ الحَكِيمِ سبحانه، ثُمَّ إنَّ العَرَبَ مِن أعْرَفِ النّاسِ بِأحْوالِ الإبِلِ في صِحَّتِها وسَـقَمِها ومَنافِعِها ومَضارِّها، فَلِهَذِهِ الأسْبابِ حَسُنَ مِنَ الحَكِيمِ تَعالى أنْ يَأْمُرَ بِالتَّأمُّلِ في خِلْقَتِها»[1]

إن القرآن الكريم خير النعم؛ يهدينا للتفكر في خلق الله، ويدفعنا إلى التأمل في صنع الله، فالإبل أوجدها الله؛ كرامةً للإنسـان، يحملُ عليها، ويـأكُلُ لحمها، ويشـربُ حليبها، ويسـتفيدُ من وَبَرِهـا وجِلْدِهَا. ومع عظمتِهَا وشراستِهَا، فقد ذلّلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للإنسان! قال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧٢، ٧٣]. وأورد القرطبي: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾؛ أَيْ سَـخَّرْنَاهَا لَهُمْ، حَتَّـى يَقُودَ الصَّبِيُّ الْجَمَلَ الْعَظِيمَ، وَيَضْرِبَهُ، وَيَصْرِّفَهُ كَيْفَ شَاءَ، لَا يَخْرُجُ مِنْ طَاعَتِه»[2].

إنها كائن عجيب، يدفـع للتفكّر بما فيه، من دقة الخلق وإتقانه، فَمن الذي خلقها وذلّلها للإنسان؟ إنه الخالق سبحانه! سبحانه.

(١) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين فخر الدين الرازي (٣١/ ١٤٤-١٤٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي (٥/ ١٥).

اتَّقِ اللّه

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:١-٣].

لــو قُلتَ لزيدٍ من الناس: «اتَّقِ الله»، فلربما انتفخت أوداجه، لِمَ تقول له ذلك القول؟! ولو قلت لصاحب ســلطةٍ وشــأن، قليل العلم، صغير العقل، ضئيل الفقه: «اتق الله». فلربما يبطش بك!

إنه القصور المعرفي، والنقص البشري، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُخاطب خير البشرية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويأمره بأربعة أوامر؛ بتقوى الله وخشيته، وبالقوة والصلابة مع الكافرين والمنافقين وعدم طاعتهم، واتباع وحيه سبحانه: أوامره وزواجره، والتوكل، والركون إلى الله تعالى؛ اتَّقِ، ولا تُطعْ، واتَّبعْ، وتوكَّلْ!

إن تقوى الله خيــر عطر تزدان به النفوس، رزقنا الله خشــيته وتقواه، ومنحنا نُور البصيرة، واتباع كتابه، والتوكل عليه!

من لطائــف ما نقله الذهبي وابن كثير عن ابــن الجوزي، أنه «التفت إلى ناحية الخليفة المستضيء وهو في الوعظ، فقال: يا أمير المؤمنين! إن

تكلّمتُ خِفْتُ منك، وإن سكتُّ خِفتُ عليك، وإنّ قول القائل لك: اتقِ الله! خيرٌ لك من قوله لكم: إنكم أهلُ بيتٍ مغفورٌ لكم[1]! كان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني عن عاملٍ لي أنه ظلم فلم أغيّره؛ فأنا الظالم. يا أمير المؤمنين، كان يوسف لا يشبع في زمن القحط؛ حتى لا ينسى الجائع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة، ويقول: قرقر أو لا تقرقر! واللهِ لا ذاق عمرٌ سمنًا ولا سمينًا حتى يُخْصِب الناس. قال: فبكى المستضيء، وتصدّق بمالٍ جزيل، وأطلق المحابيس، وكسى خلقًا من الفقراء»[2].

إن الخطاب الربّاني في هذه الآيات، وإن كان للرسول ﷺ، فهو لكل مسلم، فنحن الأولى بالوعظ والتحذير، ونحن المقصرون!

قال ابن كثير: «هذا تنبيهٌ بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فَلَأَنْ يأتمرُ مَنْ دُونه بذلك، بطريق الأولى والأحرى. وقد قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله؛ مخافة عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ أي: لا تسمع منهم، ولا تستشرهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾؛ أي: فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه، فإنه عليمٌ بعواقب الأمور، حكيمٌ في أقواله وأفعاله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: من قرآن وسنة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾؛ أي: فلا تخفى عليه خافية، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: في

(١) سير أعلام النبلاء: الذهبي (٢١/ ٢٧٣).
(٢) البداية والنهاية: ابن كثير، ط: هجر، (١٦/ ٧٠٩).

جميع أمورك وأحوالك. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ أي: وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه، وأناب إليه»[1].

ومما قاله الشيخ ابن عثيمين عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ قوله: «لو أخذنا بظاهر العبارة لكان النبي ﷺ حين توجيه الخطاب إليه لم يكن مُتَّقِيًا، وهذا أمر لا يمكن؛ لذلك يكون معنى ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: دُمْ على تقواه، ومن هنا نأخذ أن الأمر بالشيء قد يكون أمرًا بتجديده، وقد يكون أمرًا بالاستمرار عليه، وقد يكون أمرًا بالتفصيل لهذا المأمور به، فمثلًا إذا قلت: يا أيها المؤمن آمِنْ، فالمعنى: دُمْ على إيمانك وحَقِّقْه.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]، الأمر هنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: دُومُوا عليه، لكن فيه تفصيل، يعني: آمَنُوا مُجْمَلًا، ثم قال: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾. فصار -إذن- توجيه الأمر في الأصل يوجَّه إلى مَن لم يكن مُتَلَبِّسًا به، هذا هو الأصل، وقد يوجَّه إليه لطلب الاستمرار، وقد يوجَّه إليه لبيان التفصيل، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ دائمًا تأتي التقوى في القرآن الكريم كثيرًا، فما معنى التقوى؟ التقوى هي أن يتخذ الإنسان وقايةً من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولا وقاية من عذاب الله، إلا بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وعلى هذا فنقول: إن المراد بالتقوى فِعْل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: سامي محمد السلامة (٦/ ٣٧٥-٣٧٦).

ومن المعلوم أننا إذا قلنا: فِعْل أوامر الله، أوامر مضاف إلى الله، أن الإنسان سينوي بهذا الفعل امتثال أمر الله، وكذلك إذا قلنا: اجتناب نَهْي الله، فإن الإنسان سيجتنبه؛ لأن الله نهى عنه؛ لأن مجرد الفعل دون نيّة ليس بتقوى، ومجرد الترك دون نيّة ليس بتقوى، لكن لمَّا كان الفعل والترك مضافًا إلى الله صار لا بُدَّ فيه من النية. ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعتك، ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ عَطْف قولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ على ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن ترك طاعة هؤلاء من تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون عطفه على التقوى، من باب عطف الخاص على العام، وهذا كثير في القرآن والسنة وكلام العرب.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، الكافر هو الذي صرَّح بكفره وأعلنه، وأما المنافق فهو الذي أخفى كُفْرَه، وأَظْهَرَ أنه مؤمن.

ومعلومٌ أن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يمكن أن يطيع الكافر، لكن الذي يمكن أن يطيع المنافق؛ لأن المنافق لا يُحِسّ بنفاقه وكفره، ولا يُعْلَم عنه، فقد يغتر به الإنسان، فلهذا قدَّم الله الكافرين هنا على المنافقين، مع أنه في باب الوعيد يقدِّم المنافقين على الكافرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب:٧٣].

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾، بما يكون قبل كونه، ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يخلقه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١]، هذه الجملة محلها أو موضعها مما قبلها في المعنى تعليلية، ووجه كونها تعليلًا لما قبلها: أن الله لَمَّا أمر نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالتقوى، ونهاه عن طاعة الكافرين، بَيَّنَ أن هذا الأمر والنهي

صـــادرٌ عن علمٍ وحكمة، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بما يكيده هؤلاء الأعداء من الكفار والمنافقين، فلا تطعهم، فليسوا أهل نصرٍ لك أبدًا»[1].

ومما أورده الزمخشـــري في تفســـيره قوله: «جعل الله نـــداءه بالنبيِّ والرســـول في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحـــزاب:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم:١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٦٧].

وترك نداءه باســـمه، كما قال: يا آدم. يا موســـى، يا عيسى. يا داود: كرامةً له وتشريفًا، ورِبْئًا بمحلّه، وتنويهًا بفضله.

فإن قلت: إن لم يوقع اســـمه في النداء، فقـــد أوقعه في الإخبار، في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤].

قلـــت: ذاك لتعليـــم الناس بأنه رســـول الله، وتلقينٌ لهم أن يســـموه بذلـــك ويدعوه به، فلا تفـــاوت بين النداء والإخبـــار، ألا ترى إلى ما لم يقصد بـــه التعليم والتلقين مـــن الأخبار، كيف ذكره بنحـــو ما ذكره في النـــداء، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]، ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ﴾ [الفرقـــان:٣٠]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحـــزاب:٢١]، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبـــة:٦٢]، ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحـــزاب:٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ﴾ [المائدة:٨١].

﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: واظب علـــى ما أنت عليه من التقوى، واثبت عليه، وازدد منه، وذلك لأن التقوى بابٌ لا يبلغ آخره.

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأحزاب.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ لا تساعدهم على شيء، ولا تقبل لهم رأيًا ولا مشورة، وجانبهم واحترس منهم، فإنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين، لا يريدون إلا المضارّة والمضادّة.

وروي أنّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما هاجر إلى المدينة كان يحب إسلام اليهود: (قريظة، والنضير، وبني قينقاع)، وقد بايعه ناس منهم على النفاق، فكان يلين لهم جانبه، ويكرم صغيرهم وكبيرهم، وإذا أتى منهم قبيحٌ تجاوز عنه، وكان يسمع منهم فنزلت.

وروي أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، قدموا عليه في الموادعة التي كانت بينه وبينهم، وقام معهم عبدالله بن أُبيّ، ومعتب بن قشير، والجدُّ بن قيس، فقالوا للنبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارفض ذكر آلهتنا، وقل إنها تشفع وتنفع، وندعك وربك، فشقّ ذلك على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين، وهموا بقتلهم، فنزلت: أي ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في نقض العهد، ونبذ الموادعة، ولا تطع الكافرين من أهل مكة، والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا إليك.

وروي أنّ أهل مكة دعوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يرجع عن دينه، ويعطوه شطر أموالهم، وأن يزوجه شيبة بن ربيعة بنته، وخوّفه منافقو المدينة، أنهم يقتلونه إن لم يرجع. فنزلت ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالصواب من الخطأ، والمصلحة من المفسدة، ﴿حَكِيمًا﴾ لا يفعل شيئًا، ولا يأمر به إلا بداعي الحكمة، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [يونس:١٠٩] في ترك طاعة الكافرين والمنافقين، وغير ذلك، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي يوحي إليك خبير

﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:٢٩]، فمُوحٍ إليك ما يصلح به أعمالكم، فلا حاجة بكم إلى الاستماع من الكفرة»[١].

إنها روايات، لكن الثابت أن هذا الخطاب الربّاني، وإن كان للرسول ﷺ، فهو لأتباعه، تنبيهٌ وتذكيرٌ بتقوى الله، واتباع أوامره، وترك نواهيه، والحذر من العُصاة، والتوكل على الله سبحانه.

رزقنا الله حسن التوكّل.

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (٣/ ٥١٩).

أربعُ قَصص

قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣].

سورةٌ كريمة، تضمَّنت مع قصة هؤلاء الفتية، ثلاث قصص حقيقية أُخرى، عرضها ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه السورة الشريفة، وبقيت هذه القصص محفوظة، تقرأها أُمّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تقوم الساعة، وقد خلّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه القصص الأربع، وغيرها من القَصَص القرآني؛ لتكون دروسًا لعباده الصالحين -جعلنا الله منهم- ربِّ ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]. عرض الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تلك القصص الأربع متواليات.

قال الشيخ ابن عثيمين في تفسيره: «نِعْمَ القائلُ؛ صدقًا، وعلمًا، وبيانًا، وإيضاحًا؛ لأن كلام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: متضمّنٌ للعلم، والصدق، والفصاحة، والإرادة؛ أربعة أشياء: كلامه عَزَّوَجَلَّ عن علم، كلامه أيضًا عن صدق، كلامه في غاية الفصاحة، إرادته بهذا الكلام خير إرادة، يُريدُ بما يتكلم به أن يهدي عباده.

إذن، ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾ قصصُ الله عَزَّوَجَلَّ أجمل القصص، وأحسن القصص؛ لأنه صادر عن علم، والثاني: عن صدق، والثالث: بأفصح ألفاظه وأبينها وأوضحها، ولا شيء أوضح من كلام الله، إلا من أزاغ الله قلبه، وقال: إن

هذا أســـاطير الأولين، والرابع: الإرادة، لم يرد الله عَزَّوَجَلَّ بما يقصّ علينا أن نضلّ، ولا بما حكم علينا أن نضلّ، بل أراد أن نهتدي، وأن نعتبر»[1].

وقد حكت كل قصة في هذه الســـورة العظيمة، ركنًا مهمًّا من أركان الحيـــاة الدنيا، لتكون أربعة أركان أساســـية؛ تضمّنت القصة الأولى أهم تلـــك الأركان، وهو العقيدة وإفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبادة، واحتوت القصة الثانية على الدنيا وفتنتها، وتفضيلها على الآخرة، ونهاية المفتُون بدنياه، وتناولـــت القصة الثالثة العلم؛ نورُ الحيـــاة الدنيا، وما يجب أن يتحلّى به العلماء، وسطّرت القصة الرابعة حكاية الملك والسلطة والعدل.

فالقصة الأولى، انتصر فيها أهل العقيدة، وإفراد الله بالعبادة، ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطٗا﴾ [الكهف:١٤]. وقد أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بفوز أُولئك الفتيان، وجاءت هذه السورة باسم مأواهم (الكهف)؛ تشـــريفًا لهم، وتخليدًا لذكراهم، ولتعلم أُمّة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أن الثبات على الحق خالـــدٌ أصحابُه، حتى وإن رحلوا. لقد حكى القرآن أنهم فتية، والفتوّة هي ما قبل الشباب وبدايتُه، لقد أيقظ الله ضمائرهم وهداهم للحق، فدعوا ربهم، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف:١٠]، فاستجاب الله دعاءهم، وشملهم برحمته، وأنار بصائرهم. إن الهداية بيد الله؛ فكم من صغارٍ خيرٌ من كهول، وكم من فتيان خيرٌ من شيوخ.

يقول الشيخ الشعراوي: «نلاحظ هنا أن هؤلاء المؤمنين الذين ضحّوا بكل شيءٍ، وفرّوا بدينهم، ما زالوا في مرحلة الشباب، وهو مَظِنَّةُ الانشغال

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الكهف:١٣.

بالدنيا، والحِرص على مُتعِها، أما هؤلاء فقد انشغلوا بدينهم مُنذ صِغرهم؛ ليكونوا قدوةً ومثلًا للشباب المؤمن، في كلِّ زمانٍ ومكان»[١].

إن السعيد هو ذاك الذي أنار الله بصيرته، فسلك طريق الرشاد. لقد ثبَّتَ اللهُ أولئك الفتية وهم فتيانٌ حديثو السن، وأرشدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للهروب من قومهم، وخلّد قصتهم، وكيف اُخْتُلِفَ حول عددهم، المهم هو موقفهم الثابت، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]. هنيئًا لهم؛ إذ قرّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إيمانهم، وزادهم عَزَّوَجَلَّ هدىً، وربط على قلوبهم. نسأله الهداية، والمزيد من الهداية، وأن يربط على قلوبنا.

يقول الشعراوي عن هؤلاء الفتية: «أبهمهم زمانًا، وأبهمهم مكانًا، وأبهمهم عددًا، وأبهمهم أشخاصًا؛ ليشيع خبرهم بهذا الوصف في الدنيا كلها، لا يرتبط بزمان ولا مكان ولا أشخاص، فحمل راية الحق، والدفاع عنه أمرٌ واجب وشائعٌ في الزمان والمكان والأشخاص، وهذا هو عين البيان للقصة»[٢].

وقال أيضًا: «كيف أن الحقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أبهمهم أسماءً، وأبهمهم مكانًا، وأبهمهم زمانًا، وأبهمهم عددًا؛ ليكونوا أُسوةً وقُدوةً للفتيان المؤمنين في أي زمانٍ، وفي أي مكانٍ، وبأي عددٍ»[٣].

لقد رحل قوم ذاك الزمان، وفاز أُولئك الفتية برضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم، وبقيت قصتهم خالدةً، يتعبد المسلمون ربّهم بقراءتها، وصارت مَنْهجَ نجاةٍ لمنْ أُوذي في دين الله؛ لِيفرَّ إلى فضاء الله الواسع، فأرضُ الله فسيحة!

(١) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٨٥٢).
(٢) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٨٦٧).
(٣) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٩٧٥).

إن شـــهادة أن لا إلـــه إلا الله، وإفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعبـــادة، أهم أركان الإســـلام، وهذا ما أرشـــدَت إليه القصةُ الأولى، حتى ولو لزم الهروب وترك الوطن؛ لأجل دين الله، فذاك رســـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك مكة، وهي أحبُّ البقاعِ إليهِ؛ لأجل دين الله. عن ابن عباس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نظر إلى مكة، فقال: «**إنّكِ لأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أن قومي أخرجوني منكِ ما خرجتُ**»(١).

والقصة الثانية في هذه الســـورة، حول الدنيـــا والمفاضلة بينها وبين الآخرة، عرضـــت القصة حكاية الرجلين؛ الأول أطغتُه دنياه، وأعمته عن آخرته، لم يشـــكر الله على ما أعطاه، افتخـــر، وتباهى على الرجل الآخر الصالح، وأعرض عن تذكير صاحبـــه ووعظه. وتمثلت القصة في حوار بين الرجلين؛ الأول جاحد يفاخر الثاني بكثرة المال، والحشـــم والخدم والولد ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤]، ويتمادى في غروره ويزداد كِبـــرهُ، فيقول عن جَنَّتِـــهِ: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الكهـــف:٣٥]، ويتعالى، ويتطـــاول على الغيب، فينْكِـــرُ قيام الســـاعة؛ إذ يقول: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، ويـــزدادُ تعاليهِ وباطِله، ويدفعُه الشـــيطان للتجاوز، فيقول هذا المغـــرور: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦]. ورد عن قتادة قال: «تلك -والله- أُمنية الفاجر: كثرة المال، وعزة النَّفَر»(٢). والرجل الثاني شاكرٌ مؤمنٌ بالله، راضٍ بعطاءِ الله. إنّ الدنيا، وإن ضحكت وأقبلت،

(١) أخرجه البزار في البحر الزخار (١١/ ٢٩٥ رقم٥٠٩٥)، والترمذي (٥/ ٧٢٣ رقم ٣٩٢٦)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وصححه ابن حبان (٩/ ٢٣ رقم ٣٧٠٩)، وكذا صححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير، أبو جعفر الطبري، ت: أحمد شاكر (١٨/ ٢٢).

فالواجب شكر الله وأداء حقوقه ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف:٣٩]. إنها زهرةٌ في ومضة عين، تتغير من حالٍ إلى حال، ولئن كان الثاني أقلَّ من صاحِبه ثراءً، فقد سأل الله خيرًا من جنته، وحين رأى عِناد صاحبه وضلاله، دعا عليه، واستجاب الله دعاءه، فكانت النهاية السيئة لتلك الدنيا، المقبلة على ذاك الكافر بنعمةِ الله ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢].

فسياق القصة الثانية فيه تحذيرٌ من الدنيا وفتنتها في حوار الرجلين، ومن ثم كانت تلك القصة تنبيهًا ألا تخدعنا الدنيا وإقبالها، فلتكن ألسنتنا رطبة بذكر الله وشكره، ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩]، ولنوقن أن نعمة الإسلام والإيمان خير من الدنيا وما فيها.

مما قاله الشيخ ابن سعدي عن هذه القصة، التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف:٣٢، ٣٣] قوله: «يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين؛ الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل، والثواب؛ ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي: زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبدالرحمن اللويحق (ص٤٧٦).

وتأتي بعد ذلك في هذه السورة **القصة الثالثة** حول العلم والعلماء، وأفضلية طلب العلم، ففوق كل ذي علم عليم، فلا يغتر عالمٌ بعلمه، فذاك نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ينشد العلم والمعرفة، وهو نبي الله وكليمه ورسوله، يعرف أن هناك منْ هو أعلم منه، ويذهب يبحث عنه، فيجده عند ملتقى البحرين، ويصحبه نبي الله، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦]. هو العلم تُشدُّ له الرحال. وفي القصةِ إشارةٌ للأَدبِ مع المعلم.

قال الشعراوي: «إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلّمُنا أدبَ تلقّي العلم، وأدب التلميذ مع معلّمه، فمع أن الله تعالى أمر موسى أن يتّبع الخضر، فلم يقل له موسى مثلًا: إن الله أمرني أن اتّبعك، بل تلطّف معه، واستسمحه بهذا الأسلوب، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾»[1].

تحكي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن العلم وطلبه، والصبر عليه مع العبد الصالح، الذي عَرَّفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووصفه بالرحمة، وبتعليمه عِلمًا يجهله نبيه ورسوله موسى، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]. إن هذه القصة أرشدت طالب العلم للسفر في طلبه، والصبر عليه، ووجّهت المعلمين للتحلّي بصفة الرحمة، وشرح ما خفي عن الطلبة، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]. وفي هذه القصة درسٌ علميٌّ دقيق، فقد وصف الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذاك المعلم: أنه عبدٌ من عباد الله، في حين وصف خادِم نبيهِ -موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ- بكونه فتاه.

(١) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٩٥٥).

جاء في لسان العرب: «في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا يقُولَنّ أحدُكم: عبدي وأمَتي، ولكن ليَقُلْ: فتاي وفتاتي**»[1]؛ أي غُلامي وجاريتي، كأنه كرِه ذكر العبودية لغير الله، وسَمّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صاحب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي صحبه في البحر فتاه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف:٦٠] قال: لأنه كان يخدمه في سفره، ودليله قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف:٦٢]»[2].

قال الشيخ الشعراوي: «العبودية إن كانت لله تعالى فهي العزُّ والشرف، وإن كانت لغير الله فهي الـذلُّ والهوان، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأخذ حظوة الإسـراء والمعراج، إلا لأنه عبدالله، كما قال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١]. كما أن العبودية لله يأخذ فيه العبدُ خيرَ سيِّده، أما العبودية للبشر فيأخذ السيِّدُ خيرَ عبده»[3].

أما القصة الرابعة: فاحتوت على الملك والسلطة؛ فذو القرنين أعطاه الله الملك، ومكّنه، وآتاه من كل شيءٍ سببًا. مما جاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين عن ذي القرنين، قال: «الرجل ملكٌ عادل، ملكٌ عاقل، ويدل لعقله ودينه، أنه قال: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٧، ٨٨] **حُكم عدل**».

ويقول الشـيخ: «تأمل في حال المشرك، بدأ بتعذيبه، ثم ثنَّى بتعذيب الله، المؤمن بدأ بثواب الله أولًا، ثم معاملته باليسـر ثانيًا، والفرق ظاهر؛

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤١٢ رقم ٢٥٥٢).
(٢) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. مادة: فَتيَ. (١٥/ ١٤٥).
(٣) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٩٥٣).

لأن مقصـــود المؤمن والعامل الصالحات ما هـــو؟ الوصول إلى الجنة، والوصول إلى الجنة لا شـــك أنه أفضل وأشرف من أن يقال له قول يسر، وهذا يدل على أن هذا الملك فصيح بليغ، ينزِّل القضايا منازلها»[١].

قال الشـــيخ الشـــعراوي: «ذِكرُ ذي القرنين في كتاب الله شرفٌ كبير، وفيه إشـــارة إلى أن فاعل الخير له مكانته، ومنزلته عند الله، ومُجازىً بأنْ يُخلّد ذكره، ويبقى صيتُه بين الناس في الدنيا»[٢].

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الكهف.
(٢) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٩٨١).

الأرحام

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٢-٢٣].

تحذيرٌ ربَّاني من قطيعة الرحم؛ إنه كتاب الله الكامل؛ فيه الخير، ومنهج المحبة، وعِمارة البيوت، جعل الإسلام للأسرة شأنًا ومقامًا، فأوصى القرآن بالوالدين، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان:١٤].

وقرن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين عبادته والإحسان للوالدين، فقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، ونهى عن الضجر، ورفع الصوت عليهما، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

والأجداد والجدّات، والإخوة والأخوات، والأعمام والعمّات، والأخوال والخالات، وأبناء أُولئك؛ لهم أرحامٌ جمعتهم، ووشائجُ ربطتهم، وقَرَاباتٌ شَبَكَتْهُم، جعل القرآن لهم حقًّا في مالك، الذي

تشـــقى في جمعه، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسـراء:٢٦]. ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم:٣٨]. ونلحظ تقديم القرآن لهم، ومنحهم أولوية في العطاء.

ويوصي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأقربين؛ إذ يســأل الصحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي شــيءٍ يُنفِقونَ مِن أَصنافِ أَموالِهِمْ، تقرُّبًا إلى الله، وعلى مَنْ يُنْفِقُون؟ فيأتي الجوابُ مِنَ الســماءِ، خالدًا باقيًا: أن أنفقوا خَيْرَ ما تيســر لكم من أصناف المال الحلال الطيب، واجعلوا نَفَقتكُم أولًا للوالدين، والأقربين، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢١٥].

واهتم القــرآن بالمواريث؛ إذ نزلت قســمة المال بعــد الموت من الســماء، فَدَخَلَ الأرحامُ في الميراث، في حالاتٍ متعددة، وأوصى لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في لحظات الموت، في ساعة الاحتضار: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقــرة:١٨٠]. إن العاقــل يقف عند هذه الآية الكريمة، فيســمع كلام الله، يعظه، ويأمُرُه بأقربائه، ألا ينساهم، وهو في لحظات الموت، فكيف يقطع المُسْلِمُ رَحِمَهُ، ويعِقُّ أقرباءه، وهو صحيحٌ مُعافى؟

هو الإسلام دين الصلة والرحمة، والحب والمحبة.

وفي آية هــذا المجلس تحذيرٌ من قطيعة الرحم، وفي الســنة النبوية أحاديث كريمة، تدعو للصلة والتواصل.

قال الشيخ ابن سعدي عند تفسيره لآية هذا المجلس: «ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربّه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شرّ، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد:٢٢]؛ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فَثَمّ الخيرُ والرشدُ والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتَوَلٍّ عن طاعة الله، فما ثَمَّ إلا الفساد في الأرض، بالعمل بالمعاصي، وقطيعة الأرحام، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [محمد:٢٣].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾، أفسدوا في الأرض، وقطّعوا أرحامهم، ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله، ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم، ولا يبصرونه، فلهم آذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعًا، تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العِبَر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبينات»[1].

ومما قاله ابن كثير حول آية هذا المجلس: «نَهْيٌ عَنِ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ عُمُومًا، وَعَنْ قَطْعِ الْأَرْحَامِ خُصُوصًا، بَلْ قَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْإِصْلَاحِ فِي الْأَرْضِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَهُوَ الْإِحْسَانُ إلى الْأَقَارِبِ فِي الْمَقَالِ، وَالْأَفْعَالِ، وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ. وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ وَالْحِسَانُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ طُرُقٍ عَدِيدَةٍ، وَوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ»[2].

(١) تفسير السعدي (١/ ٧٨٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ١٥٣).

جاء في صحيح البخاري عــن أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلًا، قال: يا نبيَّ اللهِ! أخبِرْني بعملٍ يُدخِلُنــي الجنَّةَ. فقال القومُ: ما له! ما له؟ فقال رســولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرَبٌ ما له**»[1]، فقال رســولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعبُدُ اللهَ، لا تُشــرِكُ به شيئًا، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتي الزَّكاةَ، وتصِلُ الرَّحمَ، ذَرْها**» قال: كأنَّه كان على راحلتِه[2].

وعن ابن شهاب: أن محمد بن جبير بن مطعم، قال: إن جبير بن مطعم أخبرهُ: أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يدخُلُ الجنَّةَ قاطعٌ**»[3].

ولأهمية العلاقات الأسرية؛ يرد التأكيد بوصل الرحم، والتحذير من القطيعة، قال تعالــى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد:٢١].

قال الطبري في تفســيره: «يقول تعالى: والذين يصلون الرَّحم، التي أمرهــم الله بوصلها، فلا يقطعونهــا، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، ويخافون الله في قطْعها أن يقطعوها، فيعاقبهم على قطعها»[4].

وقال البغوي في تفسيره: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾: «الأكثرون على أنه أراد به صلة الرحم». عن أبي بكرة نفيع بن الحارث: «**ما من ذنبٍ أجدرُ أن يُعجِّلَ اللهُ تعالى لصاحبِه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يَدَّخِرُه له في الآخرةِ من قطيعةِ الرَّحِمِ، والخيانةِ، والكذبِ،**

(١) أَرَبٌ مَا لَه؟ يعني: له حاجة، يطلُبها، ويسأل عنها جاءت به.
(٢) أخرجه البخاري (١٥/ ١٤٩ رقم٥٩٨٣).
(٣) أخرجه البخاري (١٥/ ١٥١ رقم٥٩٨٤)، ومسلم (٤/ ١٩٨١ رقم ٢٥٥٦).
(٤) جامع البيان في تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر (١٦/ ٤٢٠).

وإنَّ أَعجلَ الطاعــةِ ثوابًا لَصِلَةُ الرَّحِمِ، حتى إنَّ أهلَ البيتِ ليكونوا فجَرةً، فتنمو أموالُهم، ويكثُرُ عددُهم، إذا تواصَلوا»[1].

إن ما ورد في كتاب الله الكريم من آيات، حول صلة الرحم، وما جاء في السنة النبوية من أحاديث واضحة جليّة، تُحذِّرُ من قطيعة الرحم، تِبْيَانٌ لأهمية الترابط الأُسري، وعِظَمِ الشأن العائلي.

يقــول ابن الجوزي: «عداوة الأقارب صعبــة، وربما دامتْ: كحرب بكرٍ وتغلب ابنَي وائل. وعبسٍ وذبيــانَ ابنَي بغيضٍ. والأوسِ والخزرج ابني قَيْلَةَ. قال الجاحِظُ: تعدَّت هذه الحربُ أربعين عامًا.

والسببُ في هذا: أنَّ كلَّ واحدٍ من الأقارب يكرهُ أن يفوقَه قريبُه، فيقع التحاسد.

فينبغي لمن فُضِّلَ على أقاربه أن يتواضع لهم، ويرفَعَهم جَهْدَه، ويرفُقَ بهم؛ لعلَّه يسلمُ»[2].

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي ذَوِي أَرْحَامٍ، أَصِلُ وَيَقْطَعُونِي، وَأَعْفُو وَيَظْلِمُونَ، وَأُحْسِــنُ وَيُسِيئُونَ، أَفَأُكَافِئُهُمْ؟ قَالَ: «**لَا، إِذَنْ تُتْرَكُونَ جَمِيعًا،**

(١) قال البوصيري في إتحاف الخيرة (٥/ ١٧٨ رقم٥٠٥٨): رواه أبو يعلى والطبراني وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٥٧٠٥)، وانظر: تفسير البغوي، (١/ ٣١٠).

(٢) صيدُ الخاطر: جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، بعناية: حسن سويدان (ص٤٧٦-٤٧٧).

وَلَكِنْ خُذْ بِالْفَضْلِ وَصِلْهُمْ؛ فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ ظَهِيرٌ مِنَ اللهِ، عَزَّوَجَلَّ، مَا كُنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[1].

وباستعراض بعض الأحاديث النبوية، نعرف كيف حثَّ الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على صلة الرحم، وبيّن ما للواصل رحمه من خير!

قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَن سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ له في أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[2].

وعن أبي هريرة عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ، حتَّى إذا فَرَغَ مِن خَلْقِهِ، قالتِ الرَّحِمُ: هذا مَقامُ العائِذِ بكَ مِنَ القَطِيعَةِ؟ قالَ: نَعَمْ، أما تَرْضَيْنَ أنْ أصِلَ مَن وصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَن قَطَعَكِ؟ قالَتْ: بَلَى يا رَبِّ، قالَ: فَهو لَكِ**، قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **فاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾** [محمد:٢٢]»[3].

واليوم في هذا الزمان ضعفت عند كثيرين عاطفة الرحم، وقلَّ في فئام من الناس تواصل الأرحام، وأصبحوا كأنهم من أولئك الذين حذّرهم الله بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر:١٩].

لقد عرفنا واقعًا مُرًّا لأسر تقاطعت بسبب المال والميراث، غلبتهم شهوة المال، وأَنْستهُم الدُّنيا الرحمَ وحُقوقَها، تشاكسوا وتشاتموا،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١/ ٣٠٣ رقم ٦٧٠٠)، ومسلم بلفظ مختلف (٤/ ١٩٨٢ رقم ٢٥٥٨)، وفيه فقال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمت على ذلك».

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٥ رقم ٢٠٦٧)، ومسلم (٤/ ١٩٨٢ رقم ٢٥٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (١٢/ ٨٧ رقم ٤٨٣٠)، ومسلم (٤/ ١٩٨٠ رقم ٢٥٥٤).

وفصلت المحاكم بينهم، ولو كان مُوَرِّثُهم فقيرًا ما اختلفوا ولا تنازعوا. هو المال، وقانا الله بلاءَه وغَلَبَتَهُ.

عن أنس بن مالك: «**الرحِمُ شِجْنَةٌ متمسِّكةٌ بالعَرشِ، تكلَّمَ بلِسانٍ ذَلِقٍ: اللهمَّ صِلْ من وَصَلَني، واقطَع من قَطعني، فيقولُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أنا الرَّحمنُ الرَّحيمُ، إنِّي شقَقتُ للرِّحِمِ مِن اسمي، فمَن وصلَها وصَلْتُه، ومن بتكَها بتكْتُهُ**»[1].

قال شُرّاح الحديث: «في هذا الحديثِ يقولُ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الرَّحِمَ شِجْنَةٌ**»، والشِّجْنةُ -بكَسرِ الشِّينِ وضَمِّها كذلك- في الأصلِ: عُروقُ الشَّجرِ المُشتَبِكةُ، والمُرادُ بها: القَرابةُ المُشتبِكةُ كاشتِباكِ العُروقِ، «**مُتمسِّكةٌ بالعرشِ، تكلَّمُ بلِسانٍ ذَلِقٍ**»، أي: تتكلَّمُ بلِسانٍ فَصيحٍ طَلقٍ، وتقولُ: «**اللهُمَّ صِلْ مَن وَصَلني**»؛ أي: أعْطِه الرَّحمةَ والإحسانَ والإنعامَ، «**واقطَعْ مَن قَطَعني**»، وهذا دُعاءٌ عليه بأنْ يَقطَعَ اللهُ عنه الرَّحمةَ والإحسانَ والإنعامَ، «**فيقولُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أنا الرَّحمنُ الرَّحيمُ، وإنِّي شقَقْتُ للرَّحِمِ مِن اسْمي**»، والمُرادُ مِنها هنا: أنَّها مُشتقَّةٌ مِن اسمِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، فكأنَّها مُشتبِكةٌ بمعاني الرَّحمةِ به اشتِباكَ العُروقِ؛ لكَونِها مِن أصلٍ لغويٍّ ومعنويٍّ واحدٍ، والمعنى: أنَّها أثَرٌ مِن آثارِ رَحمتِه، مُشتبِكةٌ بها، «**فمَن وصَلَها وصَلْتُه**»، أي: مَن أحسَنَ إلى أهْلِه وذوِي رَحِمِه، ورفَقَ بهم، وداوَمَ على الاتِّصالِ بهم؛ أحسنْتُ إليه، ورفَقْتُ به، وأنعَمْتُ عليه،

(١) أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ١١٦ رقم ٦٤٩٥)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣٠ رقم ٨٣٠٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٥٠-١٥١ رقم ١٣٤٤٨)، والألباني في صحيح الترغيب (٢/ ٣٣٨ رقم ٢٥٣١).

«**ومَن بتكَها بتكْتُه**»، أي: ومَن أعرَضَ عنها، ونقَضَ لُحمَتَها، وقطَعَها؛ قطَعَ اللهُ عنه الرَّحمةَ والإحسانَ والإنعامَ، وأعرَضَ عنه، وهذا تَحذيرٌ شَديدٌ مِن القطيعةِ»[1].

وذاك مِسْطح بن أُثَاثَةَ خاض مع الخائضين في عِرْض أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولما نزل القرآن ببراءتها أقسم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَلَّا يُنْفِق عليه، ولا ينفعه أبدًا، وكان قريبًا له وفقيرًا، وجاءت الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

إن هذه الآية التي نزلت في أبي بكر وأمَرَتْه بالعفو والصفح، ورغّبته في ذلك، لتؤكد، مع الآيات والأحاديث السابقة، أهمية العلاقات الأسرية بين الأقارب في الإسلام.

إنها الأرحام؛ أوصى الله بها، وحفظ لها حقوقها، فحذارِ من قطيعة الرحم، وكن المبادر بالصلة والسبق في العفو والإيثار. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس الواصلُ بالمُكافِئِ، ولكنَّ الواصلَ مَن إذا قُطِعَتْ رَحمُه وصَلَها**»[2]. إن الشيطان يأمر بالفحشاء والقطيعة، ويدفع الأقارب للغيرة والتحاسد بينهم. اتصلْ بأرحامك، وزُرهم، وانفعهم، وبُرَّ بهم، وتغافل عن زلّاتهم، وأصلح ذات بينهم. وقانا الله من همزِ الشيطان ولمزِه، ونفْخِه ونفْثِه!

(١) مصدر الشرح: الدرر السنية.
(٢) أخرجه البخاري (١٥/ ١٦٢ رقم٥٩٩١).

الاستعاذة

قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٦].

الشيطان موجودٌ؛ يرانا ولا نراه، يفْتُن ويُوسوس، يصدُّ عن طاعة الله، لا يكلُّ ولا يملُّ، يدفعك للكسل والتكاسل عن دروب الطاعة، يُرغّبك في الدنيا وشهواتها، يُحسن المعاصي، يستعِيبُ لباسَ الحشمة، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

وقد حذّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من غوايته. وفي آيات هذا المجلس الثلاث ورد النزغ والهمز، وقد لا يُدرك الإنسان هذا التلبّس، فيسير نحو الغواية، وهو في غفلة وسكرة. وقانا الله مكره وكيده.

جاء في قواميس اللغة العربية؛ في لسان العرب: «النَّزْغُ: أَن تَنْزِغَ بين قوم فتَحْمِلَ بعضهم على بعض بفسادٍ بينهم. والنزْغُ الكلام الذي يُغْرِي بين الناس، ونَزْغُ الشيطانِ: وسَاوِسُه ونَخْسُه في القلب بما يُسَوِّلُ للإِنسان مِن المَعاصي[1]. والهمزُ: مثل الغَمْزِ والضَّغْطِ، ومنه الهَمْزُ في الكلام؛ لأَنه يُضْغَط. قيل لأَعرابي: أَتَهْمِزُ الفار؟ فقال: السِّنَّورُ يَهْمِزُها. وهَمَزَ الشيطانُ الإِنسانَ هَمْزًا: هَمَسَ في قلبه وَسْواسًا، وهَمَزاتُ الشيطان: خَطَراتُه التي يُخْطِرُها بقلب الإِنسان».

وفي حديث النبي ﷺ: أَنه كان إِذا استفتح الصلاة قال: «**اللهمّ إِني أَعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزِه ونَفْثِه ونَفْخِه**». قيل: يا رسول الله، ما هَمْزُه ونَفْثُه ونَفْخُه؟ قال: «**أَما هَمْزُه فالمُوتَةُ، وأَما نفثُه فالشِّعْرُ، وأَما نفخُه فالكِبْرُ**»[2]. قال أَبو عبيد: المُوتَةُ الجُنُون، قال: وإِنما سماه هَمْزًا؛ لأَنه جعله من النَّخْسِ والغمز.

والهَمْزُ الغِيبَة والوقيعة في الناس، وذكر عيوبهم؛ وقد هَمَزَ يَهْمِزُ، فهو هَمَّاز وهُمَزَةٌ للمبالغة»[3].

ومما قاله ابن كثير في تفسيره لآيات هذا المجلس: «هذه ثلاث آيات ليس لهنّ رابعة في معناها، يأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانًا، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم؛

(١) لسان العرب: ابن منظور (٨/ ٤٥٤).
(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٨ رقم ٣٨٢٨)، والبزار (٨/ ٣٦٦ رقم ٣٤٤٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢/ ٥٧).
(٣) لسان العرب، (٥/ ٤٢٥) مادة: نزغ، وهمز.

لشـــدّة العداوة بينه وبين أبيـــه آدم من قبل، كما قـــال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعـراف:٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطـر:٦]، وقـــال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف:٥٠].

وقد أقســـم لأبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه له لمن الناصحيـــن، وكذب، فكيف معاملته لنا، وقد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣]، وقـــال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل:٩٨-١٠٠].

قالـــت طائفة من القراء وغيرهم: يتعوذ بعـــد القراءة، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة.

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة؛ لدفع الموسوس عنها، ومعنى الآية عندهم ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾؛ أي إذا أردت القراءة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾ [المائـدة:٦]؛ أي إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك.

عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «**ســـبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك،**

وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك، ثم يقول: لا إله إلا الله» ثلاثًا، ثم يقول: **«أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»**[1].

وجاء كذلك في تفسير ابن كثير لسورة الفاتحة قوله: «ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارةٌ للفم، مما كان يتعاطاه من اللغو والرفَث، وتطييبٌ له، وهو لتلاوة كلام الله، وهي استعانةٌ بالله، واعترافٌ له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان، كما دلّت على ذلك آيات من القرآن في ثلاث من المثاني. وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٥]. وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري، فمن قتله العدو الظاهر البشري كان شهيدًا، ومن قتله العدو الباطني كان طريدًا، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجورًا، ومن قهره العدو الباطني كان مفتونًا أو موزورًا، ولمّا كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه؛ استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان»[2].

وجاء في تفسير الرازي: «قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، يَدُلُّ عَلى أَنَّ الِاسْتِعاذَةَ بِاللِّسانِ لا تُفِيدُ إلّا إذا حَضَرَ في القَلْبِ العِلْمُ بِمَعْنى الِاسْتِعاذَةِ، فَكَأَنَّهُ تَعالى قالَ: اذْكُرْ لَفْظَ الِاسْتِعاذَةِ بِلِسانِكَ فَإنِّي سَمِيعٌ،

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: سامي السلامة (١/ ١١٠-١١١).

(٢) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: سامي بن محمد سلامة (١/ ١١٤).

واسْــتَحْضِرْ مَعانِيَ الِاسْتِعاذَةِ بِعَقْلِكَ وقَلْبِكَ، فَإِنِّي عَلِيمٌ بِما في ضَمِيرِكَ، وفي الحَقِيقَةِ القَوْلُ اللِّسانِيُّ بِدُونِ الـمَعارِفِ القَلْبِيَّةِ عَدِيمُ الفائِدَةِ والأَثَرِ»[1].

أمــا ابن عطية فقــال: «وَقَوْلُــهُ تَعالــى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأعــراف:٢٠٠] وصِيَّةٌ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعُــمُّ أُمَّتَهُ رَجُلًا رَجُلًا، والنَّزْغُ: حَرَكَةٌ فِيها فَســادٌ، وقَلَّما تُسْــتَعْمَلُ إلّا في فِعْلِ الشَــيْطانِ؛ لِأَنَّ حَرَكاتِهِ مُسْــرِعَةٌ مُفْسِدَةٌ، ومِنهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُشِرْ أَحَدُكم عَلى أَخِيهِ بِالسِلاحِ، لا يَنْزَغُ الشَيْطانُ في يَدَيْهِ**»[2]. فالمـعْنى في هَذِهِ الآيَةِ: فَإِمّا تُلِمَّنَّ بِكَ لَمَّةٌ مِنَ الشَيْطانِ فاسْــتَعِذْ بِاللهِ. ونَزْغُ الشَيْطانِ عامٌّ في الغَضَبِ وتَحْسِينِ المعاصِي واكْتِسابِ الغَوائِلِ وغَيْرِ ذَلِكَ، وفي مُصَنَّفِ التِرْمِذِيِّ عَنِ النَبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قالَ: «**إِنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةً، وإِنَّ لِلشَّيْطانِ لَمَّةً**»[3]. وهاتانِ اللَمَّتانِ هي الخَواطِرُ مِنَ الخَيْرِ والشَرِّ»[4].

ونختم بقول الشــيخ الشعراوي: «مِن رحمة الله أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَ لم يتركنا نهبًا لهذا العدو الذي يتربّص بنا، إنمــا أعطانا الحصانة التي نتحصَّن بها منه، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، ذكَّرَهُ بالله القوي، فإن كنت أنت ضعيفًا أمامه، فاستعن عليه بالإله القوي،

(١) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (١٥/ ٨٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٧/ ٥٦٢ رقم ٧٠٧٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٢٠ رقم ٢٦١٧).
(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢١٩ رقم ٢٩٨٨)، وابن حبان (٣/ ٢٧٨ رقم ٩٩٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٥ رقم ١١٠٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٠ رقم ٤٥٠٦)، وأبو يعلى في المسند (٨/ ٤١٧ رقم ٤٩٩٩)، والبزار (٥/ ٣٩٤ رقم ٢٠٢٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠١ رقم ٨٥٥١)، وحسنه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام (٥/ ٨٢٥).
(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ت: عبدالسلام عبدالشافي محمد (٢/ ٤٩١).

وســـاعة يراك في جنب الله لا يجرؤ أبدًا عليـــك؛ لأنك داخل في هؤلاء الذين استثناهم ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٣].

وانتبه أنه لن يأتيك إلا على الصراط المســـتقيم ليفسده عليك، يأتيك في صلاتـــك، ويُذكرك بما لم يكن لك على بال، وبأهم الأمور عندك في الدنيـــا، المهم عنده أن يفســـد عليك الآخرة بأي ثمـــن. فإذا وجدت في نفسك شـــيئًا من نَزغه ووسوســـته، فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قُلها في كل حال يأتيك فيه إبليس وأنت تصلي، وأنت تقرأ القرآن، وأنت في أي عبادةٍ من العبادات»[1].

(١) تفسير الشعراوي (٢٢/ ١٣٥٩٩-١٣٦٠٠).

الاستقامة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فُصّلت: ٣٠-٣٢].

قرأت هذه الآيات الثلاث، فأحسست بحلاوتها وطراوتها، وبقيت معها مردِّدًا مُتأمّلًا سعيدًا بهذا الإخبار الرباني، وبهذه البشارة الإلهية، وعَلِمْتُ بقلبي أن هذا القول الذي تكلَّم به الله جَلَّجَلَالُهُ عن كل مؤمن بوحدانيته؛ هو القول باللسان، والاعتقاد بالقلب، هو القول والفعل، هو النطق والتطبيق، هو الشكل والجوهر، هو الجسد والروح. فاللهمَّ إنّا نقول بربوبيتك، ونعتقد بوحدانيتك: (لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك)، نُردِّد هذا القول يقينًا واعتقادًا، وعليه نحيا ونموت.

قال الشيخ ابن عثيمين عند تفسيره لهذه الآية: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ قالوا بألسنتهم وقلوبهم، ولا يكفي مجرد القول باللسان؛ لأن القول باللسان يقعُ من المنافق ومن المُخلص، لكن المراد القول باللسان والقلب.

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، وهذا القول الذي قالوه، ليس مجرد قول اللسان واعتقاد بالجنان، بل هو مستلزم لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾؛ أي استقاموا على طاعة الله، فالإيمان في القلب، والاستقامة في الجوارح. لم يكتفِ الله بالثناء عليهم، وبيان جزائهم على الإيمان بالقلب، بل لا بُدَّ من الاستقامة؛ استقاموا على التوحيد؛ فلا إشراك، استقاموا على الاتباع؛ فلا بدعة، استقاموا على الطاعة؛ فلا معصية، استقاموا على الخير؛ فلا شرّ، وهلمَّ جرًّا.

وقال الشيخ: تأمل قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أتى بـ(ثمَّ) الدالة على الترتيب بمهلة؛ يعني: أن إيمانهم لم يكن إيمانًا خاطفًا، آمنوا ثم زال؟ لا. إيمانٌ مستقر؛ لأنهم استقاموا على دين الله عَزَّوَجَلَّ، وقد سُئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سأله رجل، فقال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا، لا أسأل عنه أحدًا غيرك -يعني: قولًا فصلًا- فقال له: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[1]، وهو مأخوذ من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾.

وقوله: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت: ٣٠] (تتنزّل) مدلولها يخالف مدلول (تنزَّل)؛ لأن (تتنزّل) فيها زيادة على (تنزَّل) ما الزيادة؟ التاء، فهذه الزيادة تقتضي معنيين:

المعنى الأول: أن تنزُّلَهم يكون شيئًا فشيئًا، (تتنزّل)، لا تُنزّل دفعةً واحدة.

والثاني: أن التنزّل أو النزول متكرّر ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ﴾ يعني كلما دعت

(١) أخرجه مسلم (١/ ٦٥ رقم ٣٨).

حالُهم إلى تنزل الملائكة عليهم تنزلت عليهم، فصار الفرق الآن بين (تنزّل) و(تتنزّل) من وجهين: الوجــه الأول: أن (تَنزَّل) تعني النزول مرة واحدة ودفعة واحدة، و(تتنزّل) تقتضي تكرار النزول، وأنه يكون شيئًا فشيئًا.

﴿عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الظاهر أن الملائكة تتنــزّل عليهم، كلّما دعت الحال إلى النُّزُول؛ عند الموت، وعند الخوف، وعند المعارك، وفي كل حال تقتضي أن تنزل الملائكة عليهــم؛ لأن الله أطلق. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ﴾. ﴿أَلَّا﴾؛ أي: بــأن ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾من الموت وما بعــده ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ على ما خلّفتم من أهلٍ وولدٍ، فنحن نخلفُكم فيهم».

نحن نقول: ألَّا تخافوا من مستقبلكم، ولا تحزنُوا على ماضيكم؛ لأن الإنسان عند الخوف إما أن يخاف من المستقبل، أو يحزن على ما مضى، فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، لم يحدث لي الخوف مثلًا، فالملائكة تتنزل عليهم، فتقول: لا تخافوا من المســتقبل، ولا تحزنوا من الماضي. وقــدّم الخوف من المســتقبل؛ لأنه أهمُّ من الحــزن على ما مضى؛ لأن مستقبل الإنسان هو الذي يجعلُه يســير أو يتوقف، فلهذا بدأ به قبل ذكر الحُزن، وإذا جعلناه مثلًا مما يدعو إلى التنزل حال الموت، فالإنسان عند الموت حالُه تقتضي أن يُزاد قوةً ونشــاطًا على الإيمان والتوحيد، فتتنزل عليهم الملائكة عند الموت أيضًا وتبشرُهم بهذا.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، (أبشروا) هذه هي من البشارة، وهي الإخبار.

﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ البشـــارة: هي الإخبار بما يسر، وسُميت بشارة؛ لأنه إذا سُـــرّ الإنسان ظهرت علامة السرور على وجهه، فتغيرت بشـــرة الوجه، وقد تُطلق البشارة على الإخبار بما يسوء من باب التهكم، قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١]، مع أن هذا مما يســـوء، لكنه على سبيل التهكّم بهم، كما تقول أنت للعاصي: أبشر بسوء العاقبة، أبشر بالنار، وما أشبه ذلك مما يكون تهكُّمًا به.

﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ الجنّة هـــي الدار التي أعدّها الله لأوليائه، وفيها كما في القرآن الكريم ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السـجدة:١٧]، وفيها كما جاء في الحديث القدســي: «**مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١).

﴿بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ من وعدهم بهـــا؟ وعدهم الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالـــى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة:٧٢].

﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: نحفظُكم فيها ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي: نكُون معكم فيها حتى تدخُلوا الجنة. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت:٣١]، تطلُبون. تقول لهم الملائكة: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يعني أن الملائكـــة تتولى المؤمنين؛ تحثُّهم على الخير، وتُحذّرُهم من الشر، وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن «**لِلْمَلَكِ فِي قَلْبِ**

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٢٩٦ رقم ٣٢٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤ رقم ٢٨٢٤).

ابْنِ آدَمَ لَمَّةٌ، وَلِلشَّيْطَانِ لَمَّةٌ»[1]. فلمَّة الملك إيعادٌ بالخير، وحثٌّ على الطاعة، ولمَّة الشيطان بالعكس.

وقوله: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: نحفظكم فيها؛ وذلك أن الإنسان إذا كانت الملائكة معه، فإنها تسدّده، وتدُلُّه على الخير، وتحثّه عليه.

﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يتولونهم أيضًا، فإن الملائكة ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، وفي الجنة تدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٤]، فهم أولياء المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة. جعلنا الله وإياكم منهم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ كل ما اشتهاه الإنسان، وإن لم يطلبه فإنه يحضُر بين يديه، وكذلك أيضًا كل ما طلبه، فإنه يحضُر بين يديه، في الدنيا لا يتسنى للإنسان ما يشتهيه، حتى لو طلب وكرّر الطلب، فإنه قد لا يأتيه، لكن في الآخرة مجرد ما يقع في قلب الإنسان، أنه يشتهي كذا يحضر.

كذلك أيضًا ما يطلبون، ما يطلبونه يحضُر أيضًا، ويأتيهم أيضًا ما لا يخطر على بالهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]؛ يعني يأتيك من النعيم ما لم تطلبه، وما لم تشتهه نفسك؛ لأنه لم يخطُر على بالك»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢١٩ رقم ٢٩٨٨)، وابن حبان (٣/ ٢٧٨ رقم ٩٩٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٥ رقم ١١٠٥١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٠ رقم ٤٥٠٦)، وأبو يعلى في المسند (٨/ ٤١٧ رقم ٤٩٩٩)، والبزار (٥/ ٣٩٤ رقم ٢٠٢٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠١ رقم ٨٥٥١)، وحسنه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام في كتاب الأحكام (٥/ ٨٢٥).

(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة فصلت.

وجاء في تفسير ابن كثير: تَلَا عُمَرُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ قَالَ: اسْتَقَامُوا -وَاللهِ- للهِ بِطَاعَتِهِ، وَلَمْ يَرُوغُوا رَوَغَانَ الثَّعَالِبِ. وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت:٣٠] عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِهِ. وكذا قال قتادة. وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبُّنَا، فَارْزُقْنَا الِاسْتِقَامَةَ. وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أَخْلَصُوا لَهُ الْعَمَلَ وَالدِّينَ.

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عبدالله الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: «**قُلْ رَبِّيَ اللهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَكْثَرَ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِطَرَفِ لِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا**»(١).

وقال ابن كثير: وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ هَا هُنَا حَدِيثَ «سُوقِ الْجَنَّةِ» عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت:٣١، ٣٢] فيُروى عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: أَنَّهُ لَقِيَ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي سُوقِ الجنة. فقال سعيد: أو فيها سُوقٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَخْبَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إن أهل الجنة إذا دَخَلُوا فِيهَا، نَزَلُوا بِفَضْلِ أَعْمَالِهِمْ، فَيُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مِقْدَارِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فِي أَيَّامِ الدُّنْيَا فَيَزُورُونَ اللَّهَ، عَزَّوَجَلَّ، وَيُبْرِزُ لَهُمْ عَرْشَهُ، وَيَتَبَدَّى لَهُمْ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَتُوضَعُ لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ لُؤْلُؤٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ يَاقُوتٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَنَابِرُ مِنْ فِضَّةٍ، وَيَجْلِسُ (فِيهِ) أَدْنَاهُمْ -وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ- عَلَى كُثْبَانِ الْمِسْكِ وَالْكَافُورِ، مَا يَرَوْنَ بِأَنَّ أَصْحَابَ الْكَرَاسِيِّ بِأَفْضَلَ مِنْهُمْ مَجْلِسًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤/ ١٤٣ رقم ١٥٤١٨)، والحاكم (٤/ ٣٤٩ رقم ٧٨٧٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهَلْ نَرَى رَبَّنَا (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)؟

قَالَ: «**نَعَمْ هَلْ تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟**» قُلْنَا: لَا. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَكَذَلِكَ لَا تَتَمَارَوْنَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ تَعَالَى، وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ اللهُ مُحَاضَرَةً، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ: يَا فُلَانُ بْنَ فُلَانٍ، أَتَذْكُرُ يَوْمَ عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟**» -يذكِّره بِبَعْضِ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنْيَا- «**فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَفَلَمْ تَغْفِرْ لِي؟ فَيَقُولُ: بَلَى فَبِسِعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ. قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طِيبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئًا قَطُّ. قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ رَبُّنَا** عَزَّوَجَلَّ: **قُومُوا إِلَى مَا أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَخُذُوا مَا اشْتَهَيْتُمْ. قَالَ: «فَنَأْتِي سُوقًا قَدْ حَفَّتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ، فِيهَا مَا لَمْ تَنْظُرِ الْعُيُونُ إِلَى مِثْلِهِ، وَلَمْ تَسْمَعِ الْآذَانُ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْقُلُوبِ. قَالَ: فَيَحْمِلُ لَنَا مَا اشْتَهَيْنَا، لَيْسَ يُبَاعُ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يُشْتَرَى، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا». قَالَ: «فَيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ -وَمَا فِيهِمْ دَنِيءٌ- فَيُرَوِّعُهُ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ، فَمَا يَنْقَضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا.**

ثُمَّ نَنْصَرِفُ إِلَى مَنَازِلِنَا، فَيَتَلَقَّانَا أَزْوَاجُنَا فَيَقُلْنَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا بِحِبِّنَا، لَقَدْ جِئْتَ وَإِنَّ بِكَ مِنَ الْجِمَالِ وَالطِّيبِ أَفْضَلَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ. فَيَقُولُ: إِنَّا جَالَسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ عَزَّوَجَلَّ **وَبِحَقِّنَا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا بِهِ»**[1][2]

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٨٥ رقم ٢٥٤٩)، وابن ماجه (٢/ ١٤٥٠ رقم ٤٣٣٦)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٤٦٦ رقم٧٤٣٨)، وضياء الدين المقدسي في صفة الجنة (رقم ٩٧)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٩ رقم٥٨٥)، وصحح إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦/ ٤١٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٨).

وقال ابن القيم: «سَمِعْتُ شَيْخَ الإِسْلامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رَوْحَهُ- يَقُولُ: اسْتَقامُوا عَلى مَحَبَّتِهِ وعُبُودِيَّتِهِ، فَلَمْ يَلْتَفِتُوا عَنْهُ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً[1].

اللهم اشغل قلوبنا بطاعتك، واكلأنا برعايتك.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي (٢/ ١٠٤)، وانظر: المستدرك على فتاوى ابن تيمية، جمع: ابن قاسم (ص١٢٠).

الإسلام والإيمان

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٤].

استوقفتني هذه الآية التي يقرّر فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن أولئك الأعراب لمـَّا يدخل الإيمان في قلوبهم! فالإيمان بهذا النصّ يدخل في القلوب، وبهذا النصّ ليس كل مسلم مؤمن.

إن الله في هذه الآية ينفي عن أولئك الأعراب الإيمان، ويُثبتُ لهم الإسلام.

قال ابن القيّم: «هَؤُلاءِ مُسْلِمُونَ، ولَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهم لَيْسُوا مِمَّنْ باشَرَ الإيمانُ قَلْبَهُ، فَذاقَ حَلاوَتَهُ وطَعْمَهُ. وهَذا حالُ أكْثَرِ المنْتَسِبِينَ إلى الإسْلام. ولَيْسَ هَؤُلاءِ كُفّارًا. فَإنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أثْبَتَ لَهُمُ الإسْلامَ بِقَوْلِهِ ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾»[1].

وفي سورة الأنفال، بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن من صفات المؤمنين، أن تَوْجَل قلوبُهم، فالوجل للقلب، والإيمان للقلب. فالأصل في الإيمان هو عمل

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، (٣/ ٩١-٩٢).

القلب وحركتــه، هو طمأنينته وســكونه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

يقول ابن القيِّم: «إذا كانَتْ حَياةُ القَلْبِ حَياةً طَيِّبَةً تَبِعَتْهُ حَياةُ الجَوارِحِ، فَإِنَّهُ مَلَكَها، ولِهَذا جَعَلَ اللهُ المَعِيشَةَ الضَّنْكَ لِمَن أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِهِ، وهي عَكْسُ الحَياةِ الطَّيِّبَة»[1].

وفي ســورة الذاريات، حين ذكر الله قصة قوم لوط وتعذيبهم، ونجاة الناجين من العذاب، ورد الفصل بين المؤمنين والمسلمين فكانت النجاة للمؤمنيــن ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريــات:٣٥] أي أنجينا المؤمنين في حين كانت زوجة لوط معه في بيته تساكنه؛ ولهذا جاء وصف ساكني البيت أنهم مسلمون ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٦].

قــال ابن القيم فــي تعليقه على هــذه الآية: «هنا فرق بين الإســلام والإيمان؛ لســرٍّ اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنــا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب إن هــذا مختصٌّ بالمؤمنين المتّبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اســم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مســلمة في الظاهر، فكانت في البيــت الموجودين، لا في القوم الناجين.

وقد أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عــن خيانة امرأة لوط، وخيانتهــا أنها كانت تدل

(١) مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية (٣/ ٢٥٩).

قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وَضَعَ دلالة القرآن وألفاظه مواضعها تَبَيَّنَ له من أسراره وحِكَمه ما يبهر العقول، ويعلم أنه تنزيلٌ من حكيم حميد»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن امرأة قوم لوط: «لَمْ تَكُنْ مُؤْمِنَةً، وَلَمْ تَكُنْ مِن النَّاجِينَ الْمُخْرَجِينَ فَلَمْ تَدْخُلْ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَكَانَتْ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ الْمُسْلِمِينَ، وَمِمَّنْ وُجِدَ فِيهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وَبِهَذَا تَظْهَرُ حِكْمَةُ القرآن؛ حَيْثُ ذَكَرَ الْإِيمَانَ لَمَّا أَخْبَرَ بِالْإِخْرَاجِ، وَذَكَرَ الْإِسْلَامَ لَمَّا أَخْبَرَ بِالْوُجُودِ»[2].

وفي سورة الأحزاب، جاءت آيةٌ كان الخطابُ فيها للمسلمين والمسلمات، ثم تلاه بالعطف؛ المؤمنين والمؤمنات، فهولاء غير هؤلاء! إذ جاء الوعد فيها بالمغفرة والأجر العظيم، أولًا للمسلمين والمسلمات، ثم المؤمنين والمؤمنات، ثم للمتّصفين بالصفات الواردة في هذه الآية. وهنا تكرر التساؤل: لماذا ورد النص على المسلم ثم المؤمن؟! قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

---

(١) الرسالة التبوكية، زاد المهاجر إلى ربه: محمد بن أبي بكر أيوب، ابن قيم الجوزية، ت: د. جميل غازي (ص٧١).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ٤٧٤).

قال الشيخ ابن سعدي: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ هذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها. ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله»[1]

ذكر البغوي في تفسيره عن عطاء بن أبي رباح، قال: «من فوّض أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ فهو داخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ومن أقرّ بأنّ اللهَ ربُّه، ومحمدًا رسولُه، ولم يخالف قلبُه لسانه، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السنة، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾، ومن صان قوله عن الكذب، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾، ومن صبر على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الرزية، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، ومن صلّى ولم يعرف مَنْ عن يمينه وعن يساره، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، ومن تصدّق في كل أسبوع بدرهمٍ فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، ومن صام في كل شهر أيام البيض: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾، ومن حفظ فرجه عمّا لا يحلّ، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾، ومن صلّى الصلوات الخمس بحقوقها، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾»[2].

إن المتأمّل المتدبّر في القرآن الكريم يرى التفريق بين الإسلام والإيمان، لكن هل يا تُرى دخل الإيمان في قلوبنا؟ حين نظرت في

(١) تفسير السعدي (ص٦٦٤).
(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي (٦/ ٣٥٢-٣٥٣).

آيات البشائر في كتاب الله الكريم، ألفيتُها تتضمن وعد الله لأهل الإيمان بالخير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف:١٠٧، ١٠٨]. ومثل هذه الآية المتضمنة بشائر الله كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة:٩]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد:٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم:٩٦]، وقوله جلّ في عُلاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج:١١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧]، وآيات أخرى تتوالى في كتابه الكريم تنصّ على المؤمنين، وليس المسلمين!

لقد بتُّ أسائل نفسي حين أقرأ تلك الآيات، التي تناولت الإسلام والإيمان، وآيات البشائر، هل نحن من هؤلاء المؤمنين المشمولين بوعد الله السّار؟ وكيف نكون منهم؟ نحن مسلمون، نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ونقر بأركان الإسلام الخمسة، فهل كل مسلم مؤمن؟ تناول ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بالتفصيل، ومما قاله: «اعْلَمْ أَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ يَجْتَمِعُ فِيهِمَا الدِّينُ كُلُّهُ، وَقَدْ كَثُرَ كَلَامُ النَّاسِ فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَنِزَاعُهُمْ وَاضْطِرَابُهُمْ، وَقَدْ صُنِّفَتْ فِي ذَلِكَ مُجَلَّدَاتٌ؛ فَنَقُولُ: قَدْ فَرَّقَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ بَيْنَ مُسَمَّى الْإِسْلَامِ، وَمُسَمَّى الإيمان، ومسمّى الإحسان. قَالَ فِي حَدِيثِ جبرائيل: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**». فَجَعَلَ الدِّينَ هُوَ

الْإِسْــلَامُ، وَالْإِيمَانُ، وَالْإِحْســانُ. فَتَبَيَّنَ أَنَّ دِينَنَا يَجْمَعُ الثَّلَاثَةَ، لَكِنْ هُوَ دَرَجَاتٌ ثَلَاثٌ: (مُسْلِمٌ)، ثُمَّ (مُؤْمِنٌ)، ثُمَّ (مُحْسِنٌ)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣٢]. وَالْمُقْتَصِدُ، وَالسَّــابِقُ، كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِلَا عُقُوبَةٍ، بخلاف الظَّالِمِ لِنَفْسِــهِ. وَهَكَذَا مَنْ أَتَى بِالْإِسْلَامِ الظَّاهِرِ مَعَ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ، لَكِنْ لَمْ يَقُمْ بِمَــا يَجِبُ عَلَيْهِ مِن الإِيمَانِ الْبَاطِنِ، فَإِنَّهُ مُعَرَّضٌ لِلْوَعِيدِ. وَأَمَّا الْإِحْسَانُ فَهُوَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَصْحَابِــهِ مِن الإِيمَانِ. وَالْإِيمَــانُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِــهِ، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَصْحَابِهِ مِن الإِسْــلَامِ. فَالْإِحْسَــانُ يَدْخُلُ فِيهِ الْإِيمَانُ، وَالْإِيمَانُ يَدْخُلُ فِيهِ الْإِسْلَامُ، وَالْمُحْسِنُونَ أَخَصُّ مِن المــؤْمِنِينَ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَخَصُّ مِن المــُسْلِمِينَ»[1].

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بينما نحن عند رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ يومٍ؛ إذ طلع علينا رجلٌ شــديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سوادِ الشعرِ، لا نرى عليه أثرَ الســفرِ، ولا نعرفُه، حتّى جلس إلى رســولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأسند ركبتَه إلى ركبتِه، ووضع كفَّيهِ على فخذِه، ثمَّ قال: «**يا محمدُ أخبرْني عن الإسلامِ ما الإســلامُ؟ قال: أنْ تشــهدَ أنْ لا إلهَ إلّا اللهَ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتقيــمَ الصلاةَ، وتؤتيَ الــزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتحــجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلًا. قال: صدقتَ**»: قال عمرُ: فعجِبنا له يسألُهُ ويصدقُه. فقال: «**يا محمدُ أخبرني عن الإيمانِ ما الإيمــانُ؟ قال: الإيمانُ أنْ تؤمنَ باللهِ وملائكتِه وكتبِه ورســلِه واليومِ الآخرِ والقدرِ كلِّه خيرِه وشــرِّه. قال:**

(١) مجموع الفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ٥-١٠).

صدقتَ. قال: فأخبرني عن الإحسانِ ما الإحسانُ؟ قال: أنْ تعبد اللهَ كأنك تراهُ، فإن لم تكنْ تراهُ فإنه يراكَ. فقال: أخبرني عن الساعةِ متى الساعةُ؟ قال: ما المسؤولُ عنها بأعلمَ من السائلِ. فقال: أخبرني عن أماراتِها؟ قال: أنْ تلدَ الأمَةُ ربَّتها، وأنْ ترى الحفاةَ العراةَ العالةَ رعاءَ الشّاءِ يتطاولونَ في البناءِ، قال: ثمَّ انطلقَ الرجلُ»، قال عمرُ: فلبثتُ ثلاثًا[1]، ثمَّ قال رسولُ اللهِ ﷺ «**يا عمرُ: أتدري من السائلُ؟**» قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «**فإنّه جبريل عليه السلام أتاكم يعلِّمَكم دينكم**»[2].

وقال الزمخشري في تفسيره الكشاف: «الإيمان: هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس، والإسلام: الدخول في السلم، والخروج من أن يكون حربًا للمؤمنين بإظهار الشهادتين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات:١٤]. فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان»[3].

وقال الشيخ الشعراوي: «الإيمان ليس كلمة تُقال، بل عقيدةٌ راسخةٌ تعمر القلب. أما الإسلام فهو الشكل الظاهري، وعمل الجوارح من صومٍ وصلاة وغيرها من العبادات»[4].

إن القارئ للقرآن الكريم حين يتدبّر تلك الآيات يَقْتَرِبُ من ربّه، ويتعرّف على الصراط المستقيم، ويعلم منهج الذين أنعم الله عليهم.

---

(١) ثلاثًا: أي ثلاث ليالٍ.
(٢) أخرجه البخاري (١/ ٥٤ رقم٥٠)، ومسلم (١/ ٣٦ رقم٨).
(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم الزمخشري (٤/ ٣٧٦).
(٤) تفسير الشعراوي (٢٣/ ١٤٤٨١).

شملنا الله بنعيمه وهدايته.

إن دين الله كامل، دينٌ لا لبس فيه ولا غموض، الأمور واضحة جليِّة، هو درجات؛ إسلام فإيمان، فإحسان. رزقنا الله بهديه وتوفيقه وعونه أعلى الدرجات.

إنّه حريٌّ بكل مسلم التنبّه لهذه الدرجات ومعرفتها، والحرص على بُلوغها، وحريٌّ بالعلماء والوعاظ تنبيه الناس إلى تلك الدرجات وأهميتها.

الأُسوةُ الحسنة

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[الأحزاب:٢١].

أي واللهِ، وتاللهِ، وباللهِ إنّ في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، والقدوة الكاملة. تدبَّر هذه الآية، تعرَّف بِمَن تَقْتَدي، فكِّر في هذا التوجيه الربَّاني، تَعَلَّم لُطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعباده المؤمنين، فقد خَلَّدَ في كتابه الكريم هذا المنهج التعليمي، فكلُّ إنسانٍ له قُدوةٌ يأخذ عنه. إنَّ في طفولته ﷺ، وتربيته، وشبابه، وكهولته عَلَيْهِ السَّلَامُ القدوة والمثل، وإن في أقواله وأفعاله -قبل البعثة وبعدها- دروسًا ونماذج في التعلم والتربية؛ إذ بقي في البادية سنوات يتعلم سلامة اللغة العربية وجودتها، فكان ﷺ أفصحَ الفُصحاء، وأبلغَ البُلغاء. هذا درسٌ في أهمية لغة التعلم، وسلامة اللسان من اللحن والاعوجاج منذ الطفولة المُبكرة، وحين نَمَا ودَرَجَ ﷺ عَمِلَ في رعي الأغنام، وهذا درسٌ في العمل المُبكّر والحركة، وفي فُتوّته وشبابه عَلَيْهِ السَّلَامُ شارك في التجارة والسَّفَر؛ صَحِبَ قَومَه في رحلات الشتاء والصيف، وهذا درسٌ آخر في الطموح وعدم الخمول، وجسَّد ﷺ الأمانة في تعامله، والصدق في أقواله وأفعاله ﷺ، فعرفه قومه قبل البعثة بصفات الكمال، وأطلقوا عليه

لقب الصادق الأمين، وذاك درسٌ في التعامل مع الآخرين، وكسب الثقة. ذلك منهجه ﷺ في الحياة قبل البعثة، دروسٌ بعد دروس.

وبعد البعثة كانت كُلُّ أقواله وأفعاله أُسوة وقدوة، إن هذه الآية الكريمة شمس هداية للباحثين عن منهج التأسّي والقدوة، لقد أمضى حياته في الترفّق بالناس ودعوتهم إلى عبادة الله ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]. فهل نقتدي به ونتأسّى به في الدعوة إلى الله، فنعيش هَمّ الدعوة إلى الله ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]، أم نحن في غفلةٍ وتغافل؟ وهل نتأسى به في مكارم الأخلاق؟ يقول ﷺ: «**إنما بُعثت مُتمِّمًا لمكارم الأخلاق**»(١).

لقد كان عليه السلام رحمةً من الله للعالمين من الإنس والجن ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. فكيف لا نستحضرُ هذه الرحمة في تعاملاتنا وحياتنا، نستحضر أقواله وأفعاله، ونهتدي بها! وكان عليه السلام مِنّةً ولُطفًا من الله ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]. إن العجب العجاب أن تغيب عن أذهاننا هذه النعمة الربّانية، ولا نرى أثرها عند كثيرين، تمضي حياتهم في غفلةٍ وسكرة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤/ ٥١٢-٥١٣ رقم ٨٩٥٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ٤٤٠ رقم ١٣٥)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٧٣)، والبزار (١٥/ ٣٦٤ رقم ٨٩٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٤ رقم٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتتعدد آيات الثناء الربّاني على ما كان عليه رسول الله ﷺ من علمٍ وأخلاق وتعامل.

لقد زَكّى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عِلْمَه وما جاء به، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٤]، فكيف لا نتأسى، ونأخذ ما جاء به، ويؤكّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عصمته ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم:٣]، فكل أقواله هدايتنا.

وما جاءنا بالدعوة من ذاته، وإنما بأمر الله ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦].

وزَكّى جَلَّ جَلَالُهُ عقله، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢]، فكيف لا نهتدي بهديه!

وزكى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصره، فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، فكيف تحيد أبصارنا نحو ذاك وتلك، فننشُد عندهم المثل والقدوة!

وزكى أخلاقه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، فكيف نتحرّف عن أخلاقه. ليس بعد هذا الثناء ثناء.

إن هذه الشمائل له ﷺ منارات تأسٍّ، ومعالم طريق، بَيَّنها القرآن الكريم؛ إذ أبان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن عن كل شيءٍ يحتاجه المسلم، فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

وقد تناول علماء التفسير آية هذا المجلس بالتفصيل:

قال ابن كثير: «هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ وَلِهَذَا أُمِرَ النَّاسُ بِالتَّأَسِّي بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فِي صَبْرِهِ وَمُصَابَرَتِهِ وَمُرَابَطَتِهِ وَمُجَاهَدَتِهِ وَانْتِظَارِهِ الْفَرَجَ مِنْ رَبِّهِ، عَزَّوَجَلَّ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إلى يَوْمِ الدِّينِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى لِلَّذِينِ تَقَلَّقُوا وَتَضَجَّرُوا وَتَزَلْزَلُوا وَاضْطَرَبُوا فِي أَمْرِهِمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ أَيْ: هَلَّا اقْتَدَيْتُمْ بِهِ وَتَأَسَّيْتُمْ بِشَمَائِلِهِ؟ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]»[1].

وقال الشيخ ابن عثيمين «قال تعالى: ﴿فِي رَسُولِ اللَّهِ﴾، ولم يقل: في محمّد، ولم يقل: في النبي، إشارة إلى أن الأسوة فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه رسول الله، فهذا الوصف يفيد العِلِّيَّة؛ أي إن عِلَّة الأسوة كونه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلا ما كان علينا أن نتأسى به؛ لأنه رجل من الناس، لكن لأنه رسول الله كان لنا فيه أسوة حسنة.

وقوله: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيها معنيان:

المعنى الأول: أن التأسِّي بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كله حسن؛ لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معصومٌ من الخطأ في التشريع، فكل تأسٍّ به فهو حسن، بخلاف التأسي في غيره، فقد يكون حسنًا، وقد يكون غير حسن.

المعنى الثاني: أسوةٌ حسنةٌ باعتبار تأسِّينَا به، لا باعتبار ما هو عليه، والأسوة الحسنة باعتبار تأسينا به هو أن نكون موافقين له في القول والفعل

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري، ت: سامي السلامة (٦/ ٣٩١).

والقصـــد، الذي هو العقيدة، نوافقه في هذه الأمـــور الثلاثة؛ في العقيدة، والقول، والفعل. هذه الأســـوة الحسنة، فمن وافقه في قوله دون فعله لم يَتَأَسَّ به أسوة حسنة، ومن وافقه في فعله دون قوله لم يَتَأَسَّ به أسوة حسنة، ومن تَأَسَّى في قوله وفعله دون عقيدته وقصده لم يتأسَّ به أسوة حسنة.

ويدخل في الأســـوة الحســـنة الدعوة إلـــى دين الله، فإن الرســـول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا شـــك أنه يدعو إلى دين الله، ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

ويقـــول ابن عثيمين: «وبهذا نعرف أنه ينبغـــي لطالب العلم أن يكون حركيًّا في مجتمعه، لا نسخة كتاب فقط، بمعنى أن يكون مُحَرِّكًا لضمائر الناس ومشـــاعرهم وتوجيههم، ويكون لديـــه عزيمة في إصلاح الخلق؛ حتى لا يكون مجرد نسخة، فالذي مجرد نسخة ما الفائدة منه، يقول: والله أنا حفظت -مثلًا- متن الزاد، وحفظـــت بلوغ المرام، وحفظت المنتقى وما أشبه ذلك، لكن لا فائدة منه؟! أو يقول: أجلس في بيتي إن جاء أحدٌ يسألني علَّمته، ليس هذا، بل يجب أن نبثَّ الوعي بين المسلمين، ولا سيما في هذا الوقت في عصرنا هذا؛ لأن الناس بدأوا يتحركون، سئموا الحياة السابقة، وصاروا يتحركون الآن، لكن يحتاجون إلى بداية ودلالة؛ لأنهم قد يتحركون إلى شـــيء ســـيئ، إنما إذا تولى طلبة العلم الذين وهبهم الله العلم توجيه الناس إلى هذه الأمور حصل في هذا خيرٌ كثير، كما كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل، فالأسوة الحسنة في الرسول يدخل فيها الدعوة إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأحزاب.

رحم الله الشيخ ابن عثيمين يُنبّه تنبيهًا دقيقًا بأن نجعل من عاداتنا عبادات! فمن ذلك لقاءات الدوريات المتكررة نستطيع أن نجعلها عبادة، فنعرض فيها قصة هادفة للخير، أو ذكر خبر يدفع للخير، أو عرض مشروع خيري والترغيب في دعمه، أو بين الحين والآخر، نذكر الله ونسبحه، فَيَذْكُر الحضورُ اللهَ ويسبحونه، أو نتبسم ونترفق في معاملتنا للخادم، فيقتدي بك آخر تُرقِّقُ قلبَهُ نحو الضعفاء، وذوي الفاقة والحاجة. المهم نستحضر آخرتنا، وكيف نزيد في حسناتنا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧].

هذا، وإن في دراسة سيرة رسول الله ﷺ وتتبُّعها، والاقتداء بمنهجه، دروسًا عملية جديرة بالعرض، فهي خير المناهج المؤثرة!

* روى الإمام أحمد في مسنده: جاء عثمان بن مظعون إلى النبي ﷺ يريد التبتل؛ يريد أن يعتزل النساء، ولا يتزوج، ويريح نفسه من آلة الزواج، فقال له النبي: «**يا عثمان إن الرهبانية لم تكتب علينا، أفما لك فيَّ أسوة؟ فوالله إني أخشاكم الله وأحفظكم لحدوده**»[1].

إنه ﷺ الأُسوة؛ فالإسلام يرفض الرهبانية، والنبي ما بُعث بالرهبانية، بل بُعث بالحنيفية السمحة؛ لذلك رفض من عثمان هذا الأمر.

(١) أخرجه أحمد (٤٣/ ٧٠-٧١ رقم٢٥٨٩٣)، وعبدالرزاق (٦/ ١٦٧ رقم١٠٣٧٥)، وصححه ابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٥ رقم٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٧/ ٧٩).

* وجاء سعد بن هشام إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقال: يا أمَّ المؤمنين إني أريد أن أتبتل، فقالت: لا تفعل، ألم تقرأ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، قد تزوج النبي، وَوُلِدَ له»[1].

* وروى الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجلٌ: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: «**لا**». قال: أفيلتزمه ويُقبِّله؟ قال: «**لا**». قال: فيأخذ بيده ويُصافحه؟ قال: «**نعم**»[2].

* وسُئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هل كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعمل في بيته؟ قالت: «نعم. كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته، كما يعمل أحدكم في بيته»[3].

وذاكم أنس بن مالك، خدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنوات، يقول: «والله لقد خدمت رسول الله عشر سنين فما قالَ لي: أُفٍّ قَطُّ، وما قال لشيءٍ صنعتُه: لِمَ صنعتَه، ولا لشيءٍ تركتُه لِمَ تركتَه»[4]. رقةٌ ولطفٌ في التعامل، وتعليمٌ خالد. ويُغدق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أنس مواعظه ونصائحه، فيقول: «**يا بُني إن قدرتَ أن تُصبح وتُمسي وليس في قلبك غِشٌ لأحد فافعل. يا بُني إن ذلك من سُنَّتي، ومن أحيا سُنَّتي فقد أحبَّني. ومن أحبَّني كان معي في الجنّة. يا بُني إذا دخلت على أهلك فسَلِّم يَكُن بركةً عليك وعلى أهل بيتك**»[5].

---

(١) أخرجه أحمد (٤١/ ٣١٦ رقم٢٤٨١٠)، واللفظ له، وأبو يعلى (٨/ ٢٧٥ رقم٤٨٦٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٧٥ رقم٢٧٢٨)، وقال: هذا حديثٌ حسن.
(٣) أخرجه أحمد (٤٢/ ٢٠٩ رقم ٢٥٣٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (رقم٥٣٩)، وصححه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٥١ رقم ٦٤٤٠)، والألباني في صحيح الجامع (رقم٤٩٣٧).
(٤) أخرجه البخاري (١٥/ ٢٣٢ رقم ٦٠٣٨)، ومسلم (٤/ ١٨٠٤ رقم٢٣٠٩).
(٥) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٩ رقم ٢٦٩٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٢/ ١٢٢ رقم ١٦٠٨).

إن المتتبع للقرآن الكريم، وما اشتمل عليه من آيات الثناء على رسول الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، والباحث في سيرته، يجد المزيد من الكنوز الوضاءة للهدي والتأسي النبوي الشريف.



اِقرأْ

قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥].

هي القراءة نورٌ وهداية، بهذه الأحرف الأربعة كانت بداية الوحي، بهذه الكلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ سمع رسول الله ﷺ صوت السماء، بهذه الكلمة بدأ اتصال السماء بالأرض، بهذه الكلمة كانت البُشرى والبشارة الربانية لأهل الأرض.

بهذه السورة بدأ نزول النور السماوي القرآن الكريم إلى الأرض، نورٌ أراد الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يظل خالدًا لا يغيب، نورٌ بقي منذ نزوله ساطعًا ليلًا ونهارًا بكل مكان وفي كل زمان إلى ما شاء الله، نورٌ حفظه الله ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]. نورٌ لا يختفي كما يختفي نور القمر، ولا ينطوي كما ينطوي ضوء الشمس، عندما يدركها الليل أو السُّحب. برهانٌ ونورٌ مُبين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١٧٤].

وهذه الآيات تعرض قصة بداية نور الله في أرضه! «لقد فاجأ جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الرسول ﷺ لأول مرة يوم الإثنين الحادي والعشرين من شهر رمضان من العام الأربعين لميلاده ﷺ وهو يتحنّث في غار حراء!

قال له جبريل معلّم السماء: **اقرأ**.

ردّ عليه قدوة الدنيا ﷺ: **ما أنا بقارئ**.

أخذه جبريل وغطَّه، حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله، وقال: **اقرأ**.

فقال ﷺ خير معلّمي البشرية: **ما أنا بقارئ!**

فأخذه جبريل للمرة الثانية، فغطَّه، حتى بلغ منه جهده، ثم أرسله، وقال له: **اقرأ**.

فقال سيّد البشرية ﷺ: **ما أنا بقارئ**.

فأخذه جبريل للمرة الثالثة، فغطَّه، حتى بلغ منه جهده، ثم أرسله، وقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

قالت عائشة، راوية الحديث رضي الله عنها: فرجع يرتجف، حتى دخل على خديجة، فقال: «**زمِّلوني، زمِّلوني**»، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوع. فقال: «**يا خديجة ما لي؟!**»، وأخبرها الخبر.

وقال: «**قد خشيت على نفسي**»، فقالت له: كلَّا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق[1].

إن هذه السورة بمفتتحها (اقرأ) تُذكِّرنا بسيرة رسول الله ﷺ وبداية الدعوة، وفي سيرته ﷺ وما لقي من أذى قومه، وصبره عليه السلام دروسٌ وعِبَر.

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ٣٥٠-٣٥١ رقم ٤٩٥٣)، ومسلم (١/ ١٣٩ رقم ١٦٠).

قال ابن القيم في تفسيره: «اعلم أن أول سُورَة أنزلها الله في كِتابه (سُورَة القَلَم)، فَذكر فِيها ما منَّ بِهِ على الإنسان من تَعْلِيمه ما لم يعلم، فَذكر فِيها فَضله بتعليمه، وتفضيله الإنْسان بِما علَّمه إياه، وذَلِكَ يدل على شرف التَّعْلِيم والعلم، فَقالَ تَعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فافْتتحَ السُّورَة بالأمر بِالقِراءَةِ الناشئة عَن العلم، وذكر خلقه خُصُوصًا وعمومًا، فَقالَ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

وَخصّ الإنسان من بَين المَخْلُوقات؛ لما أودعه من عجائبه وآياته، الدّالَّة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكَمال رَحمته، وأنه لا إلَه غَيره، ولا ربَّ سواهُ، وذكر هُنا مبدأ خلقه من علق؛ لكَون العلقَة مبدأ الأطوار، الَّتِي انْتَقَلت إليها النُّطْفَة، فَهي مبدأ تعلّق التخليق.

ثمَّ أعاد الأمر بِالقِراءَةِ مخبرًا عَن نَفسه بِأَنَّهُ الأكرم، وهو الأفعل من الكَرم، وهو كَثْرَة الخَيْر، ولا أحد أولى بذلك مِنهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَإن الخَيْر كُله بيدَيْهِ، والخَيْر كُله مِنهُ، والنعَم كلها هو موليها، والكمال كُله، والمجد كُله لَهُ، فَهو الأكرم حَقًّا.

ثمَّ ذكر تَعْلِيمه عُمُومًا وخصوصًا، فَقالَ: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، فَهَذا يدْخل فِيهِ تَعْلِيم المَلائِكَة والنّاس. ثمَّ ذكر تَعْلِيم الإنسان خُصُوصًا، فَقالَ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فاشتملت هَذِه الكَلِمات على أنه معطي الموجودات كلها بِجَمِيعِ أقسامها، فإن الوُجُود لَهُ مَراتِب أربعة:

إحداها: مرتبتها الخارجية المَدْلُول عَلَيْها بقوله ﴿خَلَقَ﴾.

المرتبَة الثّانِيَة: الذهنية المدْلُول عَلَيْها بقوله ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

المرتبَة الثّالِثَــة والرّابِعَة: اللفظية والخطّيــة، فالخطّية مُصَرّح بها في قَوْله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، واللفظية من لَــوازِم التَّعْلِيم بالقلم، فَإن الكِتابَة فرع النُّطْق، والنطق فرع التَّصَوُّر.

فاشــتملت هَذِه الكَلِمات على مَراتِب الوُجُود كلها، وأنه سُــبْحانَهُ هو معطيها بخلقه وتعليمه، فَهو الخالِق المعلم، وكل شَــيْء في الخارِج فبخلقه وُجد، وكل علم في الذِّهْن فبتعليمه حصل، وكل لفظ في اللِّسان أوْ خطّ في البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه.

وَهَذا من آيات قدرته وبراهين حكمته، لا إلَه إلّا هو الرَّحْمَن الرَّحِيم.

والمَقْصُــود أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعرف إلــى عباده بِما علمهمْ إيّــاه بِحِكْمَتِهِ مــن الخطّ واللَّفْظ والمعْنى، فَكانَ العلم أحــد الأدلة الدّالَّة عَلَيْهِ، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بِهَذا شرفًا وفضلًا لَهُ[1].

ثمَّ تَأمــل نعْمَة الله على الإنســان بالبيانين؛ البَيــان النطقي، والبَيان الخطّي، وقد اعْتدَّ بهما سُبْحانَهُ في جملَة من اعْتدَّ بِهِ من نعمه على العَبْد، فَقالَ في أول سُــورَة أنزلت على رَسُــول الله ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

فَتَأمــل كَيفَ جمع في هَــذِه الكَلِمات مَراتِب الخلــق كلها، وكَيف تَضَمَّنت مَراتِب الوجودات الأربعة بأوجز لفظٍ، وأوضحه وأحسنه، فَذكر أولًا عُمُوم الخلق، وهو إعطاء الوجود الخارِجِي.

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، ابن قيم الجوزية (ص٥٨).

ثمَّ ذكر ثانِيًا خُصُوص خلق الإنســان؛ لأنه مَوضِع العبْرَة، والآية فِيهِ عَظِيمَة، ومن شُهُوده عَمّا فِيهِ مَحْض تعدد النعم، وذكر مادَّة خلقه.

ها هُنا من العلقَة، وفي ســائِر المواضِع يذكر ما هو ســابق عَلَيْها؛ إمّا مادَّة الأصل، وهو التُّــراب والطين، أو الصلصال الَّذِي كالفخار، أوْ مادَّة الفَرْع، وهو الماء المهين.

وَذكر في هَذا الموضع أول مبادئ تعلّــق التخليق، وهو العلقَة، فَإِنَّهُ كانَ قبلها نُطْفَة، فَأول انتقالها إنَّما هو إلى العلقَة.

ثــمَّ ذكر ثالِثًا التَّعْلِيم بالقلم، الَّذِي هــو من أعظم نعمه على عباده؛ إذْ بِهِ تخلــد العُلُوم، وتثبت الحُقُوق، وتعلم الوَصايا، وتحفظ الشَّــهادات، ويضبط حِساب المُعامَلات الواقِعَة بَين النّاس، وبِه تقيّد إخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولَوْلا الكِتابَة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عَن بعض، ودرست السّنَن، وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مَذاهِب السّلف، وكانَ مُعظــم الخلَل الدّاخِل على النّاس في دينهم ودنياهم، إنما يعتريهم من النسْــيان الَّذِي يمحو صــور العلم من قُلُوبهم، فَجعــل لَهُم الكتاب وعاءً حافِظًا للْعلم من الضّياع، كالأوعية الَّتِي تحفظ الأمتعة من الذّهاب والبطلان. فنعمة الله عَزَّوَجَلَّ بتعليم القَلَم بعد القُرْآن من أجلّ النعم والتعليم بِهِ، وإن كانَ مِمّا يخلص إليه الإنســان بالفطنة والحِيلَة، فَإِنَّهُ الَّذِي بلغ بِهِ ذَلِك، وأوصله إليه، عَطِيَّة وهبها الله مِنهُ، وفضلٌ أعطاه الله إيّاه، وزِيادَةٌ في خلقه وفضله.

فَهُــوَ الَّذِي علّمــه الكِتابَة، وإن كانَ هو المتعلــم، فَفعله فعل مُطاوع

لتعليم الَّذِي علم بالقلم، فَإن علّمه فتعلم، كَما أنه علّمه الكَلام فَتكلم.

هَذا ومن أعطاه الذِّهْن الَّذِي يعي بِهِ، واللِّسان الَّذِي يترجم بِهِ، والبنان الَّذِي يخطّ بِهِ، ومن هيّأ ذهنه لقبُول هَذا التَّعْلِيم دون سائِر الحَيَوانات، ومن الَّذِي أنطق لِسانه، وحرّك بنانه، ومن الَّذِي دعم البنان بالكف، ودعم الكَفّ بالساعد، فكم لله من آيَةٍ، نَحن غافلون عَنْها في التَّعَلُّم بالقلم.

فقف وقْفَة في حال الكِتابَة، وتَأمل حالك، وقد أمسكت القَلَم وهو جماد، ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بَينهما أنواع الحكم، وأصناف العُلُوم، وفنون المراسلات والخطب والنّظم والنثر، وجوابات المسائِل.

فَمن الَّذِي أجرى فلك المعانِي على قَلْبك، ورسمها في ذهنك، ثمَّ أجرى العبارات الدّالَّة عَلَيْها على لسانك، ثمَّ حرّك بها بنانك، حَتّى صارَت نقشًا عجيبًا، مَعْناهُ أعجب من صورته، فتقضي بِهِ مآربك، وتبلغ بِهِ حاجَة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فَيقوم مقامك، ويترجم عَنْك، ويتَكَلَّم على لسانك، ويقوم مقام رَسُولك، ويجدي عَلَيْك ما لا يجدي من ترسله سوى من ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

والتعليم بالقلم يستلزم المَراتِب الثَّلاثَة: مرتبَة الوُجُود الذهْنِي، والوجود اللَّفْظِيّ، والوجود الرسمي. فقد دلّ التَّعْلِيم بالقلم على أنه سُبْحانَهُ هو المعْطِي لهَذِهِ المراتِب.

وَدلّ قَوْله: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعْطي الوُجُود العَيْنِيّ، فدلت هَذِه الآيات مَعَ اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مَراتِب الوُجُود بأسرها

مُســندَة إليه تَعالى خلقًــا وتعليمًا، وذكر خلقين وتعليميــن؛ خلقًا عامًّا، وخلقًا خاصًّا، وتعليمًا خاصًّا، وتعليمًا عامًّا، وذكر من صِفاته ها هُنا اسْم (الأكرم)، الَّذِي فِيهِ كل خير وكل كَمــال، فَلهُ كل كَمالٍ وصفًا، ومِنه كل خيرٍ فعلًا، فَهو الأكرم في ذاته وأوصافــه وأفعاله، وهَذا الخلق والتعليم إنَّما نَشأ من كرمه وبرّه وإحسانه، لا من حاجَة دَعَتْهُ إلى ذَلِك، وهو الغَنِيّ الحميد»[1]. انتهى كلام ابن القيم.

هذا وأقول: لقد بَلَّغَ رســولُ الله ﷺ رســالة السماء، فقرأ على قومه القرآن، فآمن بعضهم، وكفر آخرون، ولقي الأذى والبلاء! استجاب له السعداء، وكذَّبه الأشقياء؛ ذاك عمرو بن عَبْدِ وُدٍّ بلغ عمره تسعين سنة، وتدفعه شــقاوته أن ينطلق مع المشــركين من مكة إلى معركة الأحزاب، ويجتاز بحصانه الخندق، ويدعو إلى البراز والقتال، ويقول:

وَلَــقــد بَــحِــحْــتُ مِــنَ الــنــدا

ء لجمعِهِــم: هــل مــنْ مُبــارِز؟

شيخوخةٌ وشــقاوةٌ أغشــت بصيرته وبصره، طوى التسعين سنة من عمره، ويتقدم الغُزاة للمبارزة! نسأل الله الهداية.

ويســرع عليّ بن أبي طالــب الهزبــر الهُمــام، فيقول: أنــا أُبارزهُ يا رسول الله، فأعطاه الرسول ﷺ سيفه وعمّمهُ، وقال عليه السلام: اللهُم أعنه عليه. وينطلق رضي الله عنه إليه، ويبرز له، ولما دنا أحدهما من الآخر ثارت

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: محمد بن أبي بكر أيوب، ابن قيم الجوزية (ص٢٧٨-٢٧٩).

بينهما غَبَرَةٌ، وضربه عليٌّ فقتله وكبّر![1].

ما أكثر أشقياء الأمس واليوم، رزقنا الله نُور البصيرة، وأرشدنا للهداية، وجعلنا من قُرّاءِ كتابه الكريم بعقولهم وقلوبهم، آمين!

(١) انظر: الطبقات الكبرى: ابن سعد أبو عبدالله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي، ت: إحسان عباس (٢/ ٦٨).

أمثالُكُم

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨].

مخلوقات الله في أرضه، لا يستطيع البشر معرفتها وحصرها؛ فكم فيها من حيواناتٍ ماشية، ومن سباعٍ مفترسة، ومن حشراتٍ زاحفة، ومن طيورٍ مُحَلِّقة، ومن أسماكٍ طافحة، وحيتانٍ غائصة، وكم، وكم!

وتلك المخلوقات سمّاها الحق سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أُممًا، ومنح كل مخلوقٍ خصائصه، وهاتيك المخلوقات تقضي دورتها التي كتبها الله لها في الحياة الدنيا، ثم تُحشر إلى ربّها. لا تفريط ولا إهمال ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر:٤٩]. فإذا كانت تلك الأجناس تُحشر، وهي التي لا تعقل، فكيف بالإنسان المُكلَّف الذي زَيَّنَه الله بالعقل والمعرفة والإدراك!

أممٌ متنوعة، وعوالم متباينة، الله وحده يعلمها، ويحيط بها ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾، وجميع تلك الكائنات تُسبّح بحمد الله، ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]. أحاط علمه بكل شيء ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور:٤١]، والشيءُ: عامٌ يشملُ كُلَّ شيء، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ

﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢]. سبحانه ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف:٨٩] سبحانه، ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

ما ترك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئًا من خلقه دون تدبيرٍ يشمله، وعلمٍ يُحصيه، وكل الخلائق في النهاية تُحشر إلى ربها، فيقضي فيها بأمره سبحانه.

وحول آية هذا المجلس، قال أبو جعفر الطبري: «إن الله تعالى ذكره أخبر أنّ كل دابة وطائر محشورٌ إليه. وجائز أن يكون معنيًّا بذلك حشر القيامة، وجائز أن يكون معنيًّا به حشر الموت، وجائز أن يكون معنيًّا به الحشران جميعًا، ولا دلالة في ظاهر التنزيل، ولا في خبر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيُّ ذلك المراد بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾؛ إذ كان «الحشر»، في كلام العرب الجمع، ومن ذلك قول الله تعالى ذكره: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٩]، يعني: مجموعة. فإذا كان الجمع هو «الحشر»، وكان الله تعالى ذكره جامعًا خلقه إليه يوم القيامة، وجامعهم بالموت، كان أصوبُ القول في ذلك: أن يُعَمَّ بمعنى الآية ما عمّه الله بظاهرها، وأن يُقال: كل دابّة وكلّ طائر محشورٌ إلى الله بعد الفناء وبعد بعث القيامة؛ إذ كان الله تعالى ذكره قد عمَّ بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، ولم يخصص به حشرًا دون حشر[١].

وعن أبي ذر قال: انتطحت شاتان عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لي: «**يا أبا ذَرّ، أتدري فيم انتطحتا؟**» قلت: لا! قال: «**لكن الله يدري، وسيقضي**

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، ت: أحمد شاكر (١١/ ٣٤٩).

بينهمـــا!»[1]، قال أبو ذر: لقد تركنا رســـول الله ﷺ وما يُقلِّب طائرٌ جناحيه في السماء، إلا ذكَّرَنا منه علمًا»[2].

وقال ابن عثيمين في تفسيره: «المراد بالدَّابّة كل ما يدبّ على الأرض بأرجـــل متعددة، أو أربـــع، أو اثنتين، أو يزحف على بطنـــه؛ أي دابّة في الأرض. ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ذكـــر المخلوقات الأرضية والمخلوقات الهوائية، التي تســـبح في الجو، ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾الطيور على اختلاف أنواعهـــا، وكذلك الدواب التي على الأرض على اختلاف أنواعها، كلها أمم مثلنا؛ تختلف في أجناسها، تختلف في ألوانها، تختلف في قدراتها، تختلف في أرزاقها، تختلف في لغاتها، كما أننا نحن كذلك أمم.

وقوله: ﴿طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ هذا من باب التوكيد؛ لأنه من المعروف أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه، كما إذا قلت: يمشي برجليه، أو: ينظر بعينيه، أو: يسمع بأذنيه، وما أشبه ذلك، فهو من باب التوكيد.

﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ هـــذه الأمم ســـبحان الله متنوعة متفرقـــة مختلفة في الأحجام، في الألوان، في القوى، في كل شيء، أيضًا مختلفة في اللغات والألســـن، هل تعرف البقـــرةُ ما تقوم به الهرّةُ مـــن الصوت؟ لا تعرف، ولا العكـــس، لكن بقرة مع بقرة تعـــرف، وهرّة مع هـــرّة تعرف، وتأمل

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٥/ ٣٤٥ رقم ٢١٤٣٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٤٦٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣٥/ ٢٩٠ رقم ٢١٣٦١)، والبزار (٩/ ٣٤١ رقم٣٨٩٧)، وأبو داود الطيالسي (رقم٤٧٩).

-سبحان الله- تجد الهرّة لها أصوات مختلفة، إذا كانت تريد الفحل فلها صوت خاص، إذا كانت تريد أن تدعو أولادها الصغار لها صوت خاص، تجدها تدخل على المكان، ثم تنعق لأطفالها، فإذا هم مجتمعون عليها، سبحان الله! صوت غير العادة، كذلك التي غيرها مثلها، كل واحد من هذه الأمم لا يعرف لغة الأمم الآخرين. ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ أعطى كل نوع من هذه الأنواع من هذه الأمم، أعطاه هداية يهتدي بها كيف يعيش، ويقال: إن أذكى ما يكون النمل، النمل -سبحان الله- أعطاه الله تعالى ذكاء عجيبًا، هو من الحيوان الذي ينظر للمستقبل، فإذا جاء وقت الحَبِّ، جمع الحَبَّ في جحوره، وماذا يصنع؟ يأكل رأس الحبّة، يأكله من أجل ألَّا تنبت؛ لأنها لو نبتت فسدت عليه، فيأكلها لئلا تنبت، ثم إذا جاءت الأمطار ووصل المطر إلى الحبِّ خرج به مهما كان، خرج به ينشره؛ لئلا يفسد، ولاتقاء رائحته، وهذا مشاهد، يعني شاهدناه، وشاهده غيرنا.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾:

﴿فَرَّطْنَا﴾ يعني: أهملنا، والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، وليس الكتاب العزيز، الكتاب العزيز قال الله فيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، فالمراد بالكتاب هنا اللوح المحفوظ؛ يعني: ما أهمل الله شيئًا إلا كتبه في اللوح المحفوظ. ولا يشكل عليك أن تقول: كيف يكتب كلّ شيء حتى أصناف الدواب؟ لأننا نقول: الواجب على الإنسان أن يؤمن بما أخبر الله به، سواء أدركه عقله أم لم يدركه، ولو كان الإنسان لا يؤمن إلا بما أدركه عقله لم يكن مؤمنًا حقًّا، فكل ما أخبر الله به من هذا وغيره، فالواجب علينا أن نؤمن به ولا نعترض، سواء أدركناه

بعقولنا أم لم ندركه، على أنه وجد الآن من صنع البشر أشياء صغيرة، تحتمل كلمات كثيرة جدًّا، وهي من صنع البشر، هذه الأقراص يسمونها الليزر، تحمل كثيرًا جدًّا من الكلمات.

وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ يعني: كل شيء كتبه الله في هذا اللوح المحفوظ. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ سبحان الله! أي: يجمعون، كل شيء يحشر يوم القيامة. ولا تستغرب، كيف تحشر هذه الدواب والسباع والبهائم والطيور وغيرها؟ لا تستغرب، الواجب عليك أن تصدّق، والمسألة فوق ما يدركه العقل، كلهم يُحشرون إلى الله، كلهم يقتصّ للمجني عليه من الجاني عليه، «حتى الشاة التي ليس لها قرون، تقتصّ من الشاة التي لها قرون، إذا نطحتها في الدنيا» سبحان الله! كمال العدل؛ ولهذا يظهر يوم القيامة من تمام عدل الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته وغضبه أيضًا ما لم يكن سابقًا، حتى يظهر تمام العدل للخلائق جميعًا، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾؛ أي: يجمعون بعد الحياة.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ما من حيوان يدبُّ على الأرض، أو يطير في السماء، إلا وهو مكتوب عند الله عَزَّوَجَلَّ.

* ومن فوائدها: أن القرآن الكريم جاء بالأسلوب العربي، بمعنى أنه جرى على ما ينطق به العرب في لغتهم، فإذا كان من عادة العرب مثلًا: أن يؤكدوا الشيء بما يزيده قوة، جاء به القرآن؛ ولذلك تجدون في القرآن الكريم كثيرًا من القَسَمِ على الشيء، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ ، وما أشبه ذلك، هل هذا لشك فيما أخبر الله به؟ لا؛ لأن الله تعالى صادقٌ، سواء أقسم أم لا، لكن

القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فجرى في التعبير على ما كان العرب يعبّرون به.

* ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه، فهو بالنسبة لعظمة الله عَزَّوَجَلَّ كالنملة، ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، إذن لا تترفع ولا تتعالَ، ما أنت إلا مثل هذه الدواب بالنسبة لعظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]، لم يُفضَّل بنو آدم على كل ما خلق الله، بل على كثير مما خلق الله، وما يفهمه بعض الناس من أن بني آدم هم أفضل المخلوقات فخطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾، ما قال: على من خلقنا، ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

* ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يهمل شيئًا في اللوح المحفوظ، كل شيء كتبه؛ لقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، ولأن الله تعالى أمر القلم أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

* ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن مآل هذه المخلوقات الطائرة والزاحفة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾»[1].

وبعد فتلك المخلوقات أُممٌ أمثالنا، ونحن وإيّاه نُحشر ونُجمع عند الله! وإذا كانت تلك المخلوقات البسيطة، التي لا نُلقي لها بالًا

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأنعام.

ستُحشر وتُحاسب، فكيف بنا نحن البشر، وقد كرَّمنا الله بالعقل والمعرفة والإدراك. فطُوبى للمُتّعظين. رزقنا الله العظة ونُور البصيرة.

عن أبي هريرة: «**لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إلى أهْلِها يَومَ القِيامَةِ، حتّى يُقادَ لِلشّاةِ الجَلْحاءِ، مِنَ الشّاةِ القَرْناءِ**»[1].

ومما قاله الشعراوي في تفسيره: «كل الكائنات هي أمم أمثالنا. وقد يقول قائل: ولكن هناك كائنات ليست في السماء ولا في الأرض، مثل الأسماك التي في البحار؟ ونقول: إن الماء ثلاثة أرباع الأرض، والسمك يسبح في جزء من الماء الذي هو جزء من الأرض. فهو يسبح في جزء من الأرض، فسبحانه الذي خلق الدواب في الأرض، وخلق الطيور، وخلق الأدنى من هذه الأمم، وهداها إلى مصلحتها، ومصدر حياتها: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾»[2] [الأعلى:٢، ٣].

إن هذه الأمم الكثيرة منذ خلقها، وكُل لحظة من لحظات الحياة الدنيا يموت فيها ميت، ويُولد فيها مولود، ولا يستطيع أي كائن حصرها ومعرفة أنواعها وأشكالها وأعدادها، إلّا الله وحده؛ فهو القادر على حصرهم وحشرهم وجمعهم، ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:٩٩]. يقول الشيخ ابن عثيمين: «﴿جَمْعًا﴾ أي: جمعًا عظيمًا، هذا الجمع يشمل الإنس والجن والملائكة والوحوش وجميع الدواب»[3]. سبحانه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٧ رقم٢٥٨٢).
(٢) تفسير الشعراوي (٦/ ٣٦٠٩).
(٣) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الكهف.

الإنفاقُ والآخرة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم:٣١].

وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون:١٠].

ثلاث آيات في ثلاث سور، تُذكِّر بالإنفاق قبل فراق الدنيا والإقبال على الآخرة، وبالوقوف عاجزين بين يدي الله. فتأمُّل هذه الآيات وتدبُّرها، يعلّمنا كم نحن غافلون عن أنفسنا؛ إذ نُسوِّفُ ونُؤجِّل حتى يفاجئنا الموت، وتكون الحسرة والندامة ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون:١١].

ربّنا في عليائه، وبجلالهِ وعظمته، يُكرِّم عباده المؤمنين، فيخصّهم بخطابه الإرشادي؛ رقّةً في الترغيب، ورفقًا في التنبيه، إنها الكرامة والتكريم يدعونا للمزيد من الخير، ويُذكرنا ونحن في كامل صحتنا: أن ننفق من رزقه وفضله! لذا أدرك نفسك، وقدِّم لآخرتك قبل يومك الموعود.

حُبُّ المـــال غريـــزة ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجـر:٢٠]، لكن تدارك ذاتك، وابـــذل لحياتك الحقيقية، فالمال في يـــدك وغدًا في يد الوارث! ينطوي عمـــرك، وأنت تجري فـــي الدنيا، تجمع وتجمع، وتنســـى يوم الفراق! كل يوم يرحل تبتعد فيه من الدنيا، وتقترب فيه من الموت، وأنت مفتونٌ بدنياك، وغافلٌ عـــن آخرتك، فلمن تُخَزِّنُ المال؟ أنت الأولى به! ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

آيـــاتٌ نقرؤها في الحثِّ على الإنفاق، لكـــن الكثير منّا في غفلةٍ عن تدبّرها وتحذيرها!

ليـــس بعـــد كلام الله، ولا بعد إنذاره إنذار، ســـيأتي يـــومٌ لا بيعٌ فيه، ولا خلّةٌ، ولا شفاعة!

قولُ اللهِ حقٌّ، سيأتي علينا يومُ الرحيل، نودُّ لو نتأخر لا للتَّمتُّع، ولكن لنَتَصَدَّقَ ونبذُل! فلِمَ لا نَبذُل اليوم ونحن في فُسحةٍ من الدنيا!

حين نمرضُ ترخص الدنيا، وحين نتعافى ننسى ونفتن بالدنيا، ونعود للغفلة، لكن حين يأتي الموت، ونتحقَّق من مجيئه، ننادي ربّنا، ليتنا نتأخر؛ لنتصدق بمالنا الذي شقينا في جمعه، ثم تركناه للوارث، كما نصَّت عليه الآية: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ [المنافقون:١٠].

كم من شخصٍ سيتحسّـــر على ماله، وكيف تركه لوارثٍ قد لا يذكره بخير، ولا يخصُّهُ بدعوة، فالبدار البدار!

إنها آيات عظيمة قد أعذر بها ربّنا، وأكرمنا بها، ورحمنا بها، ووعظنا بها، فهل من مُتَّعظ؟ وهل من مُنتبه؟ سيأتي يوم الحسرة والندامة، وحينها لا ينفع الندم والأسى!

كَرِّر قراءة آيات هذا المجلس، واجلس لوحدك معها مُتدبرًا كلماتها ومعانيها، مُستحضرًا لحظات الموت، وإدبارك عن الدنيا، واستقبالك الآخرة!

تذكَّر وأنت تتلذذ بموائدك الفاخرة، وألبستك الزاهية، ونعيمك الذي تتقلب فيه، تذكَّر الفقير الذي يَبِسَتْ عُرُوقُه في إفريقيا، ينشد شربةَ ماء، يمكن توفيرها له بحفر بئرٍ ومستلزماتها، ولن ينقص نعيمك! وهناك في قبرك ستجد شربة ذاك الفقير، ولن تجد شربة موائدك اللذيذة!

تذكَّر رسول الله ﷺ وقد حاصرته قريش، وأكل وأصحابُه وَرَقَ الشجر في شعب عامر، واليوم يوجد فقراء يأكلون ورق الشجر، وأنت في ثرائك تتنعم، فهلّا اقتطعت لآكلي الأشجار شيئًا من نعيمك؟ مؤسسات العون الخيرية وأمثالها تنوب عنك في الوصول للمحتاجين. يقيني ستجد ما تجود به قد سبقك ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩]، ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة:١١٠].

الدنيا وأموالها، أنت راحل عنها كما رحل غيرك، فيا ترى فكّر في أموالك، فلئن تركتها للوارث، فنفسك أحق بالمال من وارثك، فالدنيا دار امتحانٍ وابتلاء ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك:١- ٢].

إن الدنيا زهرةٌ سريعةُ الذبول، والآخرة دائمةُ الخلود، فاعمل للخلود، ولا تُنْسِكَ زهرةُ الدنيا آخرتَكَ، فما أسرع ذبول الزهرات!

قالوا في الأمثال: «المغبونون ثلاثة: كلب الصيد، يصيدُ لغيره، والبخيل يجمع للوارث، والمغتاب تذهب حسناته لمن اغتابه».

هي الحسرة والأسى حين ترى يوم التغابن، وقد علت درجات وارثك بمالك، وقد يكون الوارث زوج ابنتك البعيد، جاءه المال منك، فتصدَّق به عن نفسه، فعَلَتْ درجاته، وأنت تتألم وتتندم!

قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]: «يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْإِنْفَاقِ، مِمَّا رَزَقَهُمْ فِي سَبِيلِهِ، سَبِيلِ الْخَيْرِ، لِيَدَّخِرُوا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَلِيكِهِمْ، وَلْيُبَادِرُوا إلى ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾؛ أَيْ: لَا يُبَاعُ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا يُفَادَى بِمَالٍ لَوْ بَذَلَهُ، وَلَوْ جَاءَ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، وَلَا تَنْفَعُهُ خُلَّةُ أَحَدٍ، يَعْنِي: صَدَاقَتُهُ، بَلْ وَلَا نَسَابَتُهُ، كَمَا قَالَ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]. ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾؛ أَيْ: وَلَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ»[1].

ومما قاله الشيخ الشعراوي حول هذه الآية: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: سامي بن محمد سلامة (١/ ٦٧١).

﴿خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم:٣١]: «يأمرنا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه الآية الكريمة، بأن ننفق سـرًّا وعلانية، وهكذا يشيع الحثّ بالإنفاق في أمرين متقابلين؛ فالإنفاق سِرًّا، كي لا يقع الإنسان فريسة المُـباهاة، والإنفاق عَلنًا كي يعطي غيره من القادرين أُسْـوة حسـنة، ولكي تمنع الآخرين مـن أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة، مما أفاء الله عليك من خير.

ولذلك أقول: اجعل الصدقة التطوعية سِـرًّا، واجعلها كما قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تعلم شـمالك ما أعطتْ يمينـك**»، واجعل الزكاة علانية، حتى يعلمَ الناس أنك تُؤدّي ما عليك من حقوق الله، وتكون بالنسبة لهم أُسْـوة فعلية، وعِظَة عملية، واجعلوا من أركان الإسـلام عِظَة سلُوكية، فنحن نرى بعضًا من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد؛ لأن القادرين فيها قد أَدَّوْا فريضة الحج، ونجد أن القادر الذي يبني مسـجدًا؛ يعطي القادر غيره أُسْوةً، ليبني مسجدًا آخر..»[1].

وقال الشعراوي كذلك: «نعلم أن هناك أعمالًا يمكن أن تؤجلها، إلا الغايـات التي لا توجد فيها أعواض؛ فعليـك أن تنتهز الفرصة، وتُنفّذها على الفور؛ ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْعٌ أو شـراء، ولن يستطيع أحدٌ فيه أن يُزكّي أو يُصلّي؛ فليسـت هناك صداقة أو شفاعة، تُغنيك عمّا كان يجب أن تقوم به في الحياة الدنيا.

والشـفاعة فقط هي ما أذن له الرحمن بها، ولذلـك يأتي الأمر هنا، بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سِرًّا وعلانية، من قبل أن يأتيَ اليوم، الذي لا بَيْعٌ فيه ولا خِلاَل.

(١) تفسير الشعراوي (١٢/ ٧٥٣١-٧٥٣٢).

والبيع -كما نعلم- هو مُعَاوضة متقابلة؛ فهناك مَنْ يدفع الثمن، وهناك مَنْ يأخذ السلعة. والخِلاَل هو المُخالّة؛ أي: الصديق الوفيّ، الذي تلزمه ويلزمك.

وفي الآخرة لن تستطيع أن تشتري جنَّةً، أو تفتدي نفسك من النار؛ ولا مُخالَّة هناك، بحيث يفيض عليك صديق من حسناته»[1]

حين تلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الصحابة هذه الآيات، فهموها واستوعبوها، فجادوا بأموالهم، وتسابقوا يبذلون ما عندهم لله، حتى وجبة أطفالهم آثروا بها الآخرة. قَدِمَ ضيفٌ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مسَّهُ الجوع، وضَعُفَت حالته، فأرسل عَلَيْهِ السَّلَامُ لزوجاته، يسألُهُنَ ألديهُنَّ طعام، وكُلُهُنَّ رَدَدنَ: ليس عندهن إلا الماء. فنادى عَلَيْهِ السَّلَامُ في صحابته: «**من يستضيف هذا الليلة ي**رَحِمَهُ اللَّهُ؟».

فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. وأخذه إلى بيته، وحين أجلسه دخل على زوجته، وسألها عما يتوفر لديهم من طعام، فقالت: ليس عندي سوى عشاء الأطفال!

قال الأنصاري: جهزيه، ولَهّي الصغارَ، وإذا شرع في الأكل أطفئي السراج؛ كي لا يرى أنَّا لا نأكل معه!

جادوا بطعام أطفالهم، وأطفؤوا النور؛ لكي يشبع الضيفُ، ويصبرون على الجوع!

ويأتي الخبر للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السماء، فيقول للأنصاري حين

(١) تفسير الشعراوي (١٢/ ٧٥٣٢-٧٥٣٣).

قدم عليه في الغد، كما ورد في الصحيحين، يقول للأنصاري: «**لقد عَجِبَ الله من صنيعكما بضيفكما الليلة**»[1]، ونزلت الآية: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

الله أكبر، وجبةٌ يسيرة يأتي خبرها من السماء، وجبة أطفالٍ يُخلّدها التاريخ؛ يُطفئون السراج، ويُلهّون أطفالهم، ويصبرون على الجوع؛ خصاصةً وإيثارًا.

جادَ الصحابـــي بكل ما عنده، فأين أرباب المال من هذا الصحابي؟! ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨]، لا تستصغر ما تبذُله، لا تحقر ما تُسديه.

دروسٌ مضيئة من سيرة الرسول ﷺ والصحابة الكرام. وقانا الله شُحَّ أنفسنا، وأعاننا على الإنفاق في سبيله.

(١) أخرجه البخاري (١٢/ ١٩٢ رقم٤٨٨٩)، ومسلم (٣/ ١٥٢٤ رقم٢٠٥٤)، واللفظ له.

أيَّامُ اللّه

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

يأمر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يُذكِّرَ قومَهُ بنعَمِ اللهِ وآياته. والتذكيرُ مَنْهَجُ الأنبياءِ والرُّسُل، فرسولُنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالتذكِيرِ ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

إن هذه الآية إخبارٌ عن اليهود؛ إذ جاءتهم النُّذُر فكانوا قومَ بُهتٍ وكُفر، تمرّدوا على رُسل الله وكذبوهم. وتكرر في القرآن الكريم ذِكر مواقفهم، والمعجزات التي جاءتهم، فكانت قلوبهم كالحجارة أو أشدَّ قسوة، وفي هذه الآية تسليةٌ لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا، فقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حريصًا على إسلام قومه ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. وهنا يقصُّ ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خبر بني إسرائيل، فقد أمرَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ موسى بأن يُذَكِّرَ قومَهُ اليهود بأيّامه! فما هي تلك الأيام؟

لقد بسط علماءُ التفسير القول حول هذه الأيام، فقال شيخ المفسرين الإمام الطبري: «وقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ وعِظْهُم بما سلف من نُعْمَى عليهم في الأيام التي خلت، فاجتُزِئ بذكر (الأيام) من ذكر النعم التي

عناها؛ لأنها أيــام كانت معلومة عندهم، أنعم الله عليهم فيها نعمًا جليلةً، أنقذهم فيها من آل فرعون بعدَ ما كانوا فيما كانوا فيه من العذاب المهِين، وغَرَّقَ عدوَّهم فرعونَ وقومَه، وأوْرَثهم أرضهم وديارَهم وأموالَهم.

وكان بعــض أهل العربية يقول: معناه: خوَّفهم بمــا نزل بعادٍ وثمودَ وأشــباههم من العــذاب، وبالعفو عن الآخرين: قــال: وهو في المعنى كقولك: «خُذْهم بالشدَّةِ واللِّين»[1].

وقال ابن القيم: «فُسِّرَتْ أيّامُ اللهِ بِنِعَمِهِ، وفُسِّرَتْ بِنِقَمِهِ مِن أهْلِ الكُفْرِ والمَعاصِي، فالأوَّلُ تَفْسِــيرُ ابْنِ عَبّاسٍ وأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ومُجاهِدٍ، والثّانِي تَفْسِيرُ مُقاتِلٍ.

والصَّوابُ أنَّ أيّامَهُ تَعُمُّ النَّوْعَيْنِ، وهــي وقائِعُهُ الَّتِي أوْقَعَها بِأعْدائِهِ، ونِعَمُهُ الَّتِي ساقَها إلى أوْلِيائِهِ، وسُمِّيَتْ هَذِهِ النِّعَمُ والنِّقَمُ الكِبارُ المتَحَدَّثُ بِها أيّامًا؛ لِأنَّها ظَــرْفٌ لَها، تَقُولُ العَرَبُ: فُلانٌ عالِــمٌ بِأيّامِ العَرَبِ وأيّامِ النّاسِ؛ أيْ بِالوَقائِعِ الَّتِي كانَتْ في تِلْكَ الأيّامِ، فَمَعْرِفَةُ هَذِهِ الأيّامِ تُوجِبُ لِلْعَبْدِ اسْــتِبْصارَ العِبَرِ، وبِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ بِها تَكُونُ عِبْرَتُهُ وعَظَمَتُهُ، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١]»[2].

وقال ابــن القيم عند قوله تعالــى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥] قال: سَــمّى نَفْسَهُ شاكِرًا وشَــكُورًا، وسَمّى الشّاكِرِينَ

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري، ت: أحمد محمد شاكر (١٦/ ٥١٩).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (١/ ٤٤٩).

بِهَذَيْنِ الِاسْـــمَيْنِ. فَأعْطاهم مِن وصْفِهِ. وسَـــمّاهم بِاسْمِهِ. وحَسْبُكَ بِهَذا مَحَبَّةً لِلشّاكِرِينَ وفَضْلًا.

وَإعادَتُهُ لِلشّاكِرِ مَشْكُورًا. كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢].

وَرِضا الرَّبِّ عَنْ عَبْدِهِ بِهِ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧]، وقِلَّةُ أهْلِهِ فـــي العالَمِينَ تَدُلُّ عَلـــى أنَّهم هم خَواصُّـــهُ. كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قامَ حَتّى تَوَرَّمَتْ قَدَماهُ. فَقِيلَ لَهُ: تَفْعَلُ هَذا وقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ ما تَقَـــدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وما تَأخَّرَ؟ فَقالَ: «**أفَلا أكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»(١)(٢).

وقال الشـــيخ الشـــعراوي: «الآيات التي أرسلها الله مع موسى عليه السلام والمعجزات التـــي حدثت معه، وبيَّنها وأظهرها لقومه كثيرة، ورســـولنا ﷺ معه معجزة واحدة هي القرآن، أما بقية المعجزات الحسية التي حدثتْ مع رســـول الله ﷺ، فهي قد جاءت لتثبيـــت فؤاد المؤمنين برســـالته، ولم يَبْقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة، التي يأتنس بها الصالحون من عباد الله.

وكثرة المعجزات التي جاءت مع موســـى عليه السلام تُبيِّن أن القوم الذين أُرسِل لهم قومُ لَجَجٍ وجَدَل، وحين عَدَّد العلماء المعجزات، التي جاءت

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٨٥٠ رقم١١٣٠)، ومسلم (٤/ ٢١٧١ رقم ٢٨١٩).
(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٢/ ٢٤٣).

مع موسى وجدها بعضٌ من العلماء تسع آيات، ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة، ووجدها بعضٌ ثالث أربع عشرة.

وفي التحقيق لمعرفة تلك الآيات؛ علينا أن نُفرِّق بين الآيات التي صدرت بالنسبة لفرعون، والآيات التي جاءتْ لبني إسرائيل؛ فالعصا التي انقلبت حيَّة تسعى، واليد التي تُضيء هي لفرعون. وعدَّدَ القرآنُ الآيات التي جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات، يقول الحق سبحانه: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ [النمل:١٢].

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن؛ فهو لم يُرْسَل لهدايته، ولكنه جاء لِيُفحمه وليأخذ بني إسرائيل المرْسَلُ إليهم. والآيات هي: العصا، وَوَضْع اليد في الجيب لتخرج بيضاء، ونَقْص الأنفس، والثمرات؛ والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدّم، هذه هي الآيات التسع الخاصة بفرعون.

أما بقية الآيات التي جاء بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لبني إسرائيل، فهي كثيرة مثل:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف:١٧١].

وأيضًا: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة:٥٧].

وكذلك قوله الحق: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة:٥٧].

ولذلك أجمل الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الآيات التي جاءت مع موسى لقومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥].

أي: أَعِدْ إلى بُؤْرة شعورهم ما كان في الحاشية، وأنْ يستدعوا من الذاكرة أيام الله، والمراد ما حدث في تلك الأيام، مثلما نقول نحن: «يوم بدر» أو «يوم ذي قار» أو «السادس من أكتوبر» أو «العاشر من رمضان».

وهنا في القول الكريم؛ إما أن يكون التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع، التي حدثتْ للأقوام السابقين عليهم، كقوم نوح وعاد وثمود، ذلك أن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم، وما حدث من كلِّ قومٍ تجاه الرسول المُرْسل إليه من الله.

أو أن يكون التذكير بالأيام التي أنعم الله فيها على بني إسرائيل بنعمه، أو ابتلاهم فيها بما يُؤلِمهم؛ ذلك أن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

والصبَّار هو مَنْ يُكثِر الصبر على الأحداث؛ وهي كلمة تُوحِي بأن هناك أحداثًا مؤلمة وقَعتْ، وتحتاج إلى الصبر عليها، كما تُوحِي كلمة «شكور» بحوادث منعمة تستحق الشكر.

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين: صَبْر على ما يُؤلِم، وشُكْر على ما يُرضي، وحين تجتمع هاتان الصفتان في مؤمن؛ يكون مُكتمِلَ الإيمان.

وقد قال الحق سبحانه: إن تلك الآيات هي أدلة تُوضِّح الطريق أمام المؤمن، وتُعطي له العِبْرة؛ لأنه حين يعلم تاريخ الأقوام السابقة، ويجد أنَ مَنْ آمنَ منهم قد عانى من بعض الأحداث المؤلمة؛ لكنه نال رضا الله ونعمه، ومَنْ كفر منهم قد تمتع قليلًا، ثم تلقَّى نقمة الله وغضبه.

هنا يُقْبِلُ المؤمِنُ على تحمُّل مَشَاقِّ الإيمان؛ لأنه يثق في أن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُضِيع أجْر مؤمنٍ، ولا بُدَّ لموكب الإيمان أنْ ينتصر؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن، ويشكر على النِّعَم»[1].

وبعد، فإن الحمد لله أن عصم أُمة محمد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤمنين عن منهج المغضوب عليهم، وعن منهج الضالين، فكانوا خير أُمة أُخرجت للناس، اهتدوا لطريق الله المستقيم، وظلوا عليه سائرين مهتدين بكتاب الله وسنة رسوله، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، يقرؤون ما عرضه القرآن الكريم من أخبار الأمم السابقة وأيام الله فيهم؛ فيتَّعِظُون، ويزداد يقينهم بدين الله.

وتتابعت الأجيال المسلمة يقرؤون سيرة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصحابته الكرام، وما رواه التاريخ من أيامهم المجيدة، فيجدون القدوة والفخر بأيام الله المجيدة؛ فيوم بدر، وفتح مكة، واليرموك، والقادسية، وغيرها من أيام العز الإسلامي يذكرها المسلمون، فتلين القلوب، وتتقاطر الدموع تأثرًا وتصديقًا بوعد الله ونصره.

ذاك الصحابي الجليل أنس بن النَّضرِ النجاري يتغيّب عن يومٍ من أيام الله المجيدة في الإسلام، يوم نزلت فيه الملائكة، وشاركت المسلمين في الدفاع عن دين الله، فيتحسّر أنسٌ؛ أن كان مع الغائبين، وشُقّ عليه أن لا يشهد مع رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول يومٍ من أيامِ الله في الإسلام، وأهَمَّهُ ذلك الأمر وأغَمَّهُ، فجعل يلومُ نفسهُ، ويقول: ويحك يا أنس! أتغيب عن أول مشهد شهده الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟!

(١) تفسير الشعراوي، (١٢/ ٧٤٣٩-٧٤٤٣).

هل أنت ضامنٌ بأن يمتد بك العمر حتى تشـــهد مع نبي الله ﷺ يومًـــا يُعادل بدرًا في الذُّخْرِ والأجر؟! والله لئن أكرمني ربي بيومٍ ألقى فيه المشركين؛ ليَرَيَنَّ ما أصنع.

ولقد همَّ أنسٌ رضي الله عنه أن يقول شـــيئًا آخر؛ لولا أنه هاب ذلك فسكت. لم يمض على العهد الذي قطعه أنس بن النضر على نفسه إلا قليل، حتى قامت أُحُد، وأُحُدٌ يـــومٌ قاسٍ من أيام المســـلمين؛ محَّصَ الله فيه قلوب المؤمنين الصادقين. وأَبْرَزَ في ســـاحاته الأبطال الغُرَّ الميامين من طُلاب الشهادة وأبناء الفَرَادِيس. وقد لقي فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه من الضَّنْكِ والأذى ما لقي، فرُمي بالحجارة، وأُلقي في الحفرة، وشُـــجَّ وجهه، وكُلِمَتْ شَفَتُهُ، وسالَ دَمُهُ، وأرجف الـمُرْجِفُون أنه قُتِل، وصدَّق أكثر المسلمين المجاهدين معه ما ذاع عنه وشاع.

عند ذلـــك وجد أنس بن النضر أن الفرصة غدت ســـانحة للوفاء بما عاهد عليه الله عز وجل، فاطَّلَع على ســـاحة المعركة، ونظر إلى المســـلمين وقد انكشفوا عن رسول الله ﷺ، وحَدَّقَ بالمشركين وهم يَقْصِدُون قَصْدَهُ ليقتلوه، ويُطفئوا نور الله بحدِّ السيوف.

فقـــال: اللهم إنـــي أعتذر إليك ممـــا صنع هؤلاء (يعني المســـلمين الفارين من ســـاحة القتال)، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعني المشركين المهاجمين). ثم ألفى عُمر بن الخطاب قريبًـــا منه، وهو مضطربٌ قَلِقٌ، فالتفت إليه وقال: ما فعل رسول الله يا عمر؟

فقال: ما أراه إلا قُتل.

فقال أنس: إن كان مُحمدٌ قد مات؛ فإن الله حيٌّ لا يموت. ثم سَلَّ سيفَهُ، وكسر غِمْدَه، وألقى بنفسه في خِضَمِّ المعركة غير مُرتابٍ ولا هَيَّاب، وبينما هو مندفعٌ إلى لقاء المشركين، رأى سعد بن معاذ قريبًا منه، فالتفت إليه، وقال: الجَنَّةُ يا سعدُ الجَنَّة.

وربِّ النَّضْرِ! إني أجدُ رِيحَهَا مِن دُون أُحُد. ثم مضى لا يلوي على شيء.

قال سعد: فَهَمَمْتُ أن ألحقَ به، وأن أسلكَ سبيلَه، وأفعلَ فعلَه، غَيْرَ أني ما استطعتُ أن أعزمَ على ما عَزَم، وأن أصنعَ ما صَنع.

ثم انجلتِ المعركة، وإذا بأنسٍ قد ثَوَى شهيدًا على أرض أُحُد، بضعٌ وثمانون ضربةً بالسيف، أو طعنةً بالرُّمح، أو رميةً بالسيف. وقد بلغ من كيد المشركين أنهم مَثَّلُوا به ميتًا مُثْلةً قضَت على معالمه، فما عرفه أحدٌ إلا أختُهُ أمُّ حارثة، وإنما عرفته من بَنَانِه[1].

ولقد أكرم الله أنس بن النضر النجاري؛ فأنزل فيه قرآنًا تلاهُ المسلمون آناء الليل وأطراف النهار، وسيظلُّ يُتلى إلى أن يَرِثَ الله الأرض ومن عليها، لقد أنزل الله فيه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣]»[2].

إنها أيامٌ عن تلك الأُمم العاصية، تكرر في القرآن عرضها للعبرة والعِظة؛ جاءتهم المعجزات، فعصوا وكفروا، فكان عقاب الله لهم

(١) أخرجه البخاري (٧/ ٢٢٣ رقم٢٨٠٥).
(٢) صور من حياة الصحابة: (٢/ ٢٩٢-٢٩٦).

وجزاؤه فيهم. وفي الإســـلام كانت أيـــام الله المجيدة، وابتلاءاته، فأظهر صحابة رسول الله ﷺ صدقهم وإخلاصهم، ونزل في عددٍ منهم ثناءُ الله في قُرآنه، فكانوا قدواتٍ ونجومًا، وهداية للأجيال المتعاقبة.



آية العِزِّ

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء:١١١].

ورد في الآثر: أن هذه الآية تُسمى آية العز!

أي والله العِزةُ لله، نحمده أنه واحدٌ أحد، فردٌ صمد! نحمدُه ونشكُرُه، لا نسأل سواه، ولا نرجو غيره. إيّاه نعبد، وإيّاه نستعين!

إنها النعمة العظيمة، أنه لا ولد له، ولا شـــريك معه، له العزّة والقوة، ولـــه العظمة والملك، هو أكبر من الصاحبة والولد، وهو أكبر من المعين والناصر! الله أكبر، الله أكبر!

إن الإنسان في الأمور الدنيوية يحتار في اختياره، يبحث عن الأفضل، ولا يجد الخيار الحاســـم لهذا أو ذاك، بل يرى الناسَ أمامه متفاوتين في اختياراتهم، متقلّبين؛ مرة إلى هنا، ومرة إلى هناك. وآخرون لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، حيرةٌ وتردد.

وفـــي العبادة، ومع الله، الأمر محســـوم؛ فالله واحـــدٌ أحد، لا معبود سواه، ولا طريق إلَّا إليه، لا تَرَدُّدَ، ولا قلق، لا ولدَ، ولا شريكَ، ولا سندَ

ولا مُعين. فاللهم لـــك الحمد؛ أن كنت فردًا صمدًا، واحدًا أحدًا، نعبدك وحدك، ونستعين بك وحدك. ســـبحانك، سبحانك! قال في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

إنها نعمةٌ عظيمة: أن جعل اللهُ العبادة خاصةً به وحده، فأرســـل رُسُلَهُ لهداية البشـــر لهذه النعمـــة، ومنَّ على أهل مكة والعـــرب، فاختار منهم رسوله ﷺ محمد بن عبدالله ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِـــيدًا﴾ [الفتـــح:٢٨]. وأنزل ســـبحانه القرآن الكريم: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وجاءت آية هذا المجلس لتُذكِّـــر عباده المؤمنين بنعمة الوحدانية لله سبحانه! كانوا في مكة يعبدون الأصنام. وما الأصنام إلا حجارةٌ لا تسمع ولا ترى، توارثوا تقديســـها وتعظيمها؛ جهـــلٌ وجهالة، وعمى وضلالة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٤].

فتحوا أعينهم، ونشـــؤوا في بيئةٍ تعبـــد الأصنام وتُقَدِّسُـــها، فاقتفوا آثار آبائهم. وبعد أن جاء رســـول الله ﷺ بالدعـــوة، ونَوَّرَ اللهُ بصائرَ الصحابـــة، فعرفوا أنها أصنـــامٌ لا تنفع ولا تضر، أســـلموا وأنكروا على أهلهم وقومهم عبادة الأصنام. كان صنم عمرو بن الجموح يدعى (مناة)،

وقد اتخذه من نفيس الخشب. وكان شديد الإسراف في رعايته، والعناية به، وتمضيخه بنفائس الطيب[1].

وكان عمرو بن الجموح قد تجاوز الستين من عمره، حين بدأت أشعة الإيمان تغمر بيوت (يثرب) بيتًا بيتًا، على يد الداعية الأول مصعب بن عمير، فآمن على يديه أولاده الثلاثة مُعَوَّذ، ومُعاذٌ، وخلّادٌ، وتِرْبٌ لهم يدعى معاذ بن جبل. وآمنت مع أبنائه أمّهم هند، وهو لا يعرف من أمر إيمانهم شيئًا.

رأت هند زوجة عمرو بن الجموح أن يثرب غلب على أهلها الإسلام، وأنه لم يبق من السادة الأشراف أحدٌ على الشرك، سوى زوجها ونفر قليل معه. وكانت تحبّه وتجلّه، وتشفق عليه من أن يموت على الكفر، فيصير إلى النار.

وكان هو في الوقت نفسه يخشى على أبنائه: أن يرتدّوا عن دين آبائهم وأجدادهم، وأن يتّبعوا هذا الدّاعية مصعب بن عمير، الذي استطاع في زمنٍ قليل: أن يحوّل كثيرًا من الناس عن دينهم، وأن يدخلهم في دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال لزوجته: يا هند، احذري أن يلتقي أولادك بهذا الرجل، (يعني مصعب بن عمير)، حتى نرى رأينا فيه.

فقالت: سمعًا وطاعة، ولكن هل لك أن تسمع من ابنك معاذ، ما يرويه عن هذا الرجل؟

(١) ضمّخ الشيء بالطيب: دهنه به.

فقال: ويحك، وهل صبأ معاذ عن دينه وأنا لا أعلم؟!

فأشفقت المرأة الصالحة على الشيخ، وقالت: كلّا، ولكنه حضر بعض مجالس هذا الداعية، وحفظ شيئًا مما يقوله.

فقال: ادعوه إليّ، فلما حضر بين يديه، قال: أسمعني مما يقوله هذا الرجل، فقال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة].

فقال: ما أحسن هذا الكلام، وما أجمله؟! أَوَ كُلُّ كلامه مثل هذا؟!

فقال معاذ: وأحسن من هذا يا أبتاه، فهل لك أن تبايعه، فقومك جميعًا قد بايعوه.

سكت الشيخ قليلًا، ثم قال: لست فاعلًا حتى أستشير (مناة) فأنظر ما يقول.

فقال له الفتى: وما عسى أن يقول مناة يا أبتاه، وهو خشبٌ أصمٌّ، لا يعقل ولا ينطق، فقال الشيخ في حدّة: قلت لك لن أقطع أمرًا دونه.

ثم قام عمرو بن الجموح إلى مناة -وكانوا إذا أرادوا أن يُكلّموه، جعلوا خلفه امرأةً عجوزًا، فتجيب عنه بما يلهمها إياه في زعمهم- ثم وقف أمامه بقامته الممدودة، واعتمد على رجله الصحيحة، فقد كانت الأخرى عرجاء، شديدة العرج، فأثنى عليه أطيب الثناء، ثم قال: يا (مناة) لا ريب أنك قد علمت، بأن هذا الداعية الذي وفد علينا من مكّة، لا يريد

أحدًا بسوءٍ سواك. وأنه إنما جاء لينهانا عن عبادتك. وقد كرهت أن أبايعه -على الرغم مما سمعته من جميل قوله- حتى أستشيرك، فأشر عليَّ، فلم يرد عليه مناة بشـــيء. فقال: لعلك قد غضبت. وأنا لم أصنع شيئًا يؤذيك بعد. ولكن لا بأس، فسأتركك أيامًا حتى يسكت عنك الغضب.

كان أبناء عمرو بن الجموح يعرفون مدى تعلّق أبيهم بصنمه (مناة)، وكيـــف أنه غدا مع الزمـــن قطعةً منه، ولكنهم أدركـــوا أنه بدأت تتزعزع مكانته في قلبه، وأن عليهم أن ينتزعوه من نفسه انتزاعًا، فذلك سبيله إلى الإيمان.

أدلج أبناء عمرو بن الجموح مـــع صديقهم معاذ بن جبل إلى (مناة) في الليل، وحملوه من مكانه، وذهبوا به إلى حفرةٍ لبني سلمة، يرمون بها أقذارهم، وطرحوه هناك، وعادوا إلى بيوتهم دون أن يعلم بهم أحد، فلما أصبح عمرو دلف إلى صنمه لتحيتـــه، فلم يجده، فقال: ويلكم، من عدا على إلهنا هذه الليلة؟! فلم يجبه أحدٌ بشيء.

فطفق يبحث عنه داخل البيت وخارجـــه، وهو يُرغي ويُزبد، ويتهدّد ويتوعد، حتى وجده مُنكسًا على رأسه في الحفرة، فغسله وطهره وطيّبه، وأعاده إلى مكانه، وقال له: أما والله لو أعلم من فعل هذا لأخزيته.

فلما كانت الليلة الثانية تعدّى الفتية على (مناة)، ففعلوا فيه مثل فعلهم بالأمس، فلما أصبح الشيخ التمســـه فوجده في الحفرة ملطخًا بالأقذار، فأخذه وغســـله وطيّبه وأعاده إلى مكانه. وما زال الفتية يفعلون بالصنم، مثل ذلك كل يوم، فلما ضاق بهم ذرعًا، راح إليه قبل منامه، وأخذ ســـيفه

فعلّقه برأســه، وقال له: يا مناة، إني والله ما أعلم من يصنع بك هذا الذي ترى، فإن كان فيك خير فادفع الشــر عن نفسك، وهذا السيف معك، ثم أوى إلى فراشه.

فما إن اســتيقن الفتية من أن الشــيخ قد غطّ في نومه، حتى هبُّوا إلى الصنم، فأخذوا الســيف من عنقه وذهبوا به خــارج المنزل، وقرنوه إلى كلب ميّت بحبل، وألقوا بهما في بئر لبني ســلمة، تســيل إليها الأقذار، وتتجمع فيها.

فلما استيقظ الشيخ ولم يجد صنمه خرج يلتمسه؛ فوجده منكبًّا على وجهه في البئر، مقرونًا إلى كلبٍ ميّت، وقد سُلب منه السيف، فلم يُخرجه هذه المرة من الحفرة، وإنما تركه حيث ألقوه، وأنشأ يقول:

واللهِ لــو كُنْــتَ إلهًــا لــم تَكُــنْ
أنــتَ وكلــبٌ وسـطَ بِئْـرٍ فـي قَـرَنْ

ثم ما لبث أن دخل في دين الله[1].

قد يسأل سائلٌ نفسَــهُ: كيف كان رجالٌ من أمثال عمرو بن الجموح، وهم زعماء في قومهم وأشــراف، كيف كانوا يؤمنون بأصنام هازلة، كل هذا الإيمــان؟ وكيف لم تعصمهم عقولهم عن مثــل هذا الهراء. وكيف نُعِدّهم اليوم، حتى مع إسلامهم وتضحياتهم، من عظماء الرجال؟!

ومثل هذا السؤال يبدو إيراده سهلًا في أيامنا هذه؛ حيث لا نجد طفلًا

(١) صور من حياة الصحابة (١/ ٧٥-٧٩).

يسيغ عقله أن ينصب في بيته خشبةً ثم يعبدها، لكن في أيام خلت، كانت عواطف البشر تتسع لمثل هذا الصنيع دون أن يكون لذكائهم ونبوغهم حيلة تجاه تلك التقاليد![1].

جاء في تفسير الطبري ما نصه: «يقول تعالى ذكرُهُ لنبيّه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَقُلِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، فيكون مربوبًا لا ربًّا؛ لأن ربّ الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، فيكون عاجزًا ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفًا، ولا يكون إلهًا من يكون محتاجًا إلى معين على ما حاول، ولم يكن منفردًا بالمُلك والسلطان ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ يقول: ولم يكن له حليفٌ حالفه من الذّل الذي به؛ لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره فذليلٌ مهين، ولا يكون، مَن كان ذليلًا مهينًا يحتاج إلى ناصر، إلهًا يُطاع. ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١] يقول: وعظّم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظّمه به من قول وفعل، وأطعه فيما أمرك ونهاك.

عن مجاهد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال: لم يحالف أحدًا، ولا يبتغي نصر أحد.

عن قتادة: «ذُكر لنا أن نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُعَلِّمُ أهلَهُ هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١]، الصغير من أهله والكبير.

عن ابن عباس، قال: إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل، ثم تلا: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء:٢٢].

---

(١) رجالٌ حول الرسول (ص٢٩٨).

عــن القُرَظي، أنه كان يقول في هذه الآيــة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: «إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولدًا، وقالت العرب: لبّيك، لبّيك، لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذلّ الله، فأنزل الله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء:١١١].

اللهم اجعلنا ممن توكل عليك فقبلته، واعتصم بك فحميته، واعتمد عليك فحفظته.

الإيمانُ الحقُّ

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٢-٤].

تأمَّل وتوقفْ وتدبّرْ في هذه الآيات، وبعد ذاك سائل نفسك! هل يخافُ قلبك وتغشاهُ القشعريرةُ إذا ذُكِّرْتَ بالله، أو ذَكَرتَ اللهَ في نفسك؟

هل يزداد إيمانك إذا سمعت متحدثًا يُحدِّثك عن آيات الله؟ أو سمعت آخرَ يتلو آياته سبحانه؟ قال السدّي في ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: «هو الرجل يُريد أن يظلم أو يَهُمَّ بمعصية فينزع عنه»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إذا كان وجل القلب من ذِكْرِه يتضمن خشيته ومخافته؛ فذاك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور، وترك المحظور»[2]

هل تستحضر الله في كل أُمورك وتتوكل عليه؟ وتُؤدي كُل ما أوجبه

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر ابن جرير الطبري (٦/ ١٧٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠).

الله عليك؟ وتجتنب كل ما نهاك عنه. وهل تهُبُّ للصلاة في أوقاتها؟ وهل تسرع لأدائها وتُقيمها وفق هدي المصطفى ﷺ؟ وهل أنت ممَّن لا يتأخر ولا يُسوّفُ في واجب الصلاة؟ وهل تنظر في دخلك ومالك، وتنفق منه باستمرار في وجوه الخير؟ وهل تُبادر لأداء الأعمال الصالحة التي ندبنا الله إليها؟ وهل الأعمال المفْرُوضة والمُستحبَّة التي تُؤديها، تفعلُها بقلبك وجوارحك؛ أي، تنفيذٌ قَوْلِي وعمَلي، وتطبيقٌ ذاتي للإيمان. أسئلة وتساؤلات! حرّك قلبك، ودعه يُجيبك!

إذا كنت كذلك فلعلك تكون -بفضل الله ورحمته- ممّن يشملهم قوله تعالى في الآية الآتية: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٤]. كتبنا اللهُ منهم.

جاء في تفسير القرطبي: «سَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَمُؤْمِنٌ أَنْتَ؟ فَقَالَ لَهُ: الْإِيمَانُ إِيمَانَانِ، فَإِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ فَأَنَا بِهِ مُؤْمِنٌ. وَإِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَنَا مِنْهُمْ أَمْ لَا»[1].

قال الشيخ ابن سعدي: «ومن نقصت طاعته لله ورسوله، فذلك لنقص إيمانه، ولمـّا كان الإيمان قسمين: إيمانًا كاملًا يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيمانًا دون ذلك؛ ذكر الإيمان الكامل، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

(١) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي، (٧/ ٣٦٧).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشيةُ الله تعالى الانكفافَ عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢]. ووجه ذلك، أنهم يُلقُون له السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبّره، فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبُّر من أعمال القلوب، ولأنه لا بُدَّ أن يبيّن لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبةً في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربّهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان. وَعَلَى رَبِّهِمْ وحده لا شريك له يَتَوَكَّلُونَ؛ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربّهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك. والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تُكمل إلا به.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ من فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولُبُّها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال:٣] النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيمانهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات، ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾؛ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق اللّه، وحقوق عباده. وقدّم تعالى أعمال القلوب؛ لأنها أَصْلٌ لِأعمالِ الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص؛ فيزيد بفعل الطاعة، وينقص بضدّها. وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه ويُنَمِّيَهُ، **وأن أولى ما يحصل به ذلك،**

تدبّر كتابَ الله تعالى والتأمُّلُ لمعانيهِ، ثم ذكر ثواب المؤمنين حقًّا، فقال: ﴿لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي: عاليةً بحسبِ عُلوِّ أعمالهم. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٤]، وهو ما أعدّ الله لهم في دار كرامته؛ مما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ودلَّ هذا على أن من يصل إلى درجتهم في الإيمان -وإن دخل الجنة- فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة»[1]. انتهى كلام ابن سعدي.

هذا وكلما قرأتُ القرآن الكريم، وجدتُ آيات البشائر تتابع للذين آمنوا؛ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٧، ١٠٨]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥]، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة:٧، ٨]، وغيرها كثير.

إن تلك الآيات العظيمات؛ تحمل الطمأنينة، وتنقل البهجة، وتزفُّ الفرحة!

ربَّاه، كيف نكونُ من أُولئك السُّعداء!

---

(١) تفسير السعدي (ص٣١٥).

إنه بتأمّل وتدبّر هذه الآيات المبشّرة، نلحظ اقتران الكلمات الثلاث؛ آمنوا، وعملوا، والصالحات. فكلما وردت هذه العبارات الثلاث ورد التبشير. وأول تلك الكلمات الثلاث الإيمان، إنه هو الأساس في القبول، إنه الطريق الحق للوصول للهدف.

إنه قبل أن نطمح أن نكون من المؤمنين حقًّا، هل نحن من المؤمنين؟ فإذن من هم المؤمنون؟ يعرف كثيرون عن أنفسهم أنهم مسلمون نطقوا بالشهادتين، وأدّوا أركان الإسلام الخمسة! فكانوا مسلمين. فهل كل مسلم مؤمن؟

قلَّبْتُ في كتب التفسير، وفي زاد العلماء، عن تعريف الإيمان وما هو، فوجدت أنهم فرقوا بين الإسلام والإيمان. وفي هذا الكتاب موضوعٌ خاصٌّ بـ (الإيمان والإسلام) يحسن الرجوع إليه.

قال البغوي: «وحقيقة الْإِيمَانِ التَّصْدِيقُ بِالْقَلْبِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]؛ أَيْ بِمُصَدِّقٍ لَنَا، وَهُوَ فِي الشَّرِيعَةِ: الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ، وَالْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ، وَالْعَمَلُ بِالْأَرْكَانِ، فَسُمِّيَ الْإِقْرَارُ وَالْعَمَلُ إِيمَانًا؛ لِوَجْهٍ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ، لِأَنَّهُ مِنْ شَرَائِعِهِ. وَالْإِسْلَامُ: هُوَ الْخُضُوعُ وَالِانْقِيَادُ، فَكُلُّ إِيمَانٍ إِسْلَامٌ، وَلَيْسَ كُلُّ إِسْلَامٍ إِيمَانًا، إِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُ تَصْدِيقٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَكُونُ مُسْتَسْلِمًا فِي الظَّاهِرِ غَيْرَ مُصَدِّقٍ فِي الْبَاطِنِ. وَقَدْ يَكُونُ مُصَدِّقًا فِي الْبَاطِنِ غَيْرَ مُنْقَادٍ فِي الظَّاهِرِ»[1].

وبالله التوفيق.

(١) معالم التنزيل: البغوي (١/ ٦٠).

البلاءُ المُبِين

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٢-١٠٦].

لقد تعرض أنبياء الله لأنواع من البلاء، فصبروا، وكانوا قدوة في الصبر والتحمل، فمنهم نتعلم، وبمنهجهم نقتدي. وإذا تعرّض الإنسان في حياته لمواقف ابتلاء، فليتذكّر أنبياء الله وكيف صبروا وتحمّلوا، وهم الذين اصطفاهم الله لرسالته، وأكرمهم بالنبوة؛ فقدوتُنا وسيدنا محمد ﷺ تعرّض لأنواع البلاء والأذى، يقول: «لقد أُخِفتُ في الله وما يُخاف أحدٌ، ولقد أُوذيت في الله وما يُؤذى أحد، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلة وما لي ولا لبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيء يُواريه إبط بلال»[1].

وأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام نادى قومه للإيمان، فرفضوا دعوته وسخروا منه، وبقي أبوه مع أهل الشقاوة؛ وكأني بقلب إبراهيم عليه السلام

(١) السيرة النبوية الصحيحة (ص١٧٩)، والحديث أخرجه الترمذي (٤/ ٦٤٥ رقم٢٤٧٢)، وأحمد (٢١/ ٤٤٣ رقم١٤٠٥٥)، وقال الترمذي: حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٥٢ رقم٣٢٨١).

يتفطّر على أبيه، وينشد رشده وهدايته، ولكن الهداية بيد الله ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦].

ويشتد البلاء على إبراهيم، ويُضرم قومُه النار، ويلقوه فيها، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنجّيه ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩].

وآياتُ هذا المجلس تحكي الابتلاء الصعب، والاختبار المرّ الذي تعرّض له أبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، تُعرضُ مشهدًا حزينًا تتفطّر له الأكباد، وتتمزق معه القلوب؛ إذ يرى إبراهيم في المنام ذبح ابنه، وقد تخطّى الطفولة ودرج، ويُصدِّق عَلَيْهِ السَّلَامُ الرؤيا، فيعزم على التنفيذ، وما أشَقَّه من قرارٍ وما أمرّها من إرادة! استحضر مشهدَ ابنك وهو ليس بالطفل ولا الشاب، استحضره وقد صار يمشي بقربك ينشد حنانك، استحضره وهو الصغير يدنو منك، فتقترب منه ليمسّ جلدُه جلدَك، فتشمُ أنفاسَه، وتمتزجُ عواطفُك بعواطِفه، ويختلط حبُّك بحبِّه، إن بكى بكيت، وإن شكا شكيت، استحضر نفسك مع صغيرك هل تستطيع نهره وزجره؟ فكيف بذبحه! ربَّاه حنانيك ولطفك! هي الأبوّة يعرفها الآباء. تخيّل هذا الفتى الصغير وقد انكبّ على وجهه، وهمّ آخرٌ بأذيّته، ستقذف لا شعوريًّا بنفسك دونه؛ تحميه بجسدك، وترخص حياتك لأجله، فكيف بك وقد أُمرت بإزهاق روحه، كيف ستتماسك أعصابك! وكيف ستكون حالتك!

ربَّاه نسألك رحمتك ولطفك!

إن هذه الآيات تحكي قصة ابتلاء وامتحان تعرّضَ لها أبو الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قصة تدمع لها الأعين، وترتجّ لها المشاعر. وقد كتب

علماء التفسير حول هذا الابتلاء الإبراهيمي، فجادوا بفيضٍ من القول والشرح والبسط.

واستفاض الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الحديث حول هذه الآية الكريمة، ومما قاله:

«﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ [الصافات:١٠٢]؛ أي، يسعى معه ويعينه، قيل: بلغ سبع سنين، وقيل: ثلاث عشرة سنة، ويحتمل أن يكون ما بينهما، ما بين السبع إلى ثلاث عشرة؛ لأنه إذا زاد على ذلك فقد يستقلّ بنفسه، وما دون السبع أيضًا يحتاج إلى من يَعُوله، ولا تتعلّق به النفس كثيرًا، لا سيما نفس الأب، أما الأم فقد يكون تعلّق نفسها بالصغير أكثر من تعلّق نفسها بالكبير، ولكن الأب تتعلّق نفسه بمثل هذا السن.

لما بلغ معه السعي امتحن الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إبراهيم بمحنة عظيمة لا يصبر عليها إلا من كان في مثل حاله، واعلم أن هذا الولد هو بكر إبراهيم؛ يعني أنه أول مولود وُلِدَ له، ووُلِدَ له كما قيل: على كبر السن؛ يعني أنه كان كبيرًا، وُلِدَ له هذا المولود البكر الذي ليس له ولد سواه، فامتحنه الله، فأراه الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المنام أنه يذبح هذا الولد، وهذا خبر بمعنى الأمر، فلم ينزعج إبراهيم، ولم يتأثر، واطمأن إلى هذا، ثم عرض الأمر على هذا الابن لا للاستشارة، ولكن للاختبار، وإلا فلا يمكن أن يستشير إبراهيم ابنه فيما أمره الله به، وإنما عَرَضَ عليه الأمر ليختبره بهذا، وينظر مدى قوة تحمله لهذا الأمر العظيم.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾؛ يعني لما بلغ معه السعي، وأُرِيَ ما رأى ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾؛ أي: رأيت ﴿فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ تَلَطَّفَ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾؛ ليُبعد عن ابنه

أنــه ذَكَرَ ذلك عن جفاء؛ لأن الإنســان إذا كان يبغض ابنه فإنه لا يهمه أن يعذّبــه أو أن يذبحه، ولا يتأثر بذلك، لكنه قال: ﴿يَبُنَيَّ﴾ من باب التلطّف به، وبيان أن الحنان قد بلغ في قلبه كل مبلغ، وصَغَّرَه، فقال: ﴿يَبُنَيَّ﴾ ولم يقل؛ يا ابني؛ زِيادة في التلطف، فكان جواب الابن جوابًا عجيبًا عظيمًا.

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾، وهذا شــبيه بما وقع من عائشــة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين خَيَّرَها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيــن أن تبقى معه، وأن تفارقــه للدنيا، وقال لها: «**اسْــتَأْمِرِي أَبَوَيْكِ**»؛ يعني استشــيريهم، فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أفي هذا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟! إني أختارُ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ»[1].

هنــا قال: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾؛ يعني: فَكِّرْ في أمرك. هل أنت مســتعدٌّ لهذا الشــيء أو لا؟ وهذا من باب الاختبار في حال هــذا الابن، وتهيِّئه لتنفيذ ما أمر الله به أباه.

﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ سبحان الله!

ما قال: يا أبــت لا مانع عندي، قــال: ﴿ٱفۡعَلۡ﴾، فحثّه على أن يفعل، ولم يقل: افعل ما رأيــت، قال: افعل ما تؤمر به؛ حثًّــا لإبراهيم على أن يفعل؛ لأنه إذا ذَكَّــرَه أن هذا أمر الله فإنه يزيده قوة فــي تنفيذ هذا الأمر؛ لأن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ خاف أن تُدْرِكَ إبراهيم رحمةُ الولد فيراجعَ الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك، فأشــار عليه أن يُبادِر بفعل ما أُمِرَ بــه، افعل ما تُؤْمَر، ولم يقل: ما رأيت، ليكون هذا أشد حثًّا لإبراهيم على الإقدام.

﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٦ رقم٢٤٦٨).

ولما كان أمرًا مستقبلًا والإنسان لا يثق أن يقوم بالأمر المستقبل؛ قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ من الصابرين على أمر الله، هذا الأمر العظيم، الصابرين على بلاء الله؛ لأن هذا من البلاء العظيم، أن يصبر الإنسان على أن يُقْتَل؛ امتثالًا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهنا لم يقل: ستجدني إن شاء الله صابرًا قال: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إشارة إلى أنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ سيكون له تَأَسٍّ بَمَنْ سَبَقْ، حتى يكون من جملة المُتصفين بهذا الوصف وهو الصبر.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾؛ يعني: استسلما لأمر الله، وانقادا لأمره عن رضا ورغبة بلا شك من الأب الذي عزم على أن ينفّذ أمر الله، والابن الذي تَقَبَّل هذا الأمر بانشراح صدر وحَثٍّ لأبيه على أن يفعل ما أمره الله به، وهذا غاية ما يكون من الاستسلام، وهذا استسلام القلب، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ هذا استسلام الجوارح؛ يعني أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تَلَّ ابنه للجبين؛ يعني: صرعه على الأرض على جبينه ليذبحه، وإنما صرعه على جبينه؛ من أجل ألا يرى وجهه حين يذبحه، ولئلا يرى الابن السكين فيفزع، المهم أن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تَلَّ ابنه للجبين بسرعة قوةٍ في تنفيذ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] صرعه عليه، وكان ذلك بمِنَى، وأَمَرَّ السكين على حلقه فلم تعمل شيئًا بمانع من القدرة الإلهية»[1]. ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤، ١٠٥].

وذكر الشيخ ابن عثيمين أيضًا عددًا من الفوائد في هذه الآيات، فمما قاله:

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الصافّات.

«من فوائد الآيات في قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ [الصافات:١٠٢] إلى آخره، أن الله عَزَّوَجَلَّ قد يبتلي عبده المؤمن ببلوى عظيمة شديدة على النفوس، وذلك بما أرى الله نبيه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ذبح ولده. نحن نعلم أن الله لو قدّر على ولدك أن يموت، لكان هذا مصيبة عظيمة، لكن إذا أمرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن تذبحه أنت بنفسك، صار هذا أعظم وأشد، وصار الصبر على هذا الأمر أشد وأفضل من الصبر على موته بَقَدرٍ من الله، أليس كذلك؟ الصبر على أنك أنت بنفسك تتولى قتل ابنك أشدّ مما لو أماته الله عَزَّوَجَلَّ بقدر من عنده.

* ومن فوائد الآية: أن هذا الوقت الذي أُمِرَ إبراهيم بذبح ابنه فيه كان وقتًا يكون فيه تنفيذ الأمر شديدًا؛ لأنه بلغ معه السعي فتنفيذ الأمر في هذه الحال يدل على كمال عبودية المأمور؛ حيث نفّذه في أَشَدِّ ما يكون تَعَلُّقًا بابنه.

*ومن فوائد الآيات: أن رؤيا الأنبياء حق؛ وذلك لأن إبراهيم اعتمدها، ولو لم تكن حقًّا لم يعتمدها، لكن لو رأى أحدنا مثل هذه الرؤيا أنه يذبح ابنه فهل هذا حق؟ لا، ليس بحقٍّ قطعًا؛ لأننا لا نؤمر أبدًا عن طريق المنام، ولا عن طريق اليقظة بذبح أبنائنا، لكن إما أن تكون رؤيا، ويكون فيها إشارة إلى شيء مشابه، وإما أن تكون من الشيطان ليحزنك، أما أن تكون أمرًا يجب تنفيذه فهذا لا يمكن.

*ومن فوائد الآية الكريمة: حسن أدب إسماعيل؛ حيث قال في جواب أبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، ولم يقل: يا هذا، أو يسكت، بل قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان أن يُعَلِّق كل أمر مستقبل على مشيئة الله؛ لقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]، فإن هذا أمر مستقبل، وينبغي أن يعلّق الإنسان كلّ شيء مستقبل بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن الصبر يكون على امتثال الأوامر وعلى المصائب، فإن قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي الصابرين على تنفيذ هذا الأمر وعلى ما يقتضيه من الآلام؛ لأنه ذَبْحٌ. والصبر ثلاثة أقسام دلّت هذه الآية على قسمين منها، والثالث الصبر عن معصية الله.

* ومن فوائد هذه الآيات في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] فضيلة إبراهيم وإسماعيل؛ حيث استسلما لأمر الله في هذه الأمر العظيم الذي لا يقدم عليه إلا أمثالهما، ولا شك أن هذا من مناقبهما.

* من فوائد هذه الآية وما بعدها: إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾، وأنه بصوت؛ لقوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، وبحرف؛ لقوله: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات:١٠٤، ١٠٥] إلى آخره.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن الآية شهدت لما دلَّ عليه الحديث الصحيح من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ**

الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ»[1]، فإن أشدّ كربٍ وقع لإبراهيم بالنسبة لهذه القضية ما حصل منه حين تَلَّ ابنه على جبينه ليذبحه، فما تصورنا لهذا الحال؟ إنه لكربٌ عظيم، وفي هذا الكرب العظيم جاء الفرج من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فالفرج يكون مع الكرب، وكلما اشتدّ الكرب، والتجأ الإنسان إلى ربِّه كان الفرج إليه أسرع.

* ومن فوائد هذه الآية: أن فيها شاهدًا للحديث الصحيح أن الإنسان إذا قصد العمل، وسعى به كُتِبَ له أجره؛ لقوله: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، مع أنه لم يذبح، لكنه فعل ما أُمِرَ به، ولم يبق إلا أن يُنَفِّذه. وما هو الحديث الذي تشهد له هذه الآية؟

* أولًا: ما ثبت في الصحيح في قصة «الرجل الذي قال: لَيْتَ لي مثل ما لفلان فأعمل فيه ما عمل فلان»، وكان ينفق ماله في الخير، وكذلك في قصة «الرجلان يقتتلان كلاهما يدخل النار، فقيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «**لِأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ**»[2]، فإذا كان مَنْ فعل السيئة، ولم يُتِمَّها يؤزر عليها، فمَنْ فعل الحسنة ولم يُتِمَّها -من باب أولى- أن يُؤْجَر عليها.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧ رقم١٠٧٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٣٧ رقم٣١٥)، والفريابي في كتاب القدر (رقم١٥٤)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (١/ ١٣٧-١٣٨ رقم٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٣٥ رقم٣١).

* ومن فوائد هذه الآيات في قولــه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أن كلّ محسِــن فإن الله تعالى يجعل له مــن كلِّ هَمٍّ فرجًا، ويكتب له أجر العبادة، وإن لم يفعلها إذا ســعى في أســبابها. وهذا له أمثلة كثيرة يمكن أن نذكر منها ما جرى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجّ قارنًا بلا شــك، وساق الهدي، ومع ذلك قال: «**لَوْ أَنِّي اسْــتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتدبّرتُ لَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً**»(١)، فهنــا تَمَنَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون قد تمتّع، ولكنه قرن، فيُكْتَب له أجر التمتع الذي قال عنه: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتدبّرتُ لَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً**». فالإنسان المحسن الحريص على الخير قد يكتب الله له من الأجور ما هَمَّ أن يفعله وإن لم يفعلها. هذه واحدة.

* ثانيًا: أن الله يفرِّج له كل كرب، وشــاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢-٣]. ولكن لا بُدَّ في هذه الحال من قَيْدٍ، وهو أن ينتظر الإنسان فرج الله عَزَّوَجَلَّ لا يَبْعُد بنفسه عن الله ويأس، لا، بل ينتظر الفرج، فإذا انتظر الفرج مع تقواه وإحسانه، فما أقرب الفرج إليه؛ لقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن الجزاء من جنس العمل ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فكما أحســن في عبادة الله أحسن الله إليه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الرحمن: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]. يعني: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، وبهذا يتبيّن لك كَمَالُ فَضْلِ

(١) أخرجه مسلم (٨٨٦/٢ رقم1218).

اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أحسن إليك أولًا بتوفيقك للطاعات والإحسان، ثم أحسن إليك بالجزاء عليه.

فاعرف أيها المؤمن قَدْرَ نعمة الله عليك بالإحسانين: إحسان سابق للهداية هداك الله ووفقك، وإحسان لاحق وهو الثواب العظيم.

نحن في الحقيقة في غفلة عن هذا، كثيرًا ما يعتمد الإنسان على نفسه بفعل الخير، ولا يرى نعمة الله عليه به، مع أن الواجب أن ترى نعمة الله عليك به، إذا أتيت مثلًا إلى المسجد فاعرف قدْرَ نعمة الله عليك؛ حيث سهّل عليك المجيء إلى المسجد للصلاة أو لقراءة العلم؛ لأن الله حرم أُممًا كثيرة عما مَنَّ الله به عليك، ما أكثر الذين لا يأتون إلى المساجد، وما أكثر الذين يحضرون بأبدانهم لا بقلوبهم، وما أكثر الذين يحضرون عادة لا عبادة، ما أكثر الذين حُرِموا التردّد إلى المساجد لطلب العلم أو قراءة القرآن، كل هذه يجب أن يتفطّن لها الإنسان، وأن يعرف قدْرَ نعمة الله عليه بها، ثم يرجو ثواب الله عَزَّوَجَلَّ عليها ويُحْسِن الظنّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي**»[1] ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٦].

* ومن فوائد هذه الآية: بيان أن الله عَزَّوَجَلَّ قد يختبر عبده المؤمن بمصائب يفعلها هو بنفسه أو بمصائب يُقَدِّرها الله عليه لا اختيار له

(١) أخرجه البخاري (١٨/ ٤١٩ رقم ٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١ رقم ٢٦٧٥).

فيها، أليس كذلك؟ اختبار الله عَزَّوَجَلَّ، يختبر المؤمن بمصائب؛ إما أن يفعلها هو بنفسه أو يجريها الله عليه بغير اختياره، والأول أكمل من الثاني؛ يعني أن يبتلي الله الإنسان بمصائب يفعلها هو بنفسه، هذه أكمل من الثاني؛ لأن الثاني الذي يجرى عليه بالاختيار كما قال بعض السلف: إما أن يصبر صبر الكرام، وإما أن يسلو سلوَّ البهائم، لكن الشيء الذي يفعله بنفسه أعظم وأكمل، ما جرى لإبراهيم من الاختبار من أي النوعين؟ من الأول الذي قَدَّر الله عليه مصيبة يفعلها بنفسه وهو ذبح ابنه، فإنه سيفقده، وفقد الابن في هذا السن -وهو أيضًا وحيده الذي ليس له ولد سواه- لا شك أنه مصيبة عظيمة، ولهذا وصفه الله بأنه بلاءٌ مبين.

* ومن فوائد الآية الكريمة: بيان حكمة الله عَزَّوَجَلَّ فيما يُقَدِّره على عبده المؤمن من مكروه، لا يقول الإنسان: لماذا ابتلاني الله تعالى بهذا دون غيري؟ نقول: لله في ذلك حكم عظيمة، يبتلي الله المؤمن بالمصائب، إذا صبر نال بذلك درجة الصابرين، وإذا احتسب الأجر بهذا الصبر نال بذلك ثواب الصابرين؛ والصبر كما نعلم جميعًا مرتبة عالية يوفّى فيه العامل أجره بلا حساب»[1].

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الصافّات.

التَّسبيح

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى:١].

بداية سورة الأعلى أمرٌ مباشر بتسبيح الله جَلَّجَلَالُهُ، وجاء الأمر بالتسبيح في سُوَرٍ أخرى؛ ففي سورتي (الواقعة)، و(الحاقة) ورد الأمر الربّاني ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]، و[الحاقة:٥٢].

تدبّر القرآن وتَأَمّلْهُ تجد آيات: الإرشاد، والهداية، والإيضاح، والبشارة ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

لقد ورد الأمر بتسبيح الله وبذكره، وبالاستغفار، وبالدعاء في آياتٍ متعددة. وفي هذه الوقفة، نستعرض ما ورد حول التسبيح؛ إذ قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى ﴿سَبِّحِ﴾ «أي: نَزِّه اللهَ عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وعظمته، فإنَّ التسبيح يعني التنزيه؛ إذا قلت: (سُبحان الله)، يعني أَنَّني أُنَزِّه اللهَ عن كلِّ سوء، عن كلِّ عيب، عن كلِّ نَقْص؛ ولهذا كان من أسماء الله تعالى: السلام، القدوس؛ لأَنَّه متنَزِّهٌ عن كلِّ عيب».

وقال الشيخ: «ونحن نضرب لكم أمثلة: من صفات الله تعالى (الحياة)، هل في حياته نَقْص؟ لا. حياة المخلوق فيها نَقْص؛ أولًا: لأنها

مسبوقة بالعدم؛ الإنســان ليس أزليًّا، وثانيًا: أنها ملحوقةٌ بالفناء؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦].

(السمع) سَمْع الله عَزَّوَجَلَّ فيه نَقْص؟ الجواب: لا، ليس فيه نَقْص، يسمع كلَّ شــيء، حتى إنَّ المرأة التي جاءتْ تشتكي إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والتي ذكر الله تعالى قصَّتها في سورة المجادلة، كانت تُحدِّث النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وعائشةُ في الحُجرة يخفى عليها بعضُ حديثها، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]؛ ولهذا قالت عائشة: «الحمد لله الذي وَسِع سمعُه الأصواتَ، إنَّ المرأة المجادِلة لَتشتكي إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وإنَّه لَيَخفى عليَّ بعضُ حديثها». إذَنْ، معنى ﴿سَبِّحِ﴾ (ســبحان الله) معناها، أُنَزِّه الله عن كلِّ عيبٍ ونَقْص.

وقوله: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال بعض المفسِّرين: إنَّ قوله ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني مسمَّى ربِّك؛ لأنَّ التســبيح ليس للاسم، بل لله نفسه، ولكن الصحيح أنَّ معناها: سَــبِّحْ ربَّك ذاكرًا اسمه، يعني لا تُسَــبِّحه بالقلب فقط، بلْ سَبِّحه بالقلب واللسان، وذلك بذِكر اسمه تعالى، ويدلُّ لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعــة ٧٤]، يعني: سبِّح تسبيحًا مقرونًا بالاسم؛ وذلك لأنَّ تسبيح الله تعالى قد يكون بالقلب، بالعقيدة، وقد يكون باللسان، وقد يكون بهما جميعًا، والمقصود أن يُسبِّح بهما جميعًا بقَلْبه لافظًا بلسانه.

وقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ الربُّ معناه: الخالق المالك المدبِّر لجميع الأمور. فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، وهو المدبِّر لجميع الأمور»[1].

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأعلى.

وكل مخلوقات الله تُسبح الله ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤]، ويبين القرآن أن الجماد والطير يسبحن لله، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَ﴾ [الأنبياء:٧٩]. ولهذا كيف يغفل البشر عن التسبيح، وكل ما في الكون يسبح لله، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور:٤١]، والملائكة تسبِّح في السماء ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥]، والسحب تلتقي فيكون الرعد الذي يخبر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بتسبيحه ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣]، وحملة العرش يسبحون لله، ويستغفرون للمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٧]. جعلنا الله ممّن تستغفر لهم حملة العرش.

وذاك نبي الله زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حين خرج من محرابه أمر قومه بالتسبيح ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ [مريم:١١].

وَذِكْرُ أَهْلِ الجنةِ -جعلنا الله منهم- هو التسبيح، قال تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ﴾ [يونس:١٠].

وحين دعا نبي الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ربَّه أن يجعل أخاه هارون وزيرًا له يُعينه ويُساعده في حمل الرسالة وتبليغ الدعوة، علّل ذلك بالتسبيح والذكر، قال تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٢٩-٣٤].

وذَكَرَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن التسبيحَ أنجى نبيه أيوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فحين التقمه الحوت سبّح الله فنجا من الظلمات التي كان فيها، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ

﴿كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣، ١٤٤] إذ قال في تسبيحه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

كتبنا الله من عباده الذين يسبحونه كثيرًا، ويذكرونه كثيرًا.

عن جويرية بنت الحارث أمّ المؤمنين: أنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ مِن عِندِها بُكْرَةً حِينَ صَلّى الصُّبْحَ، وَهي في مَسْجِدِها، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحى، وَهي جالِسَةٌ، فَقالَ: ما زِلْتِ على الحالِ الَّتي فارَقْتُكِ عَلَيْها؟ قالَتْ: نَعَمْ، قالَ النبيُّ ﷺ: «**لَقَدْ قُلتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِماتٍ، ثَلاثَ مَرّاتٍ، لو وُزِنَتْ بما قُلْتِ مُنْذُ اليَومِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ؛ عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدادَ كَلِماتِهِ**»(١).

سبحان الله وبحمده؛ عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

وفي سورة أخرى يوجّهنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أن يشمل التسبيح كلّ أوقاتنا، قال تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآئِ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ﴾ [طه:١٣٠].

ففي هذه الآية استوعب التسبيح سائر اليوم؛ قبل الشروق، وقبل الغروب، وآناء الليل، وأول النهار، وآخره.

وفي خاتمة سورة الحجر قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٩٧، ٩٨].

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٩٠ رقم٢٧٢٦).

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ ما تذكرون من جـلالِ اللهِ التَّسـبيحَ والتَّهليلَ والتَّحميدَ، ينعطِفن حول العرشِ، لهنَّ دويٌّ كـدويِّ النَّحلِ، تذكِّرُ بصاحبِها، أما يحِـبُّ أحدُكم أن يكونَ له، أو لا يزالُ له، من يذكِّرُ به**»[1]. أي عند الله وحول العرش.

سبحانك أنت خالق كل شيء، ونحن لا شيء أمام عظمتك.

أرشـدت هذه الآية العظيمة إلى الدواء الذي يُستشـفى به من ضيق الصدر، والترياق الذي تسـتطبّ به النفوس. اللهم أسعد قلوبنا بذكرك، ورطّب ألسنتنا بذكرك، واجعل التسبيح نفسًا نتنفس به صباح مساء.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٥٢ رقم ٣٨٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩/ ١٣٨ رقم ٣٣٥٨).

التَّفكُّر

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٠-١٨].

في آيات هذا المجلس دعوةٌ من الله عَزَّوَجَلَّ للتفكر في نعمه التي منَّ بها على خلقه!

لقد كرّم اللهُ الإنسانَ، فنفخ فيه من روحه، وجعله خليفته في الأرض، يعمرها ويحيا فيها، ويموت، ومَنَحَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العقلَ، فتميَّزَ من سائر المخلوقات، فكانت له مَلَكَةَ الاختيار؛ يرى الخير فيعلم أنه خير، ويُبصر

الشرَّ فيعلم أنه شرٌّ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، إلّا أن كثيرًا من البشر طمروا عقولهم؛ فلا يتفكرون ولا يتأملون، كالأنعام أو أضل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وأكرم الله أُمَّةَ الإسلام بالقرآن، ونَبَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عددٍ من آياته الكريمة للتفكر، ونَدَبَ -جَلَّ في عُلاه- قُرَّاءَ القرآن بإعمال عقولهم بصيغٍ متعددة؛ فمرةً بـ(يتفكرون)، وثانيةً بـ(يتدبّرون)، وثالثةً بـ(يعقلون)، ورابعةً بـ(يَذَّكَرون) وبـ(يشكرون)، وأخرى بـ(يهتدون)! تعدّد التنبيه إلى تحريك العقل، وإعمال الفكر.

قال ابن قيم الجوزية في كتابه مفتاح دار السعادة: «لا شَيْء أَنْفَع للقلب من قِرَاءَة القرآن بالتدبُّر والتفكر، فَإِنَّهُ جَامعٌ لجَمِيع منَازِل السائرين، وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وَهُوَ الَّذِي يُورث الْمحبَّة والشوق، وَالْخَوْف والرجاء، والإنابة والتوكل، وَالرِّضَا والتفويض، وَالشُّكْر وَالصَّبْر، وَسَائِر الأحوال الَّتِي بهَا حَيَاة الْقلب وكماله، وَكَذَلِكَ يزْجر عَن جَمِيع الصِّفَات والأفعال المذمومة، وَالَّتِي بهَا فَسَاد الْقلب وهلاكه، فَلَو علم النَّاس مَا فِي قِرَاءَة القرآن، بالتدبُّر لاشتغلوا بهَا عَن كل مَا سواهَا، فَإِذا قَرَأَهُ بتفكر حَتَّى مرَّ بِآيَة وَهُوَ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فِي شِفَاء قلبه، كرّرها وَلَو مئة مرّة وَلَو لَيْلَة، فقراءةُ آيَة بَتَفكُّر وتَفهُّم خيرٌ من قِرَاءَة ختمة بِغَيْر تدبّر وتفهّم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حُصُول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وَهَذِه كَانَت عَادَة السّلف يردّد أحدهم الآيَة إلى الصَّباح، وَقد ثَبت عَن النَّبِي أنه قَامَ بِآيَةٍ يُرَدِّدهَا حَتَّى الصَّباح، وَهِي قَوْله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]. فقراءة القرآن بالتفكر هِيَ أصل صَلَاح الْقلب، وَلِهَذَا قَالَ ابْن مَسْعُود: لا تهذوا القرآن هَذَّ الشّعْر، وَلَا تنثروه نثر الدقل، وقفُوا عِنْد عجائبه، وحرّكوا بِهِ الْقُلُوب، لَا يكن هَمُّ أحدكم آخر السُّورَة.

وروى أبو أيوب عَن أبي جَمْرَة قَالَ قلت لِابْنِ عَبَّاس: إني سريع الْقِرَاءَة، إِنِّي أقرأ القرآن فِي ثَلَاث. قَالَ: «لَأن أَقْرَأ سُورَة من القرآن فِي لَيْلَة فأتدبّرها وأرتّلها أحب إليَّ من أن أَقْرَأ القرآن كَمَا تقْرَأ»[1].

هذا، وفي آيات هذا المجلس يعرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عددًا من نعمه، ويدعونا للتّفَكُر، وتحريك العقل؛ إذ تتناول هذه الآيات واقعًا حسيًّا نراه، ونغفل عن التفكر فيه. إن خاتمة كل آيةٍ من هذه الآيات تحضُّ على الوقوف والتفكير. قِفْ عند كل آية واسمع بقلبك دعوة الله لك؛ بأن تُحرّك قلبك، وتَسيحَ مع عقلك، وَتتدبّر النِّعمَ التي أوجدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وسخرها للإنسان؛ فمن تلك النعم، نعمة الماء؛ به نحيا ونعيش ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] نشربُ منه، وتشرب منه حيواناتنا، وتنمو به أشجارنا، وتنبتُ به مراعينا، وتَسِيمُ فيه أنعامنا، وبه يتواجد قُوُتُنا، وتقومُ حياتنا. وتمضي الآياتُ في ذكر نعم الله على الإنسان؛ ليعيش حياته الدنيوية التي أرادها الحقُّ سبحانه، فَتَذْكُرُ هذه الآيات؛ تعاقبَ الليل والنهار، وحركة الشمس والقمر، وثبات الجبال الرواسي، وجريان الأنهار، وما تُدركه أبصارنا من أفلاك، وما لا تُدركه، نِعَمٌ يَغْفُلُ الكثيرُ من الناس عن تأمُّلِها، وشُكرِ الله عليها، وتمضي حياتهم في الدنيا كالبهائم

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: ابن قيم الجوزية، (١/ ١٨٧).

السارحة لا تعي ولا تعقل، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

مَن الذي أوجد الماء وخلقه؟ قفْ مُتفكرًا فيه مُتأملًا، هل تستطيع الاستغناء عنه ولو يومًا واحدًا؟!

إن القرآن الآن بين يديك وأنت في رخاء، يأمرك بالتفكر في هذه النعم، وشكر الله أن يَسَّرَها وسَخَّرَها لك، واعلم أنه ستأتيك ساعاتُ شدّةٍ من لحظة فراق الروح والانتقال لعالم الآخرة!

فكيف تترك ما أمرك الله بتأمله وتدبّره، سيأتي يومٌ عصيبٌ تتمنى لو تعلّقت بالقرآن، بأوامره ونواهيه، وجعلته منهجك في الحياة، ورفيقك في السراء والضراء، لو فعلت صَحِبَكَ إلى قبرك، وكان معك في آخرتك، هو ماء الطمأنينة في الحياة الدنيا، وهو نور الحياة في الآخرة.

وتتوالى آيات التذكير بالتدبُّر والتأمل ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢].

هذه النفوس النائمة إذا سرحت أرواحها، مَنْ يقدر على إعادتها للأجسام! إنه الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قِفْ وفكِّر وتأمل واصحَب آخر يُغالبه النُّعاس، وانظر كيف نام وابْتَعَدَت عنه روحُه، حتمًا لن ترى إلا صاحبَكَ وقد تَخَدَّرَ ونام، واجلِس وانتظر وانظر كيف يستيقظ وتعود له روحهُ، لن ترى سوى صاحبَكَ وقد تحرك! وربما لا تعود له روحه، يُمسكها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا تعود، هل تستطيع أن تجعله يتحرك! إنك وكُل مَنْ في

الأرض أعجزُ من أن تتمكنوا من جعله يتحرك! مشـــهدٌ حسّيٌّ نراهُ أمامنا يتكرر، لكن لا نفكر فيه ولا نعتبر. إن هذه الآية الكريمة تلفتنا لهذا الواقع المتكرر فهل تتحرك عقولنا؟ ربَّاه نسألك تنوير بصائرنا.

ممـــا قالـــه الشـــيخ الشـــعراوي عنـــد تفســـيره لقوله تعالـــى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:١١] قوله: «أي: على الإنســـان أنْ يُعمِلَ فكره في مُعْطيات الكون، ثم يبحث عن موقفه من تلك المـُعْطيات، ويُحدِّد وَضْعه؛ ليجد نفســـه غير فاعل، وهو قابل لأنْ يفعَل. وشاء الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُذكِّرنا أن التفكُّر ليس مهمةَ إنســـانٍ واحد، بل مهمة الجميع، وكأن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريدُ لنا أنْ تتســـانَد أفكارنـــا؛ فَمْن عنده لَقْطة فكرية تـــؤدي إلى الله لا بُدَّ أنْ يقولها لغيره. ونجد في القرآن آيات تنتهي بالتذكُّر والتفكُّـــر، وبالتدبُّر، وبالتفقُّه، وكُلٌّ منها تـــؤدي إلى العلم اليقيني؛ فحين يقول ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾، فالمعنى أنه ســـبق الإلمام بها، ولكن النســـيان محاها، فكأن مِنْ مهمتك أنْ تتذكَّـــر. أما كلمة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ فهي أُمّ كل تلك المعاني؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين؛ أنْ تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها، ومُعْطيات أدبارها؛ ولذلك يقول الحقُّ سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النســـاء:٨٢]، وهذا يعني ألَّا تأخذ الواجهة فقط، بل عليك أنْ تنظرَ إلـــى المعطيات الخلفية كي تفهم، وحين تفهم تكون قد عرفتَ، فالمهمة مُكوَّنة من أربع مراحل؛ تفكُّر، فتدبّر، فتفقُّه، فمعرفة وعِلْم»[1]. انتهى قول الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال ابن عاشور في تفسيره: «التفكّر عبادةٌ عظيمة. روى ابن القاسم

(١) تفسير الشعراوي (١٣/ ٧٨٣٢- ٧٨٣٣).

عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامع العتبية قال: قيل لأمّ الدرداء: ما كان شأن أبي الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه التفكّر، قيل له: أترى التفكّر عَمَلًا من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين»[1].

وورد في تفسير ابن كثير: «ذمَّ الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٥، ١٠٦]، ومَدَحَ عباده المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١]»[2].

إن التفكر وإعمال العقل نعمةٌ يفوز بها المحظوظون، وخيرٌ يناله ذوو الرأي والبصيرة، ذاكم الصحابي الجليل الطفيل بن عمرو الدوسي قال: «قدِمت مكة، فما إن رآني سادة قريش؛ حتى أقبلوا عليَّ فرحّبوا بي أكرم ترحيب، وأنزلوني فيهم أعزّ منزل، ثم اجتمع إلي سادتهم وكبراؤهم وقالوا: يا طفيل، إنك قد قدِمت بلادنا، وهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي قد أفسد أمرنا، ومزّق شملنا، وشتّت جماعتنا، ونحن إنما نخشى أن يحلّ بك وبزعامتك في قومك ما حلّ بنا، فلا تُكلِّم الرجل، ولا تَسْمَعَنَّ منه شيئًا؛ فإن له قولًا كالسحر: يفرّق بين الولد وأبيه، وبين الأخ وأخيه، وبين الزوجة وزوجها.

قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي يَقُصُّون عليّ من غرائب أخباره،

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٣/ ٣٠٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (٢/ ١٨).

ويخوّفونني على نفسي وقومي بعجائب أفعاله، حتى أجمعتُ أمري على ألّا أقترب منه، وألّا أكلّمه أو أسمع منه شيئًا.

ولما غدوت إلى المسجد للطواف بالكعبة، والتبرّك بأصنامها التي كنّا إليها نَحُج، وإياها نُعظّم، حشوتُ في أُذني قُطنًا؛ خوفًا من أن يلامس سمعي شيءٌ من قول محمد، لكني ما إن دخلت المسجد حتى وجدته قائمًا يصلي عند الكعبة صلاة غير صلاتنا، ويتعبد عبادة غير عبادتنا، فأسرني منظره، وهزتني عبادته، ووجدت نفسي أدنو منه شيئًا فشيئًا على غير قصد منّي حتى أصبحت قريبًا منه. وأبى اللهُ إلا أن يصل إلى سمعي بعضٌ مما يقول، فسمعت كلامًا حسنًا، وقلت في نفسي: ثكلتك أمك يا طفيل. . إنك لرجل لبيب شاعر، وما يخفي عليك الحسن من القبيح، فما يمنعك أن تسمع من الرجل ما يقول. فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته.

لقد أعمل الطفيل عقلَه، وحَرَّك تفكيرَه، ففَكَّرَ وتدبّر، ولم يكن بغلًا لا عقل له، ولا كبشًا منزوع الإرادة، ولا جحشًا يأكل كما تأكل الدواب، يسرح ولا يعقل، كان رجلًا لبيبًا، يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثم مكثت حتى انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيته، فتبعته حتى إذا دخل داره دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي عنك كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفونني من أمرك حتى سددت أذني بقطن؛ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني شيئًا منه، فوجدته حسنًا. فاعرِض عليَّ أمرك. فعرض عليَّ أمره، وقرأ لي سورة الإخلاص والفلق، فوالله ما سمعت قولًا أحسن من قوله، ولا رأيت أمرًا أعدل من أمره. عند ذلك بسطت يدي له، وشهدت أن

لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ودخلت في الإسلام»[1].

سَــمِعَ الطفيلُ القرآن فاهتزَّ عقله، وتحرّك فِكــرُه، وعَلِمَ أنه كلام الله فأسلم، وطوبى له.

نسأل الله الهداية والتوفيق.



(١) صور من حياة الصحابة (١/ ٣٠-٣١).

التَّوبة

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

ربَّاه لك الحمدُ؛ أن شرَعْتَ التوبةَ، وكتبتَ على نفسك الرحمةَ، فأنت التواب الرحمن الرحيم. ربَّاه لك الشكر؛ أن أكرمت أبانا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وألهمته التوبة والانكسار لذاتك حين زلَّ وأكلَ من الشجرةِ المَنْهِيُ عنها، فلم يُعاند كإبليس، بل تاب واعترف بخطيئته، وترجّى ودعا، وقبِلْتَ -سبحانك- توبَتَهُ، فكانت التوبة منهج خير.

وعاند إبليس وتكبّر، ورفض السجود، وسألَهُ الحقُ عَزَّوَجَلَّ فما تاب واعتذر، غرَّته نفسه، فَضَلَّ وتَكَبَّرَ، ولم يتب أو يتراجع، فاستحق الطرد واللعن ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص:٧٥-٧٨].

اتضح المنهجان؛ طريق التوبة والانكسار، وطريق الكبرياء والتعالي وعاقبتهما!

إن التوبة صِدقٌ مع الله، وندمٌ على الخطيئة، وعَزْمٌ على ألَّا عودة. ويذكر التاريخُ نماذجَ ممن صدقوا في توبتهم للعظة والعبرة؛ ففي غزوة

تبوك، تسابق الصحابة للخروج مع رسول الله ﷺ، وتخلّفت مجموعة من الرجال؛ حتى صار التخلف أمارةً على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلّف وذَكَرُوه لرسول الله ﷺ قال: «دعوه، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه»[1]. فلم يتخلّف إلا من حبسهم العُذر، أو الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبًا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسًا. وهناك ثلاثة نفر تخلّفوا من غير عذر، وهم الذين ابتلاهم الله، ثم تاب عليهم!

وحين عاد رسول الله ﷺ، من تبوك بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فجاء المنافقون وهم بضعةٌ وثمانون رجلًا، واعتذروا بأنواع شتّى من الأعذار، وطفقوا يحلفون للرسول ﷺ، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكّل سرائرهم إلى الله.

أما الثلاثة الذين تخلّفوا وندموا وصدقوا في توبتهم؛ فهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أُميّة، فقد أمر رسول الله ﷺ الصحابة ألّا يُكلموهم، وجرت ضدّهم مقاطعة شديدة، وتغيَّر لهم الناس، حتى تنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم بما رحُبَت، وضاقت عليهم أنفسهم، وبلغت بهم الشدّة إلى أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة، أُمروا أن يعتزلوا نساءهم، حتى تمّت على مُقاطعتهم خمسون ليلة، ثم أنزل توبتهم، وخلّدها القرآن ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، (٧/ ١٠٩)، وأسد الغابة: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (٥/ ١٠١).

وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة:١١٧-١١٨]، وفرح المسلمون، وفرح الثلاثة واستبشروا وتصدقوا[١]

وعن توبة ماعز جاء حديث عن جابر بن عبدالله، أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمـّا رجَم ماعزَ بنَ مالكٍ قال: «**لقد رأَيْتُه يتخضخَضُ في أنهارِ الجنَّةِ**»[٢].

وهاتيك الغامدية دوّنت كُتُبُ السُّنة توبتها، فعن عمران بن الحصين عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لقد تابت توبةً لو قُسِّمَتْ بين سبعين من أهلِ المدينةِ لوسعَتْهم، وهل وجدَتْ توبةً أفضلَ من أن جادَتْ بنفسِها للهِ**»[٣]

إنها التوبة؛ نعمةٌ وعطاء من الله، فتنبّه أخي في الله؛ راجع نفسك، وتفقّد زلّاتك، وتُبْ إلى الله، واحذر تسويف الشيطان، فسيأتيك من بوابة التأجيل والتأويل. فالبدار، البدار، فكم من امرئٍ فاجأته المنون قبل التوبة والإنابة. نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه بقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة:٣٧]، قال عنها شيخ المفسرين الإمام الطبري: «والذي يدل عليه كتابُ الله، أن الكلمات التي تلقاهنّ آدمُ من ربّه، هنَّ الكلمات التي

(١) الرحيق المختوم (ص٤١٨).
(٢) صححه ابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٤٨ رقم٤٤٠١).
(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٢٤ رقم ١٦٩٦).

أخبر الله عنه أنــه قالها متنصِّلًا بقيلها إلى ربّــه، معترفًا بذنبه، وهو قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]»[(١)].

وقال الشــعراوي: «نزل آدم وحواء إلى الأرض ليمارسا مهمتهما في الكــون، وقبل أن يبدأا هذه المهمة، جعلهمــا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يمرّان بتجربة عملية بالنســبة لتطبيق المنهج، وبالنسبة لإغواء الشيطان، وحذّرهما بأن الشيطان عدوٌ لهما. كان لا بُدَّ بعد أن وقعت المعصية أن يُشَرِّعَ اللهُ تعالى التوبةَ رحمةً بعباده؛ ذلك أن تشــريع التوبة ليس رحمة بالعاصي وحده، ولكنه رحمة بالمجتمع كله. فالإنســان إذا عصــى وعرف أنه لا توبة له، وأنه محكوم عليه بالخلود في النار، يتمادى في إجرامه؛ لأنه ما دام لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة، فإنه يتمادى في المعصية؛ لأنه لا أمل في الغفران أو التوبة.

مَن الذي ســيعاني في هذه الحالة؟ إنه المجتمع الذي يعيش فيه ذلك العاصي، وسيكون المؤمنون أكثر الناس معاناة؛ لأنهم أهل خير وتسامح، ولأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمرهم بالعفو والصفح. واقرأ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وهناك آيات كثيرة فــي القرآن الكريم تحــثّ المؤمنين على العفو، ورســول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها: أوصاني**

(١) تفسير الطبري، ت: شاكر (١/ ٥٤٦).

بالإخلاص في السـرِّ وفي العلانية، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمّن ظلمني، وأعطي مَـنْ حرمني، وأصل مَنْ قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرًا».

فالتوبة لو لم تشـرع لعانى المجتمع كله، وخاصـة المؤمنين الذين أُمِـروا أن يُقابلوا العدوان بالصفح، والظلم بالعفو. ولذلك كان تشـريع التوبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رحمة بالناس كلهم، والله جَلَّ جَلَالُهُ شَرعَ التوبةَ أولًا، ثم بعد أن شرعها تاب العاصي، ثم بعد ذلك يقبل الله التوبة أو لا يقبلها، تبعًا لمشـيئته. واقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨].

آدم تلقّى من ربّه كلمات فتاب عليه، أتوجد خطيئة بعد توبة آدم وقبول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذه التوبة؟ إن بعض الناس يقول: إن آدم قد عصى وتاب الله عليه، وإبليس قد عصى فجعله الله خالدًا في النار. نقول: إنكم لم تفهموا ماذا فعل آدم؟ أكل من الشجرة المحرّمة، وعندما علم أنه أخطأ وعصى، لم يصرّ على المعصية، ولم يرد الأمر على الآمر، ولكنه قال: يا ربّ أمرُك ومنهجُك حقٌّ، ولكنني لم أقدر على نفسي فسامحني.

اعترف آدم بذنبه، واعترف بضعفه، واعترف بأن المنهج حقٌّ، وطلب التوبـة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكن إبليس ردّ الأمر على الآمر. قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦].

وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢، ٨٣]، وقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢].

فإبليس هنا ردّ الأمر على الآمر، لم يعترف بذنبه، ويقول يا ربّ غلبني ضعفي، وأنت الحق وقولك الحق، ولكنه ردّ الأمر على الله تعالى، وعاند، وقال: سأفعل كذا، وسأفعل كذا، وهذا كفر بالله.

إياك أن ترد الأمر على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإذا كنت لا تصلي، لا تقل وما فائدة الصلاة، وإذا لم تكن تزكي، فلا تقل تشريع الزكاة ظلم للقادرين، وإذا كنت لا تطبق شرع الله، فلا تقل إن هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث، فإنك بذلك تكون قد كفرت، والعياذ بالله، ولكن قل يا ربّي إن فرض الصلاة حقٌّ، وفرض الزكاة حقٌّ، وتطبيق الشريعة حقٌّ، ولكنني لا أقدر على نفسي، فارحم ضعفي يا ربّ العالمين. إن فعلت ذلك، تكن عاصيًا فقط.

إن الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس، أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه، ولكن إبليس ردّ الأمر على الآمر. فيكون آدم قد عصى، وإبليس قد كفر والعياذ بالله.

ويقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٣٧].

هذه الكلمات التي تلقاها آدم أراد العلماء أن يحصروها؛ ما هذه الكلمات؟ هل هي قول آدم كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

هذه الآية الكريمة دلتنا على أن ذنب آدم لم يكن من ذنوب الاستكبار، ولكن من ذنوب الغفلة. بينما كان ذنب إبليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله، ولكن آدم عندما عصى حدث منه انكسار.

فقال: يا ربي أَمْرُكَ بأَلَّا أقرب الشجرة حقٌّ، ولكني لم أقدر على نفسي. فآدم أقرّ بحق الله في التشريع. بينما إبليس اعترض على هذا الأمر وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١].

الكلمات التي تلقاها آدم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد تكون آية: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، وقد تكون: اللهمَّ لا إله إلا أنت سبحانك ربي وبحمدك، إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، فاغفر لي يا خير الغافرين. أو اقبل توبتي يا خير التوابين. أو قال: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله. المهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد أوحى لآدم بكلمات يتقرب بها إليه، سواء كانت هذه الآية الكريمة أو كلمات أخرى.

لو نظرنا إلى تعليم الله آدم لكلمات ليتوب عليه، لوجدنا مبدءًا مهمًّا في حياة المجتمع؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قلنا: لو لم يشرع التوبة، ولو لم يبشرنا بأنه سيقبلها، لكان الذي يذنب ذنبًا واحدًا لا يرجع عن المعصية أبدًا، وكان العالم كله سيعاني.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقنا مختارين، ولم يخلقنا مقهورين. القهر يثبت صفة القدرة لله، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد منا أن نأتي عن حبٍّ، وليس عن قهر، ولذلك خلقنا مختارين، وجعل لنا طاقة تستطيع أن تعصي وأن تطيع. وما دام هناك اختيار، فالإنسان يختار هذه أو تلك.

إن الله لم يخلق بشرًا يختارون الخير على طول الخطِّ، وبشرًا يختارون الشر في كل وقت؛ فهناك من الخيّرين مَنْ يقع في الشر مرة، وهناك من

الشريرين مَنْ يعمل الخير مرة. فالعبد ليس مخلوقًا أن يختار خيرًا مطلقًا، أو أن يختار شـــرًّا مطلقًا. ولذلك فأحيانًا ننسى أو نسهو، أو نعصي. وما دام العبد معرضًا للخطيئة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شرع التوبة؛ حتى لا ييأس العبد من رحمة الله، ويتوب ليرجع إلى الله. وقد جاء في الحكمة: «رُبَّ معصيةٍ أورثت ذلًّا وانكسارًا خيرٌ من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا».

وهكذا عندما نزل آدم ليباشـــر مهمته في الحيـــاة، لم يكن يحمل أي خطيئة على كتفيه، فقد أخطأ، وعلّمه الله تعالى كلمات التوبة، فتاب فتقبل الله توبته.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]. كلمة توّاب تدل على أن الله تعالى لا يأخذ عباده بذنب واحد؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتى لو تاب عن ذنب واحد لكل عبدٍ من عباده كان توابًا. والمبالغة في الصفة تأتي من ناحيتين: أولًا إن الأمر يتكرر عدة مرات من عدد قليل من الأشخاص، أو من شخص واحد، أو أن الأمر يقع مرّة واحدة، ولكن من أشخاص كثيرين.

والحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تواب برحمته؛ لأن هناك مَنْ يعفو ويظل يمنُّ عليك بالعفـــو، حتى إن المعفوَّ عنه يقول: ليتُك عاقبتنـــي ولم تمنّ عليَّ بالعفو كل ساعة، ولكن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ توابٌ رحيم، يتوب على العبد، ويرحمه فيمحو عنه ذنوبه»[1].

رزقنا الله الإنابة والتوبة من كل خطيئة. آمين.

(١) تفسير الشعراوي (١/ ٢٧١-٢٧٦).

ثانيَ اثنين

قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

إنه رسول الله ﷺ لقي الأذى وصبر، ومنه نتعلم الصبر، وبه نقتدي في تحمل الأذى في سبيل الدعوة إلى الله وتبليغها للناس. ومن كان الله معه نصره وأعزّه! ومن كان الله معه فلا يحزن ولا يخاف! ومن كان الله معه اطمأن وتوكل وصبر! ومن كان الله معه وإن جاءه القلق والخوف فعاقبته العزّة والعلو!

ذاك رسول الله ﷺ حسده قومه، وناصبوه العداوة، وكادوا له. وهذه الآية الكريمة تبكيتٌ لقومه الكفار، فلئن لم تنصروه، فقد نصره الله. ونصرُ اللهِ عزّةٌ وقوة، ومنعةٌ وغلبة!

إن هذه الآية تحكي الثبات واليقين لدى رسول الله ﷺ، فأبو بكر يقلق ويخاف، ويتحدث إلى الرسول عليه السلام حين اقترب الباحثون عنهما،

كما ورد في الأحاديث الصحيحة؛ إذ وصل الكفار إلى غار ثور؛ حيث يختبئ فيه الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ والصديق، خطواتٌ يسيرة والكنز الذي ينشده الكفار أمامهم، ويخفق قلبُ أبي بكر؛ فرقًا فقد اقترب الشر منهم. يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا نبي الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما ظنُّك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟[1]

أي والله، لو جاءت الدنيا كلها بإنْسِها وجِنِّها لن يُفلحوا فالله معهما! ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ قالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر! وقالها نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه حين صاحوا وقد رأوا البحر أمامهم، وفرعون وجيشه العرمرم يلحق بهم، فكانوا؛ بين البحر وجيش الاستئصال والإبادة، بين القتل والغرق، اقترب فرعون وجنده وقلوبهم تتلمظ على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومنْ كان معه ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١]، وفي ثبات ويقين يرد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ لا خوفٌ ولا خطر. ويعرض القرآن الكريم تلك اللحظات وكأننا نرى المشهد اليوم بأعيننا: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٦١-٦٨]. إنهم أنبياء الله؛ يُجسّدُون التوكل واليقين، ويحكون الإيمان والثبات. وإنه الكفر؛ عداوةٌ، وتَعَدّي، وحقدٌ يدفع للقتل والإبادة.

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٨٥ رقم٣٦٥٣)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤ رقم٢٣٨١).

حين رأى كفار قريش وطُغاتها دين الله يعلو، ورسوله ﷺ يزداد تأثيرًا وقبولًا، اجتمعوا وتشاوروا في آلية وقف الدعوة إلى الله؛ أيسجنونه ويمنعوه من التواصل مع الآخرين حتى الموت فتخمد دعوته؟ أم ينفونه من مكة ويطرودنه ليهيم في الصحاري ويهلك؟ أم يحسموا الأمر ويقتلوه وينتهوا من رسالته؟ ويغلب رأي القتل، فهو الرأي الحاسم، ومن ثم اتفقوا سرًّا على الجريمة؛ جريمةٌ خطرة، جريمة مكرٍ وخبث، ولكن أنَّى لهم ذلك، فمن كان الله معه، نصره ووقاه!

كانت الخطة والتدبير انتداب مجموعة رجال من فروع قبائل قريش لهذه المهمة القذرة، لمهمّة الشر؛ فرتّبوا، وكادوا، ومكروا، والله خير الماكرين، حسبوا ألا أحد يسمعهم، ولا أحد يراهم، فكان التدبير أنه حين يخرج الرسول ﷺ من بيته؛ يهجم ممثلو قبائل قريش مرّة واحدة، يهجمون جميعهم عليه ﷺ، ويضربونه بسيوفهم ضربةً واحدة، فيضيع دمُه بين القبائل، ويجهل قومه القاتل، ويختفي من الوجود.

إنه كيدٌ بشري، ومكرٌ شيطاني، ولكن أنّى لهم ذلك، ينزل جبريل عليه السلام ويخبر خير البشر عليه السلام بخطّتهم، ويأمره بالخروج والهجرة، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠].

وحين كان المتآمرون محيطين ببيت المصطفى عليه السلام يخرج ويحثو فوق رؤسهم التراب، ويُعمي الله أبصارهم وقلوبهم، فلا يروه، ويمرُّ من عندهم بسلام.

إنه نصر الله وعزَّه، ويتّجه لأبي بكر، وقد تجهز للسفر، وأعدّ العدّة؛ إذ كان أبو بكر قد ناشد الرسول الصحبة في الهجرة، ووعده عَلَيْهِ السَّلَامُ وانتظر الإذن الربّاني، وجاءه الإذن. فحين مكر كفار قريش وتآمروا أذِن له الحق -سبحانه- وحماه، ونصره، وأبطل كيدهم ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٤٠].

يقول الشيخ ابن سعدي: «إلا تنصروا رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالله غنيٌّ عنكم، لا تضرّونه شيئًا، فقد نصرهُ في أقل ما يكون وأذلّهُ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من مكة لما همّوا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشدّ الحرص، فألجؤوه إلى أن يخرج.

﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: هو وأبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾؛ أي: لما هربا من مكة، لجأا إلى غار ثور في أسفل مكة، فمكثا فيه؛ ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقّة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ بعونه ونصره وتأييده. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾؛ أي: الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للفؤاد؛ ولهذا لما قلق صاحبه سَكَّنَهُ وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، ﴿وَأَيَّدَهُۥ

﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾، وهي الملائكة الكرام الذين جعلهُم اللّهُ حرسًا له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾؛ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حَرْدٍ قادرين، في ظنّهم على قتل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخذه، حنقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم اللّه، ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئًا منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع، فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا، وقصدوا، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم. والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه، أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله؛ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾؛ أي كلماته القدرية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١]، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]. فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة، والسلطان الناصر.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب، ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفـــي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكـــر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحبة الجميلة، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدّوا من أنكـــر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافرًا؛ لأنـــه منكر للقرآن الذي صرّح بها.

وفيها فضيلة الســـكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشـــدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفئدة، وأنها تكون على حســـب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

وفيهـــا: أن الحزن قد يعـــرض لخواص عبـــاد الله الصدّيقين، مع أن الأولى -إذا نزل بالعبد- أن يســـعى في ذهابه عنه، فإنه مضعفٌ للقلب، موهنٌ للعزيمة»[1].

إن آية هذا المجلس، وإن كانت خاصةً برســـول الله ﷺ، ونصر الله له حين أخرجـــه الذين كفروا ومكروا به، فإنها درسٌ في الصبر والثقة في الله واللجـــوء إليه؛ فمن كان الله معه نصرَهُ وأعـــزَّهُ، ومن كان الله معه فلا يخاف ولا يحزن؛ فمع الله الأمن والأمان، ومع الله السكينة والهداية، ومع الله التأييد والرفعة.

ثبَّتَنا اللهُ بالقول الثابت، ورزقنا اليقين وقوة الإيمان.

(١) تفسير السعدي (ص٣٣٧).

حاضرةُ البحر

قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٣].

كم نقرأ هذه الآية ولا نسأل عن تلك القرية وما قصتها! لقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يتدبّرون القرآن، ويتوقّفون عند كل آية مُتفكّرين مُتسائلين باحثين مُستنبطين، عن ابن مسعود قال: «كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آياتٍ لم يُجاوزهُنّ حتى يعرف معانيهنّ، والعمل بهن»[1]. وعن مسلم عن مسروق قال: قال عبدالله: «والذي لا إله غيره، ما نزلت آيةٌ في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحدٍ أعلم بكتاب الله منّي تناله المطايا لأتيته»[2].

إن هذه الآية أبكت حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. روى

(١) تفسير الطبري، ت: شاكر (١/ ٨٠)، وتخريج مشكل الآثار (٤/ ٨٣)، وسير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري (١٢/ ٤٤٥ رقم٥٠٠٢)، ومسلم (٤/ ١٩١٣ رقم٢٤٦٣) بلفظ: «والَّذِي لا إِلَهَ غَيْرُهُ ما مِن كِتابِ اللهِ سُورَةٌ إلّا أنا أعْلَمُ حَيْثُ نَزَلَتْ، وَما مِن آيَةٍ إلّا أنا أعْلَمُ فِيما أُنْزِلَتْ، ولو أعْلَمُ أحَدًا هو أعْلَمُ بكِتابِ اللهِ مِنِّي، تَبْلُغُهُ الإبِلُ، لَرَكِبْتُ إلَيْهِ». وعبدالله هو: عبدالله بن مسعود راوي الحديث.

الحاكم في المستدرك على الصحيحين عن عكرمة قال: دخَلتُ على ابنِ عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وهو يقرأُ في المصحَفِ قبلَ أن يذهَب بَصرُهُ وهوَ يَبكي.

فقُلتُ: ما يُبكيكَ يا ابنَ عبّاسٍ جَعلَني اللهُ فِداكَ؟

قال: فقالَ: هَلْ تعرِفُ أيلةَ؟

قُلتُ: وما أَيلةُ؟

قال: قَريةٌ كانَ بها ناسٌ مِنَ اليهودِ، فحَرَّمَ اللهُ عليهِمُ الحيتانِ يومَ السَّبتِ، فكانَت حيتانُهم تأتيهِم يومَ سبتِهِم شُرَّعًا بيضاءُ سمانٌ كأمثالِ المخاضِ بأفنائهم وأبنيائِهِم، فإذا كانَ في غيرِ يومِ السَّبتِ لم يجِدوها، ولم يُدركوها إلّا في مشقَّةٍ ومؤونَةٍ شديدةٍ.

فقالَ بعضُهم لبعضٍ أو مَن قال ذلكَ منهُم: لعلَّنا لو أخذناها يومَ السَّبتِ وأكلناها في غيرِ يومِ السَّبتِ، ففعل ذلك أهلُ بيتٍ منهُم، فأخَذوا فشَووا فوجَد جيرانُهم ريحَ الشَّوي. فقالوا: واللهِ ما نَرى أصابَ بني فلانٍ شيءٌ فأخذَها آخرونَ حتّى فشا ذلك فيهِم وكثُرَ فافترقوا ثَلاثًا.

فرقةٌ أكَلَت، وفرقةٌ نهَت، وفرقَةٌ قالَت: لم تِعِظونَ قومًا اللهُ مهلِكُهم أو معذِّبُهُم عذابًا شَديدًا. فقالت الفِرقةُ التي نهَت: إنما نحذِّرُكُم غضبَ اللهِ وعقابَهُ أن يصيبَكُمْ بخسفٍ، أو قَذفٍ، أو ببَعضِ ما عندَهُ من العذابِ. واللهِ لا نبايِتِكُم في مكانٍ أنتُم فيه. وخَرجوا من السَّورِ، فغَدوا علَيه من الغَدِ، فضَربوا بابَ السَّورِ، فلم يُجِبهم أحَدٌ، فأتَوا بسبَبٍ فأسنَدَوه إلى السَّورِ، ثمَّ رَقِيَ منهُم راقٍ على السُّورِ.

فقالَ: يا عبادَ اللهِ قردةٌ واللهِ لها أذنابٌ تُعاوي ثلاثَ مرّاتٍ، ثم نزلَ

من السُّـــورِ ففتحَ السُّـــورَ فدخل النّاسُ عليهِم، فعرفَت القرَدةُ أنسابَها من الإنسِ، ولم يعرِفِ الإنسُ أنسابَهم مِن القرَدةِ.

قـــال: فيأتي القِردُ إلى نَســـيبِهِ وقريبِهِ من الإنـــس فيحتَكُّ به ويلصَقُ، ويقولُ الإنسانُ: أنتَ فلانٌ؟ فيُشيرُ برأسِـــهِ أي نعَم ويبكي، وتأتي القِرْدَةُ إلى نســـيبِها وقريبِها من الإنسِ، فيقولُ لها: أنتِ فلانةٌ فتُشيرُ برأسِها؛ أي نعَم وتَبكي، فيقـــولُ لهُم الإنسُ: أما إنّا حذَّرناكُـــم غضَبَ اللهِ وعقابَهُ أن يصيبَكُم بخسفٍ أو مسخٍ أو ببعضِ ما عِندهُ من العذابِ.

قال ابنُ عبّاسٍ: فاســـمَع اللهَ يقولُ: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[الأعراف:١٦٥]. فلا أدري ما فعَلَت الفرقَةُ الثالثةُ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾[الأعراف:١٦٤، ١٦٦].

قال ابنُ عبّاسٍ: فكَم قد رأينا مِن منكَرٍ فلم ننهَ عنهُ.

قال عكرمـــةُ: فقلتُ ما تَرى جعَلني اللهُ فِداكَ، إنَّهُم قد أنكَروا وكرِهوا حينَ قالوا: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذابًا شَدِيدًا، فأعجَبهُ قَولي ذلك، وأمرَ لي بِبُردَينِ غليظَينِ فكسانيهِما»[1].

(١) تفسير الإمام الشافعي: أبو عبدالله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع المطلبي القرشي المكي، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراه)، (٢/ ٨٥٩)، وأورده الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٢٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٩٢ رقم ٢٠٦٩٠).

تلك أُمّة القرآن اتخذوه حياتهم ومعهم كل حين؛ يستنبطون أحكامه، ويسألون ويعرفون سبب نزول آياته، عملوا بأوامره، وكفّوا عن زواجره، قــرأوا قصصه فاتعظوا، وتلوا مواعظه فخافــوا، أين نحن منهم! ربّاه نوّر بصائرنا، واهدنا سُبل الرشاد!

إن هذه الآية تعرض حالة جماعة من اليهود عاشــوا في مكانٍ وزمانٍ واحد، وابتلاهم الله بصيدٍ بحري يتوافد عليهم في يوم السبت الذي حرّم الله الصيد فيــه؛ ابتلاءً وامتحانًا لهم، فكانوا ثلاث فــرق؛ عُصاةٌ عُوقبوا، ونُهاةٌ نجوا، وصامتون مسكوتٌ عنهم. وقد بكى ابن عباس عن منكر رآه في زمانه ولم ينه عنه، خشي العقوبة!

فيا ترى لو رأى ابن عباس حال المسلمين اليوم في كثير من الدول!

اليوم يُمارس العُصاة عصيانهم، ويغضبون من الواعظين، ويتطاولون على الناهين؛ يمقتونهم، ويسخرون منهم. وصار للعصاة شأنٌ فما يجرؤ الناهون على القول. نسأل الله السلامة والنجاة من عقابه، ربَّنا لا تُؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

إن ما ورد في القرآن والسنة النبوية من تحذيرٍ وزجرٍ ليس مخصوصًا بزمــانٍ ومكانٍ مُحدَّدَيْــن، ولكنها أحكامٌ عامةٌ باقيــةٌ خالدةٌ إلى أن تقوم الســاعة؛ ولهذا فإن ما يقع اليوم من أوبئةٍ، وقحطٍ، وبغيٍ، وتسلّطٍ، أشار إليهــا ديننا الطاهر الكامل، فعن عبدالله بن عمر قال: «أقبلَ علينا رَســولُ اللهِ ﷺ، فقالَ: «يا معشرَ المُهاجِرينَ، خمسٌ إذا ابتُليتُمْ بِهِنَّ، وأعوذُ باللهِ أن تدرِكوهنَّ؛ لم تَظهَرِ الفاحشــةُ في قومٍ قطُّ حتّى يُعلِنوا بِها، إلّا فَشا

فيهمُ الطّاعونُ والأوجاعُ الَّتي لم تَكُن مَضت في أسلافِهِمُ الَّذينَ مَضوا، ولم ينقُصوا المِكْيالَ والميزانَ إلّا أُخِذوا بالسِّنينَ، وشدَّةِ المؤونَةِ، وجَورِ السُّلطانِ عليهِم، ولم يمنَعوا زَكاةَ أموالِهِم إلّا مُنِعوا القَطرَ منَ السَّماءِ، ولَولا البَهائمُ لم يُمطَروا، ولم يَنقُضوا عَهْدَ اللهِ وعَهْدَ رسولِهِ إلّا سلَّطَ اللهُ عليهم عدوًّا من غيرِهِم، فأخَذوا بعضَ ما في أيدَيهِ، وما لَم تَحكُم أئمَّتُهُم بِكِتابِ اللهِ ويتخيَّروا مِمّا أنزلَ اللهُ إلّا جعلَ اللهُ بأسَهُم بينَهُم»[1].

جعلنا الله ممن يخشاه ويخافه، وهدانا لنور القرآن وسنّة رسول الله ﷺ وأحكامهما القاطعة الباهرة، وجمع لنا خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة، ربَّنا لا تُؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا، ربَّنا كُفّ عنا أذى منْ زُيّن لهم سوء أعمالهم، ربّنا واجعل كيدهم تدميرًا لهم إنك سميعٌ مُجيب.

هذا ومثلما كان الابتلاء بصيد البحر لليهود فتحايلوا، جاء الابتلاء بصيد البَرَّ للمسلمين للصحابة رضي الله عنهم فما تحايلوا، بل أطاعوا وعظّموا محارم الله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٩٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ [المائدة:٩٤، ٩٥].

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٢ رقم٤٠١٩)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٢١٦ رقم١٠٦).

ومما قاله الشيخ ابن عُثيمين: «معنى (يَبْلُوَنَّكُم): يختبرَنَّكم.

﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ الذي تصطادونه وهو مُحَرَّم عليكم في حال الإحرام ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾؛ أي: تصيدونه باليد، وتصيدونه بالرماح، وهذا على اختلاف حال الصيد، فما كان زاحفًا صاروا ينالونه بأيديهم، وما كان طائرًا كانوا ينالونه برماحهم؛ لأن الطائر أعلى والطيران أسرع من الزحف، لكن مع ذلك يكون الطير نازلًا وهادئًا في طيرانه؛ لأن الذي يُمْسِكه عَزَّوَجَلَّ في جَوِّ السماء مَنْ هو؟ الله عَزَّوَجَلَّ، فهو قادر عَزَّوَجَلَّ على أن يُهْبِطه إلى قرب الأرض، وأن يجعل طيرانه هادئًا.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فمن اعتدى على محارم الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن بَيَّن الله له الحكم ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدنيا أو في الآخرة؛ إما في الدنيا، وإمّا في الآخرة.

ونختم هذا الدرس بما رواه علماء التفسير حول قصة حُكْم الخليفة عمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن عوف في الصيد.

عَنْ قَبِيصة بْنِ جَابِرٍ، قَالَ: خَرَجْنَا حُجَّاجًا، فَكُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا الْغَدَاةَ اقْتَدْنَا رَوَاحِلَنَا نَتَمَاشَى نَتَحَدَّثُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ ذَاتَ غَدَاةٍ إِذْ سَنَحَ لَنَا ظَبْيٌ -أَوْ: بَرِحَ- فَرَمَاهُ رَجُلٌ كَانَ مَعَنَا بِحَجَرٍ فَمَا أَخْطَأَ خُشَّاءه، فَرَكِبَ رَدْعه مَيِّتًا، قَالَ: فَعَظَّمْنا عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ خَرَجْتُ مَعَهُ حَتَّى أَتَيْنَا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ. قَالَ: وَإِلَى جَنْبِهِ رَجُلٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ قُلْب فِضَّةٍ -يَعْنِي عبدالرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ- فَالْتَفَتَ عُمَرُ إِلَى صَاحِبِهِ فَكَلَّمَهُ. قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ فَقَالَ: أَعَمْدًا قَتَلْتَهُ أَمْ خَطَأً؟ قَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ

تَعَمَّدْتُ رَمْيَهُ، وَمَا أَرَدْتُ قَتْلَهُ. فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ أَشْرَكْتَ بَيْنَ الْعَمْدِ وَالْخَطَأِ، اعْمَدْ إِلى شَاةٍ فَاذْبَحْهَا وَتَصَدَّقْ بِلَحْمِهَا وَاسْتَبْقِ إِهَابَهَا. قَالَ: فَقُمْنَا مِنْ عِنْدِهِ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: أَيُّهَا الرَّجُلُ، عَظِّم شَعَائِرَ اللهِ، فَمَا دَرَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا يُفْتِيكَ حَتَّى سَأَلَ صَاحِبَهُ: اعْمَدْ إِلى نَاقَتِكَ فَانْحَرْهَا، فَفَعَلَ ذَاكَ. قَالَ قَبِيصَةُ: وَلَا أَذْكُرُ الْآيَةَ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾. قَالَ: فَبَلَغَ عُمَرَ مَقَالَتِي، فَلَمْ يَفْجَأْنَا مِنْهُ إِلَّا وَمَعَهُ الدِّرَّةُ. قَالَ: فَعَلَا صَاحِبِي ضَرْبًا بِالدِّرَّةِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: أَقَتَلْتَ فِي الْحَرَمِ وسفَّهت الْحُكْمَ؟ قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ عليَّ فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَا أُحِلُّ لَكَ الْيَوْمَ شَيْئًا يحْرُم عَلَيْكَ مِنِّي، قَالَ: يَا قَبِيصَةَ بْنَ جَابِرٍ، إِنِّي أَرَاكَ شَابَّ السِّنِّ، فَسِيحَ الصَّدْرِ، بَيِّنَ اللِّسَانِ، وَإِنَّ الشَّابَّ يَكُونُ فِيهِ تِسْعَةُ أَخْلَاقٍ حَسَنَةٍ وَخُلُقٌ سَيِّئٌ، فَيُفْسِدُ الخلقُ السَّيِّئُ الأخلاقَ الْحَسَنَةَ، فَإِيَّاكَ وَعَثَرَاتِ الشَّبَابِ»[1].

وفي روايةٍ أُخرى، قال أحد السائلين لصاحبه: ما درى أميرُ المؤمنين ما يقول حتى سأل صاحبه. فسمعها عُمر، فرَدَّهُما فقال: هل تقرأان سورة المائدة؟ فقالا: لا! فقرأها عليهما ﴿يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ ثم قال: استعنتُ بصاحبي هذا.

(١) تفسير الطبري، ت: شاكر (١٠/ ٢٥)، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن إدريس ابن المنذر التميمي، (٤/ ١٢٠٦)، وتفسير ابن كثير، ت: سامي السلامة (٣/ ١٩٣).

خائنةُ الأَعيُن

قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ١٩ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر:١٩، ٢٠].

كلماتٌ مُوجزةٌ تتضمن علمًا شاملًا، وإحاطةً دائمة بكل إنسان، وتحذيرًا وتنبيهًا لكل البشر، فرقابة الله حاضرةٌ لجميع الخلق، واليوم في هذا العصر بات الناس يخشون من هواتفهم، فقد تَكُونُ مُتابَعةً ومرتبطةً بتسجيل من بُعد، ويحذّرون من أجهزة التنصّت، وكاميرات المراقبة التي هي من صُنع البشر، ويغفلون عن رقابة الله!

إن لمحة العين حين تكون في المعصية معلومةٌ عند الله. خيانةُ العيون لمهمتها مكشوفةٌ فورًا لله، محسوبةٌ عنده! لا إله إلّا الله جلّت قُدرته، وعظمت إرادته!

كم في الكرة الأرضية من عينٍ! ما أن تحيدَ عن طريق الحق والمنهج الذي ارتضاه الله لها، إلّا ولها تسجيلٌ وتدوين!

مليارات العيون البشرية، منذ أن أهبط الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وزوجَهُ للأرض، وإلى آخر مخلوق بشري، لمحة عين أحدهم معلومةٌ لله سبحانه!

نسأل الله اللطف والرضا!

وإذا كانت خيانة العيــون معلومةً لله، فكيف بخيانة القلوب والأيدي والأرجل والفروج. ربّاه نسألك العفو والمغفرة!

والصدور صناديق الأسرار البشرية، لا يستطيع أيّ كائن بشري معرفة مكنوناتها؛ فالســجناء يطول سجنُهم، ويتناوبُ المُــحقّقون، ويتعاقب المُــعذّبون؛ لكشف ما بداخل صدور الســجناء، فما يستطيعون! والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم -حالًا- بكل ما تنطوي عليه الصدور من أسرار، وما تُخفيه من خبايا!

ولهذا فالعجب العجاب أن يغفل المسلم المؤمن بكتاب الله عن هذه الرقابة الإلهيــة، فيتواني في أداء ما فرض الله عليه، واجتناب ما نهى عنه، تهتز أمانته، فيُطفّــف في عمله، ويُؤذي غيره! وينطوي صدره على الأذية والهوى. والعياذ بالله!

وقد تناول علماء التفســير هذه الآية، وتوقّفــوا عند معانيها متأملين، فمِما قاله الشــعراوي: «اعلموا أن عِلْمَ الله شــامل، ولا يخفى عليه شيءٌ مهمــا دَقَّ، فإنْ عَمَّيتم على خلق الله في الدنيا، واختلســتُم النظرات فيما لا يحل لكم، فاعلموا أنكم لا تخفَوْنَ على الله، ولو أيقن المؤمن بشمول علم الله وبنظره إليه، ما كانت له خائنة أعين.

لذلك رأينا القاضي وهو يحكم بين الناس، ويتحرَّى العدل في حكمه، وجد بحاسّــة الحق عنده أنَّ الشــهود يشــهدون زورًا، لكن ماذا يفعل، وهم متفقون في أقوالهم جميعًا، مهمــا حاورهم، وقلّب لهم المواقف؛

ليكشف زيفهم وباطلهم، وجدهم على لسان واحد؟ ذلك لأن المحامي مثلًا حفَّظَهُم الجواب، فماذا يفعل؟ غضبَ وانفعلَ للحقِّ الذي يحكم به، وقال كلمةً هزَّت الشهود جميعًا، وجعلتهم ينطقون بالحق قال لهم: والله لو عَمَّيتُم على قضاء الأرض، فلن تُعمُّوا على قضاء السماء. كلمة أنطقهُ اللهُ بها، فأعادتْ إليهم رشدهم، وهزَّتهم من الأعماق، فرجعوا إلى الحق.

وقوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] يعني: عَلِمَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مكنونات الصدور وخباياها، وهذه لا يعلمها إلا الله»[١].

ومما ذكره الرازي قوله: «الأفعال قسمان: أفعال الجوارح، وأفعال القلوب، أما أفعال الجوارح فأخفاها خائنة الأعين، والله أعلم بها، فكيف الحال في سائر الأعمال. وأما أفعال القلوب فهي معلومة لله تعالى لقوله: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾، فدل هذا على كونه تعالى عالمًا بجميع أفعالهم»[٢].

أما ابن عطية فمما قاله: «﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ متّصلٌ بقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر:١٧]؛ لأن سرعة حسابه تعالى للخلق، إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رويّة وفكرة، ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون.

وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات، فمن ذلك كسر الجفون والغمز بالعين، أو النظرة التي تفهم معنى، أو يريد بها صاحبها معنى، ثم قوى تعالى هذه الأخبار بأنه يعلم ما تخفي الصدور، مما لم يظهر على عينٍ ولا غيرها، ومثَّلَ المفسرون في هذه الآية بنظر رجل إلى

(١) تفسير الشعراوي (٢١/ ١٣٣٤٤).
(٢) مفاتيح الغيب، التفسير الكبير: أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن التيمي الرازي، فخر الدين (٢٧/ ٥٠٥).

امرأة هي حُرمة لغيره، فقالوا: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ هي النظرة الثانية. ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾؛ أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن المرء دفعها، وهذا المثال جزءٌ من ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾»[1].

وجاء في تفسير القرطبي، «قال ابن عباس: «هو الرجل يكون جالسًا مع القوم فتمرّ المرأة فيسارقهم النظر إليها». وعنه: «هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غَضَّ بصرَه، فإذا رأى منهم غفلةً تدسَّسَ بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غَضّ بصره، وقد علم الله عَزَّوَجَلَّ منه أنه يودّ لو نظر إلى عورتها».

وقال مجاهد: «هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه».

وقال قتادة: «هي الهَمْزة بعينه وإغماضه فيما لا يحب الله تعالى».

وقال الضحاك: «هي قول الإنسان ما رأيت وقد رأى، أو رأيت وما رأى».

وقال السدي: «إنها الرَّمْز بالعين».

وقال سفيان: «هي النظرة بعد النظرة».

وقال الفراء: «﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ النظرة الثانية، ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ النظرة الأولى».

وقال ابن عباس: «﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ أي هل يزني بها لو خلا بها أو لا».

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبدالحق بن غالب ابن عطية الأندلسي (٤/ ٥٥٣).

وقيل: «﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ تكنّه وتضمره». ولما جيء بعبدالله بن أبي سرح إلى رسول الله ﷺ، بعد ما اطمأن أهل مكة، وطلب له الأمان عثمان رضي الله عنه، صَمت رسولُ الله ﷺ طويلًا، ثم قال: «نعم». فلما انصرف قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه»، فقال رجل من الأنصار: فهلاَّ أومأتَ إليّ يا رسول الله، فقال: «إن النبي لا تكون له خائنة أعين»[1].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾؛ أي يجازي من غَضَّ بصرَه عن المحارم، ومن نظر إليها، ومن عزم على مواقعة الفواحش إذا قدر عليها. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأوثان ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر:٢٠]؛ لأنها لا تعلم شيئًا ولا تقدر عليه ولا تملك»[2].

وعبدالله بن أبي السرح الذي أشار إليه علماء التفسير عند شرحهم لهذه الآية، يلتقي مع نسب رسول الله ﷺ الشريف في «لؤي»، وهو أخٌ لعثمان بن عفان من الرضاعة، أسلم لأول مرة في مكة قبل صلح الحديبية، وهاجر إلى المدينة، وكان قد حسن الإسلام، وصار موضع ثقة الرسول ﷺ، فنال شرف أن يكون مع عدد من الصحابة الذين قاموا بكتابة الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، إلّا أن الشيطان نزغ في قلبه فارتد عن الإسلام، وهرب من المدينة ليلًا، ثم أهدر الرسول ﷺ دمه.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الصغرى (٧/ ١٠٥ رقم٤٠٦٧)، وفي سننه الكبرى (٢/ ٣٠٢ رقم٣٥٣٠)، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ١٠٠ رقم٧٥٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٢٢ رقم١٧٢٣).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/ ٣٠٣).

وعند فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة كان الرسول ﷺ قد أمَّن أهلَ مكة على دمائهم وأموالهم، إلا بعض نفر قد سماهم بالاسم، وأمر بقتلهم ولو تعلّقوا بأستار الكعبة؛ هم (عبد العزى بن خطل، وعكرمة بن أبي جهل، ومقيس بن صبابة، وعبدالله بن سعد بن أبي السرح، وسارة مولاة بني عبدالمطلب)؛ لكن عبدالله بن سعد بن أبي السرح أختبأ عند عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، فلما وجده عثمان قال له: «والله إني اخترتك، فاحتسبني ها هنا، فاذهب إلى محمد وكلّمه في أمري، فإني ذو جرم عظيم، والله إني جئت تائبًا، فقال له عثمان بن عفان رضي الله عنه: لا، فلتأتِ معي ولا يقتلك إن شاء الله، وانطلقا إلى رسول الله ﷺ، فدخلا عليه، وقال عثمان: يا رسول الله، إن أُمَّهُ كانت تحملني وتُمشيه، وتُرضعني وتَقطعه، وكانت تلاطفني وتتركه، فهبه لي. عثمان الخليفة الراشد الوفي، يفي لأم عبدالله، فهو يعلم أنها لو كانت على قيد الحياة لندبت عثمان لإجارة ابنها، ولهذا أسرع به وما تردد!

وما أن سمع الرسول عليه السلام مقالة عثمان إلّا وأعرض عنه بُرهة؛ أراد أن يقوم أيُّ رجل من الصحابة الحاضرين بقتله؛ لأنه لم يُؤمنه ويبايعه بعد، وأنكب عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه يقبل رأسه، وهو يقول: تُبايعه يا رسول الله، فداك أبي وأمي يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: نعم وبايعه.

وهكذا عاد عبدالله بن أبي السرح إلى الدين الإسلامي، والمجتمع الإسلامي، وكان يخجل من رسول الله ﷺ، ويغضّ الطرف حين يقابله. قال عنه شمس الدين الذهبي في (سير أعلام النبلاء): «لم يتعدَّ،

ولا فعل ما يُنقم عليه بعدها -أي بعد فتح مكة- وكان أحد عقلاء الرجال وأجوادهم»[1].

وبعد انتقال النبـــي ﷺ إلى جوار ربه بدأ عصر الفتوحات، وقد شارك فيها عبدالله بن أبي السرح، وولاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه علـــى صعيد مصر، ثم من بعده عثمان بن عفان رضي الله عنه عقد له ولاية مصر عام ٢٧هـ، وفي فتـــرة ولايته قامت فتوحات كبيرة وصعبة في بلاد النوبة وفي السودان، وأجرى عهودًا بينه وبين ملوك النوبة.

وروى البغوي بإسناد صحيح أن يزيد بن أبي حبيب قال: «خرج ابن أبي ســـرح إلى الرملة، فلما كان عند الصبح قال: اللهم اجعل آخر عملي الصبح، فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحـــه ي رحمه الله»[2]. أي إنه مات في الرملة ودفن هناك. ويخلط بعض الرواة بينه وبين رجل نصراني آخر، كان كاتبًا للوحي ثم ارتد عن الإسلام كان يقول: إنه غَيَّرَ ما كان يقوله رســـول الله من القرآن؛ فأهلكه الله، وكان عبرة ولم تقبله الأرض، فظل مرميًّا مثل جيفة الحيوان العفنة.

عن أنس بن مالك قال: « كانَ رَجُلٌ نَصْرانِيًّا فأسْـــلَمَ، وقَرَأَ البَقَرَةَ وآلَ عِمْرانَ، فَكانَ يَكْتُبُ للنبيِّ ﷺ، فَعادَ نَصْرانِيًّا، فَكانَ يقولُ: ما يَدْرِي مُحَمَّـــدٌ إلّا ما كَتَبْتُ له فأماتَـــهُ اللهُ فَدَفَنُوهُ، فأصْبَحَ وقـــدْ لَفَظَتْهُ الأرْضُ،

(١) سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: شعيب الأرناؤوط (٣/ ٣٤).

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (٤/ ٩٦).

فَقالــوا: هذا فِعْلُ مُحَمَّــدٍ وأَصْحابِهِ لَمّا هَرَبَ منهمْ، نَبَشُــوا عن صاحِبِنا فألْقَوْهُ، فَحَفَرُوا له فأعْمَقُوا، فأصْبَحَ وقدْ لَفَظَتْهُ الأرْضُ، فَقالوا: هذا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وأَصْحابِهِ، نَبَشُــوا عن صاحِبِنا لَمّا هَرَبَ منهمْ فألْقَوْهُ، فَحَفَرُوا له وأَعْمَقُوا له في الأرْضِ ما اسْتَطاعُوا، فأصْبَحَ وقدْ لَفَظَتْهُ الأرْضُ، فَعَلِمُوا: أنَّه ليسَ مِنَ النّاسِ، فألْقَوْهُ»[1].

نسألُ الله الثبات ونُور البصيرة.

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٤٧ رقم٣٦١٧).

خيرٌ وأبقى

قال سبحانه في سورة الأعلى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى:١٦-١٩].

وفي سورة الضحى ورد الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٣- ٤].

خيرٌ وأبقى، وخيرٌ من الأولى؛ يقرّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم أن هناك حياتين لبني آدم؛ دُنيا، وآخرة. ومعلومٌ أن جميع البشر يشعرون بحياتهم الدنيا منذ الطفولة، وكلما انطوت أعمارهم ازداد تعلّقهم بالدنيا وزينتها. عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا يَزالُ قَلْبُ الكَبِيرِ شابًّا في اثْنَتَيْنِ: في حُبِّ الدُّنْيا وطُولِ الأمَلِ»[1].

لقد استخلف الله عَزَّوَجَلَّ البشر في هذه الدنيا، منذ خلق أباهم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

(١) أخرجه البخاري (١٦/ ٢٢٤ رقم٦٤٢٠).

وزيَّنَ -سبحانه- لبني آدم حُبَّ الدنيا والتعلّقَ بها ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران:١٤].

تلك الزينة متاعُ الحياةِ الدنيا، وذاك الترغيب امتحانٌ واختبار، فمثلما زَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الدنيا، بيَّنَ عَزَّوَجَلَّ أن هناك حياة أخرى خيرٌ من الأولى، خيرٌ وأخلد!

وترك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للبشر حرية الاختيار؛ حرية المفاضلة بين الحياتين، يقول سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢].

هي الدنيا ابتلاءٌ واختبار؛ مَن آمنَ بالله ووحَّدَهُ وأخلصَ له العبادة، واتبّع منهجَ الله الذي جاءت به رُسُلُهُ فازَ ونجا، ومن خالف وعصى كانت له الهاوية ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة:٨-١١].

إن آيات هذا المجلس تُبَشرُ عبادَ الله المؤمنين بأن حياة الآخرة هي الحياة الأدوم، وهي حياة النعيم للطائعين، وهي حياة العذاب للعاصين!

إنها كلمتان في سورة الأعلى ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وكلمتان في سورة الضحى خُوطب بهما سيد البشرية لمّا حزن وتألم حين تأخر عليه نزول الوحي، فجاءه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهذه الكلمات النُورانية ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٣-٤]، فلا تحزن على دُنياك! هناك الخير الحقيقي، هناك النعيم الأبدي.

كلماتٌ تلمع إشراقًا وهدايةً! وتُضيء نورًا وتبصرة! رحم الله الشيخ الشعراوي؛ إذ يقول: «لا شكَّ أن الألفاظ التي ينطق بها الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لها إشعاعات، وفي طيّاتها معَانٍ يعلمها أهل النظر والبصيرة ممَّنْ فتح الله عليهم، وما أشبهها بفصوص الماس! والذي جعل الماس ثمينًا أن به في كل ذرّةٍ من ذرّاته تكسّراتٍ إشعاعية ليست في شيء غيره، فمن أيِّ ناحية نظرتَ إليه قابلك شعاعٌ معكوسٌ يعطي بريقًا ولمعانًا، يتلألأ من كل نواحيه، وكذلك ألفاظ القرآن الكريم»(١).

إن المتأمل المُتدبّر لهذه الكلمات الهادية ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى:٤]، لا يحزن على الدنيا ونعيمها، فهي حتمًا زائلة، وكلٌّ منّا راحلٌ، لقد رحل خير البشرية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبقي هذا القرآن الهادي، رزقنا الله تأمله وتدبره ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

كمْ رأيناهم يبكون على فراق أحبّتهم ويندبون موتاهم، وقد يكون ذاك الحبيب في نعيمٍ وسعادة. وقف رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذوي عبدالله بن حَرَام الأنصاري وهم يبكونه، وقد استشهد في معركة أُحد، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**ابكوه أو لا تبكُوه هو الآن تُظلّله الملائكة**»!(٢).

---

(١) تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم١٢٩٣)، برواية جابر، وبلفظ: سَمِعْتُ جَابِرَ بنَ عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قالَ: جِيءَ بأَبِي يَومَ أُحُدٍ قدْ مُثِّلَ به، حتَّى وُضِعَ بيْنَ يَدَيْ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدْ سُجِّيَ ثَوْبًا، =

وبات التاريخ يعرفه بظلّيل الملائكة. رزقنا الله رضاه ومغفرته!

هـي الدنيا يتقاتلون لأجلها، وتتقاطع الأرحـام لفُتاتها، ويتباغضون ويتحابّـون لحُطامها، وقد أكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الآخـرة خيرٌ منها، فهي زهرة سريعة الذبول! لقد شـبّه الله عَزَّوَجَلَّ الدنيا بالزهرة، ومهما أزهرت، وطاب ريحهـا، وحلا منظرها، فهي إلى زوالٍ عاجل ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١].

إنهـا الدنيا فتنة؛ كم غـرّت! وكم أغوت! نهى سـبحانه عن إيثارها وتفضيلها ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠-٢١]. وَرَدَ في تفسـير البغوي لقَوْلـهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ «قَالَ أَبُو رَافِعٍ: نَزَلَ بِرَسُـولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ضَيْـفٌ فَبَعَثَنِي إِلَى يَهُودِيٍّ، فَقَـالَ لِي: «قُلْ لَهُ إِنَّ رَسُـولَ اللهِ يَقُولُ لَكَ: بِعْنِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الدَّقِيقِ، وَأَسْـلِفْنِي إِلَى هِلَالِ رَجَبٍ»، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَبِيعُهُ وَلَا أُسْـلِفُهُ إِلَّا بِرْهَنٍ، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «وَاللهِ لَئِنْ بَاعَنِي وَأَسْـلَفَنِي لَقَضَيْتُهُ وَإِنِّي لَأَمِينٌ فِي السَّـمَاءِ وَأَمِينٌ فِي الْأَرْضِ، اذْهَبْ بِدِرْعِي الْحَدِيدِ إِلَيْهِ»، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لَا تَنْظُرْ، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ أَعْطَيْنَا، ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أَصْنَافًا، ﴿مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أَيْ زِينَتَهَـا وَبَهْجَتَهَا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أَيْ لِنَجْعَلَ ذَلِكَ

= فَذَهَبْـتُ أُرِيـدُ أَنْ أَكْشِـفَ عنْه، فَنَهَانِـي قَوْمِي، ثُمَّ ذَهَبْتُ أَكْشِـفُ عنْـه، فَنَهَانِي قَوْمِي، فأَمَرَ رَسـولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَرُفِـعَ، فَسَـمِعَ صَـوْتَ صَائِحَةٍ، فَقَـالَ: مَن هذِه؟ فَقالـوا: ابْنَةُ عَمْـرِو -أَوْ أُخْتُ عَمْرٍو- قَـالَ: فَلِـمَ تَبْكِـي؟ أَوْ لا تَبْكِي، فَمـا زَالَـتِ المَلَائِكَةُ تُظِلُّـهُ بأَجْنِحَتِهَـا حتَّى رُفِعَ». وفـي رواية أخرى للبخـاري (رقـم١٢٤٤): «سَـمِعْتُ جَابِـرَ بـنَ عبـدِاللهِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَـالَ: لَمَّـا قُتِـلَ أَبِـي جَعَلْـتُ أَكْشِـفُ الثَّـوْبَ عـن وجْهِهِ أَبْكِـي، ويَنْهَوْنِي عنْه، والنبـيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يَنْهانـي، فَجَعَلَتْ عَمَّتي فاطِمـةُ تَبْكِي، فَقَـالَ النبـيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: تَبْكِيـنَ أَوْ لا تَبْكِيـنَ ما زَالَتِ المَلائِكَـةُ تُظِلُّـهُ بأَجْنِحَتِهَا حتَّـى رَفَعْتُمُوهُ».

فِتْنَةً لَهُمْ بِأَنْ أُزِيدَ لَهُمُ النِّعْمَةَ فَيَزِيدُوا كُفْرًا وَطُغْيَانًا، ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ فِي الْمَعَادِ، يَعْنِي: الْجَنَّةَ، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: مَنْ لم يتعزّ بعزِّ اللهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ حَسَرَاتٍ، وَمَنْ يُتْبِعْ بَصَرَهُ فِيمَا فِي أَيْدِ النَّاسِ بَطَلَ حُزْنُهُ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَمَلْبَسِهِ، فَقَدْ قَلَّ عَمَلُهُ وَحَضَرَ عَذَابُهُ»[1].

وجاء في تفسير ابن الجوزي زاد المسير: «قالَ المُفَسِّرُونَ: زَهْرَةُ الدُّنْيا: بَهْجَتُها وغَضارَتُها، وما يَرُوقُ النّاظِرَ مِنها عِنْدَ رُؤْيَتِهِ، وهو مِن زَهْرَةِ النَّباتِ وحُسْنِهِ»[2].

هذا وقد تتابعت في القرآن آيات التحذير من الدنيا وزينتها؛ إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]. فزينة الدنيا ابتلاء وامتحان، احرص أن تكون من الفائزين لا الخاسرين!

وقال سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦]. الباقيات الصالحات. خيرٌ تسبقك للحياة السرمدية، تسبِقُك للحياة الخالدة!

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

---

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي (٥/ ٣٠٤).
(٢) زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، ت: عبدالرزاق المهدي (٣/ ١٨٣).

إنها الدنيا متاع الغرور، زينتها إغـــراءٌ وتحذير، والجاهل يغلبه هواه، وتجثو به شهوته، فينسى آخرته؛ الخير والأبقى ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنســان:٢٧]، ما هــي إلا ليالي وأيــام وكُلنا راحل وتارك كل شــيء ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعــام:٩٤]. والعاقل منْ يتنبّه ويُؤثــر آخرته على دنياه فيفوز، رزقنا الله فوْزَهُ ورضاه.

مما قاله الشــيخ ابن عثيمين في تفسيره قوله تعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]: «﴿بَلۡ﴾ هنا للإضراب الانتقالي؛ لأنَّ (بل) تأتي للإضراب الإبطالي، وتأتي للإضراب الانتقالي؛ أي إنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ انتقل ليبيِّن حالَ الإنســان أنَّه مُؤْثِرٌ للحياة الدنيا؛ لأنها عاجلة، والإنسان خُلِق من عَجَل، ويحبُّ ما فيه العجلة، فتجده يُؤْثِر الحياة الدنيا، وهي في الحقيقة على وصْفها دُنيا؛ دُنيا زمنًا، ودُنيا وصفًا؛ أمَّا كونُها دُنيا زمنًا فلأنها سابقةٌ على الآخرة، فهي متقدِّمةٌ عليها، والدُّنُوُّ بمعنى القُرب، وأمَّا كونُها دُنيا ناقصة، فكذلك هو الواقع، فإنَّ الدنيا مهما طالت بالإنسان فإنَّ أَمَدَها الفناء، فإنَّ منتهاها الفناء، ومهما ازدهرتْ للإنســان فإن عاقبتها الذبول؛ ولهذا لا يكاد يمرُّ بك يومٌ في سرورٍ إلا وعقبه حزن، وفي هذا يقول الشاعر:

فَــيَــوْمٌ عَــلَــيْــنَــا وَيَــــوْمٌ لَــنَــا
وَيَــــوْمٌ نُــسَــاءُ وَيَــــوْمٌ نُــسَــرّ

تأمَّــلْ حالَك في الدنيا تجدْ أنَّه لا يمرُّ بــك وقتٌ، ويكون الصفو فيه دائمًــا، بل لا بُدَّ من كَدَر، ولا يكون الســرور دائمًا، بــل لا بُدَّ من حزن، ولا تكون راحةٌ دائمًا، بل لا بُدَّ من تعب، فالدنيا على اسمها دُنيا.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ الآخرة خيرٌ من الدنيا وأبقى، خيرٌ؛ فيها من النعيم والسرور الدائم الذي لا يُنَغَّص بكَدَر؛ ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]، كذلك أيضًا هي أبقى من الدنيا؛ لأنَّ بقاء الدنيا قليلٌ زائلٌ مضمحِلٌّ، بخلاف بقاء الآخرة فإنَّه أبد الآبدين»[١].

وجاء في تفسير الشوكاني لآية الضحى ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قوله: «اللّامُ جَوابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ: أيِ الجَنَّةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الدُّنْيا، مَعَ أنَّهُ ﷺ قَدْ أُوتِيَ في الدُّنْيا مِن شَرَفِ النُّبُوَّةِ ما يَصْغُرُ عِنْدَهُ كُلُّ شَرَفٍ، ويَتَضاءَلُ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ كُلُّ مَكْرُمَةٍ في الدُّنْيا، ولَكِنَّها لَمّا كانَتِ الدُّنْيا بِأسْرِها مَشُوبَةً بِالأكْدارِ مُنَغَّصَةً بِالعَوارِضِ البَشَرِيَّةِ، وكانَتِ الحَياةُ فِيها كَأحْلامِ نائِمٍ أوْ كَظِلٍّ زائِلٍ، لَمْ تَكُنْ بِالنِّسْبَةِ إلى الآخِرَةِ شَيْئًا، ولَمّا كانَتْ طَرِيقًا إلى الآخِرَةِ وسَبَبًا لِنَيْلِ ما أعَدَّهُ اللهُ لِعِبادِهِ الصّالِحِينَ مِنَ الخَيْرِ العَظِيمِ بِما يَفْعَلُونَهُ فِيها مِنَ الأعْمالِ المُوجِبَةِ لِلْفَوْزِ بِالجَنَّةِ كانَ فِيها خَيْرٌ في الجُمْلَةِ مِن هَذِهِ الحَيْثِيَّةِ»[٢].

نسأل الله القناعة في الدنيا، والمزيد من عمل الآخرة الأبقى والأخلد، آمين!

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأعلى.
(٢) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني (٥/ ٥٥٧).

دينُ الحقِّ

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

وجاءت هذه الآية بهذا النص في سورة الصف أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف:٩]. وفي سورة الفتح وردت هذه الآية، ولكن ختامها جاء بسياقٍ مُغاير ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨].

صلى الله عليك وسلم يا رسول الله؛ أرسلك الله رحمةً للعالمين، واختارك لتكون صفوةً للمُرسلين! أرسلك بالهدى؛ تهدي التائهين، وترشد الحائرين. أنت نور الله وهدايته، وأنت قمر البشرية وتاجها. فضّلك الله وأظهرك.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضِّلْتُ على الأنْبياءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوامِعَ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغَنائِمُ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرْضُ طَهُورًا ومَسْجِدًا، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافَّةً، وخُتِمَ بيَ النَّبِيُّونَ**»[1].

(١) أخرجه مسلم (١/ ٣٧١ رقم٥٢٣)، وأخرج البخاري بعضه (٧/ ٥٠١ رقم٢٩٧٧).

فـي آيات هـذا المجلس يُؤكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه أرسـل رسـوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدى ودين الحق، فما عدا الإسـلام فليس بدين حق ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمـران:٨٥]. ويؤكد عَزَّوَجَلَّ أن ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سـيظهر ويبرز على كل الأديان التـي يزعم أصحابها أنها دين، فالإسـلام هو ديـن الله الحق، هو الدين الخالـد الباقي، هو الدين الكامل، فلا خـوف عليه؛ لا من كفار الأمس، ولا من كفار اليوم، فلنطمئن، ولا نخشـاهم، فالخشية هي من الله وحده ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣].

قال الإمام الشافعي: «أظهر الله -جلَّ ثناؤه- دينه الذي بعث به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأديان؛ بأن أبان لكل من سمعَه: أنه الحقُّ، وما خالفه من الأديان باطل.

وأظهره بأن جماع الشـرك دينان: دين أهـل الكتاب، ودين الأميين، فقهر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأُميين حتى دانوا بالإسلام طوْعًا وكَرْهًا، وقتل من أهل الكتاب وسبى، حتى دان بعضُهم بالإسلام، وأعطى بعضُ الجزيةَ صاغرين، وجرى عليهم حُكمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ظهور الدين كله.

قال الشـافعي: وقد يقالُ: ليُظهرن اللهُ دينه على الأديان حتى لا يُدانَ الله إلا به. وذلك متى شاء الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

إن ديـن الله الحق ظاهرٌ وغالب، وكيف لا تكـون له الغلبة والظهور

(١) أحكام القرآن، الإمام الشافعي، ت: عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ، (٢/ ٥٠).

وقد كمّلَهُ اللهُ ورضيه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

ومما قاله الشيخ الشعراوي عند تفسيره آية التوبة ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾: «والرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنما جاء بالقِيَم التي تهدي إلى الطريق المستقيم، جاء بالدين الحق. فكلمة «دين» أُخِذَتْ واستعملت أيضًا في الباطل، ألم يأمر الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ نبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَن يقول لكفار ومشركي مكة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦]، فهل كان لهم دين؟ نعم كان لهم ما يدينون به مما ابتكروه واخترعوه من المعتقدات، لكن (دِينِ الحقِّ) هو الذي جاء من السماء. ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]. ولنلحظ أن الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جاء بهذا القول ليؤكد أن الإسلام قد جاء ليظهر فوق أي ديانة فاسدة، ونحن نعلم أن هناك ديانات متعددة جاءت من الباطل، فسبحانه القائل: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٧١].

ونتوقف عند قول الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فلو أن الفساد كان في الكون من لونٍ واحد، كان يقال ليظهره على الدين الموجود الفاسد، ولكنَّ هناك أديانًا متعددة؛ منها البوذية، وعقائد المشركين، وديانات أهل الكتاب، والمجوس الذين يعبدون النار أو بعض أنواع من الحيوانات، وكذلك الصابئة. ولذلك؛ فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يريد أن يظهر دينه الذي هو دين الحق على دين واحد؛ من أديان الباطل الموجودة، ولكن يريد سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يظهره على هذه الأديان كلها، وأن يعليه، حتى يكون دين

الله واقفًا فوق ظَهْر هذه الأديان كلها، والشيء إذا جاء على الظَّهْر أصبح عاليًا ظاهرًا. والحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف:٩٧]؛ أي: أن يأتوا فوق ظهره. وكل الأديان هي في موقع أدنى بكثير من الدين الإسلامي. بعض الناس يتساءل: إذن كيف يكون هناك كفار ومجوس وبوذيون وصابئون وأصحاب أديان أخرى كاليهودية والنصرانية، فما زالت دياناتهم موجودة في الكون، وأتباعها كثيرون، نقول: لنفهم معنى كلمة الإعلاء، إن الإعلاء هو إعلاء براهين وسلامة تعاليم، بمعنى أن العالم المخالف للإسلام سيصدم بقضايا كونية واجتماعية، فلا يجد لها مخرجًا إلا باتباع ما أمر به الإسلام، ويأخذون تقنيناتهم من الإسلام، وهم في هذه الحالة لا يأخذون تعاليم الإسلام كدين، ولكنهم يأخذونها كضرورة اجتماعية لا تصلح الحياة دونها. وأنت كمسلم حين تتعصب لتعاليم دينك، فليس في هذا شهادة لك أنك آمنت، بل دفعك وجدانك وعمق بصيرتك لأنْ تؤمن بالدين الحق، ولكن الشهادة القوية تأتي حين يضطر الخصم الذي يكره الإسلام ويعانده إلى أن يأخذ قضية من قضايا الإسلام ليحل بها مشكلاته، هنا تكون الشهادة القوية التي تأتي من خصم دينك أو عدوك. ومعنى هذا أنه لم يجد في أي فكر آخر في الكون حلًّا لهذه القضية، فأخذها من الإسلام.

فإذا قلنا مثلًا: إن إيطاليا التي فيها الفاتيكان الذي يسيطر على العقائد المسيحية في العالم الغربي كله، وكانت الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان تحارب الطلاق وتهاجم الإسلام؛ لأنه يبيح الطلاق، ثم اضطرتهم المشكلات الهائلة التي واجهت المجتمع الإيطالي وغيره

من المجتمعات الأوروبية إلى أن يبيحوا الطلاق؛ لأنهم لم يجدوا حلًّا للمشكلات الاجتماعية الجسيمة إلا بذلك.

ولكن هل أباحوه لأن الإسلام أباحه، أم أباحوه لأن مشكلاتهم الاجتماعية لا تُحلُّ إلا بإباحة الطلاق؟ وساعة يأخذون حلًّا لقضية لهم من ديننا، ويطبقون الحل كتشريع، فهذه شهادة قوية؛ يتأكد لهم بها صحة دين الله، ويتأكد بها قول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣]. وبالله لو كان الإظهار غلبةً عقدية، بمعنى ألَّا يوجد على الأرض أديان أخرى، بل يوجد دين واحد هو الإسلام؛ لما قال الحق هنا: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨]، ولما قال في موضع آخر من القرآن: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وهذا يعني أن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعل من المعارضين للإسلام من يظهر الإسلام على غيره من الأديان لا ظهور اقتناع وإيمان، لا، بل يظلون على دينهم ولكن ظروفهم تضطرهم إلى أن يأخذوا حلولًا لقضاياهم الصعبة من الإسلام»[1].

وقال ابن سعدي في تفسيره آية الصفّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٩]: «ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامي، الحسّي والمعنوي، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة.

(١) تفسير الشعراوي (٨/ ٥٠٥٤-٥٠٥٦)

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: الديـــن الذي يُدان به، ويتعبّـــد لربِّ العالمين الذي هو حقٌّ وصدق، لا نقصٌ فيـــه، ولا خللٌ يعتريه، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح، وراحة الأبدان، وترك نواهيه ســـلامةٌ من الشـــر والفساد، فما بُعـــث به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهدى ودين الحـــق، أكبر دليلٍ وبرهانٍ على صدقه، وهو برهانٌ باقٍ ما بقـــي الدهر، كلما ازداد العاقل تفكرًا، ازداد به فرحًا وتبصرًّا.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان، فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب، أو يخاصمه مخاصمٌ إلا فلجه وبلســـه، وصار له الظهور والقهر، وأما المنتسبون إليه فإنهم إذا قاموا به، واســـتناروا بنوره، واهتدوا بهديه، فـــي مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتســـاب إليه، لم ينفعهـــم ذلك، وصار إهمالهم له ســـبب تسليط الأعداء عليهم، ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم»[1].

وقال الشـــيخ الشـــعراوي عند قوله تعالى في سورة الفتح ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِـــيدًا﴾: «يعني: شـــهادته كافية؛ لأن الشـــاهد حينما يشهد، يشهد بما رأى، ورؤيته محدودة، إنما حين يشـــهد الله فهي شـــهادة العلم المحيط إحاطة تامة ولا يوجد من يغيرها، لكن (شَهِيدًا) على ماذا؟ قالوا: على أن

(١) تفسير السعدي (ص٨٥٩).

الذي يتبع الهدى مصيره إلى الجنة، وهي دار النعيم الدائم الذي لا ينقطع، والنعمة التي لا تزول»[1].

هذا وفي الأحاديث الصحيحة تأكيد وقطع عن رسول الله ﷺ بغلبة دين الله الحق وظهوره.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: «بَيْنَما أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرُ فَشَكَا قَطْعَ السَّبِيلِ، فَقَالَ: **يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ؟** قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَدْ أُنْبِئْتُ عَنْهَا. قَالَ: **فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ** -قُلْتُ: فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّءٍ الَّذِينَ قَدْ سَعَّرُوا الْبِلاَدَ؟- **وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى.** قُلْتُ: كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ؟ قَالَ: **كِسْرَى بْنُ هُرْمُزَ. وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ. وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ.** قَالَ عَدِيٌّ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: **اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ.** قَالَ عَدِيٌّ: فَرَأَيْتُ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ إِلَّا اللهَ، وَكُنْتُ

(١) تفسير الشعراوي (٢٣/ ١٤٤١٦).

فِيمَنِ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْــرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَــتْ بِكُمْ حَيَاةٌ لَتَرَوُنَّ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»[1].

وجزم البيهقي أنه في زمان عمر بن عبدالعزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاروا يطلبون من يقبل المال فلا يجدونه. روى ذلك عن عمر بن أسيد بن عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب قال: «لما ولي عمر بن عبدالعزيز ثلاثين شــهرًا لا والله ما مات حتــى جعل الرجل يأتينــا بالمال العظيم، فيقــول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، نتذاكر من نضعه فيه، فلا نجده قد أغنى عمر الناس»[2].

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٢٥ رقم٣٥٩٥).

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد الشافعي القسطلاني، ت: محمد عبدالعزيز الخالدي، (٨/ ٨٩). وفتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (٧/ ٥١٢).

ذِكرُ الله

قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢].

حين تعيــش في رحاب القرآن ترى العظمة، وتجدُ الطُّمأنينة، وتنتقل للدرجات العُلا، فها هو ربُّنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ينقلنا بهذه الآية من عالم الدنيا إلى عالم السماء!

رَدِّد ذكر الله ولا تمَلّ؛ لا إلــه إلا الله، لا إله إلا الله، لا إله إلا الله. ردّد ذِكْرَهُ في الأرض يتردّدُ ذكرُك في السماء.

ربَّاه لك الحمد، ولك الشــكر؛ أن نقلتنا بذكــرك من ضيق الدنيا إلى ســعة الآخرة، ومن ضيق الصدور إلــى طُمأنينة القلوب ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

إنَّها الكرامة للإنســان دون ســواه من المخلوقات، يعِدُه إله الكون -ووعدُه حقٌّ- إن ذكرَه في الأرض أن يذكره في السماء! ومن أصدق من الله قيلًا. اُذكر الله كثيرًا يذكرك الله كثيرًا ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢].

لو قال لك قائلٌ: إنّه ســمع ذِكرَك فــي مجلس الملك فلان والرئيس علّان، لزهوتَ وانتشيتَ! فكيف بذكر الله لك في ملئه إن ذكرته. لا إله إلا الله! إنّه القرآن فيه الخبر اليقين والشرف العظيم!

ورد في تفسير ابن كثير: عن ابْنِ عباس: «ذِكْرُ اللهِ إِيَّاكُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُ»[1].

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «**مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُ**»[2].

عن أبي هريرة: يقولُ اللهُ تَعالى: «**أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ إذا ذَكَرَنِي، فإنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ بشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[3]

حين بشّرت الملائكة زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ بالغلام وقد بلغ من الكبر عتيًّا، وكانت امرأته عاقرًا، سأل الله أن يجعل له آيةً وعلامة، فأخبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنّه ولمدة ثلاثة أيام لن يتكلّم إلا رمزًا، لكن أنطق الله لسانه، وأطلقه بذكره سبحانه، وأمره بذكره كثيرًا ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١]. لا إله إلا الله.

ورد في تفسير القرطبي: «قال محمد بن كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: لَوْ رُخِّصَ لِأَحَدٍ فِي تَرْكِ الذِّكْرِ لَرُخِّصَ لِزَكَرِيَّا بِقَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران:٤١]، وَلَرُخِّصَ لِلرَّجُلِ يَكُونُ

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (٢٠/ ٤٢)، تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (١/ ٤٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٨/ ٤١٩ رقم ٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١ رقم ٢٦٧٥)، وانظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه البخاري (١٨/ ٤١٩ رقم٧٤٠٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٦١ رقم ٢٦٧٥).

فِـي الْحَـرْبِ بِقَـوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال:٤٥]»[١].

ربَّاه نغفـل عن ذِكرك فارزقنا تذكّرك. لا إله إلا الله ! ربَّاه نسـهو عن ذِكرك فاكتبنا من عبادك الذاكرين!

وتأمَّل الآية الأُخرى التي تَقْتَـربْ منك يابن آدم، يا منْ آمنت بكتاب الله، وأيقنـت أنه حقّ، ففيهـا يُخاطبُك ربُّك أن تذْكُرَه في نفسِـكَ تذلُّلًا وخوفًا، تَذْكُره بهدوءٍ وسـكينة، تَذْكُرَه في نهـارك وليلك. وفيها يُنبّهك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا تكون من الغافلين، لا إله إلا الله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

قال الشيخ ابن سـعدي في تفسيره لهذه الآية: «الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمدًا أصلًا، وغَيْرَه تَبَعًا، بذكر ربّه في نفسه؛ أي: مخلصًا خاليًا. ﴿تَضَرُّعًا﴾؛ أي: متضرِّعًا بلسانك، مكرِّرًا لأنواع الذكر، ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفًا من اللّه، وَجِلَ القلب منه؛ خوفًا أن يكون عملك غير مقبول. وعلامة الخوف أن يسـعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به. ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾؛ أي: كن متوسطًا، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سـبيلًا. ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَالْآصَالِ﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزيّة وفضيلة على غيرهما. ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حُرموا خير الدنيا والآخرة،

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٨٢)، وانظر: تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (٢/ ٤٧٣).

وأعرضوا عمّن كُل السعادةِ والفوز في ذِكره وعبوديته، وأقبلوا على مَنْ كل الشقاوة والخيبة في الاشـــتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصًا طَرَفَيِ النهار، مُخلصًا خاشـــعًا مُتضرعًا، مُتذلّلًا ساكنًا، وتواطئا عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»[1].

ربّاه نســـألك ونتوســـل إليك أن تجعلنا من عبادك الذين قلت فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

رباه نسألك أن تجعلنا من عبادك المـُبَشَّرين الوَجِلين ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٣٤-٣٥].

إن ذكر الله ميدانٌ رحب، يكون بالقول والعمل؛ اذكره بلسانك مُعتقدًا مُوقنًا بوحدانيته سبحانه، واذكره بعملك الصالح؛ فحين تُصلّي فأنت تذكر الله، وحين تتصـــدق فأنت تذكر الله، وحين تَصِلُ رحمك فأنت تذكر الله، وحين تصوم فأنت تذكر الله، وحين تطوف ســـبعًا فأنت تذكر الله، وحين تعمل الصالحـــات فأنت تذكر الله ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥].

(١) تفسير السعدي (ص٣١٤).

جعلنا الله من عِباده الذاكرين المـُبَشَّرِين بالنعيم.

إنه القرآن، العطاءُ الربَّاني، النعمةُ الإلهيـــة، تأمَّلوه وتوقّفوا عند آياته تعيشوا حياة السعادة والسرور، وتفوزوا برعايته ولُطفه.

ورد في (سِير أعلام النبلاء) ما يُروى عن أبي العالية قال: «إن الله قضى على نفسه أنَّ مَن آمن به هَداه، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابـن:١١]، ومن توكّل عليه كفاه، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، ومن أقرضه جازاه، وتصديقُ ذلك في كتـــاب الله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]، ومن اســـتجار من عذابه أجاره، وتصديقُ ذلك في كتاب الله: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمـــران:١٠٣]، والاعتصـــام الثقة بالله، ومن دعـــاه أجابه، وتصديقُ ذلك في كتـــاب الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]»[1].

وكذلـــك مَنْ ذكر الله ذكرَهُ الله، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة:١٥٢]. لا إله إلا الله.

(١) سِير أعلام النبلاء: الذهبي (٧/ ٢٣٥).

الرَّحمة

قال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢].

تأمَّلْ وتدبّرْ هذه الآية، ففيها يُقرّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن جميع ما في الكون ملكٌ لله، إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المالك لجميع ما في السماوات والأرض، لا ينازعه في ذلك منازع، أوجب على نفسه الرحمة؛ كرمًا منه وتفضّلًا، كتب الرحمةَ بإرادته ومشيئته؛ لم يوجبها عليه موجب، ولم يقترحها عليه مقترح. إنها إرادته المُطلقة، وإنه التكريم الربّاني أن جعل رحمته بعباده قُرآنًا يُتلى، كتبها هو على نفسه، وجعلها عهدًا منه لعباده بمحض إرادته ومطلق مشيئته، خبرٌ تهتزّ له النفوس، وترقُّ له القلوب. إن استحضار هذه الصورة النَّدِية الرقيقة الودودة، تزيد المؤمن أملًا، وتملأُ فُؤاده فرحًا، وإن ألسنة البشر تعجز عن شكر الله وحمده، فيا له مِن خير عظيم، ويا لها من سعادة وطُمأنينة. إن المؤمن يزداد إيمانه ويقينه حين يقف عند تدبّر هذه الآيةِ المُبشرة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]. زادنا الله إيمانًا ويقينًا. إن إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الحقيقة؛ مِنْ أَنَّهُ أوجب على نفسه

الرحمة، لهو خير تكريم، وإن إبلاغه عباده بما كتبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نفسه من رحمته لهو السرور والبهجة، ويا ترى مَن نحنُ؟ حتى تبلغ العناية الربانية أن يبلغنا بما جرت به إرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الملأ الأعلى أنه كتب على نفسه الرحمة، وتصلُنا هذه البشارة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوساطة أفضل الملائكة، لأفضل الرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويبقى هذا الخبر السار خالدًا في كتابه الكريم، إنه الفضل العظيم.

قال أحد الصالحين رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَدَبُّرُ هذه الحقيقة على هذا النحو، ليدعُ القلب في عَجَبٍ وفي دَهَشٍ؛ كما يدَعَهُ في أُنسٍ وفي رَوْحٍ لا تبلغُ الكلماتُ أن تُصورَ جوانبه».

ومما علّق به الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ حول هذه الآية الكريمة: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ قوله: «﴿كَتَبَ﴾ بمعنى أوجب؛ لأن الكتابة بمعنى الإيجاب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:١٨٣]. ﴿كَتَبَ﴾ بمعنى فُرِض وأُوجِب، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]؛ أي فريضة مؤقّتة.

وقوله: ﴿الرَّحْمَةَ﴾ يعني أن يرحم عباده عَزَّوَجَلَّ، فرض هذا على نفسه، ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي: «إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[1]. رحمةُ الله بالعباد فرضها الله على نفسه، لسنا الذين فرضناها عليه، بل هو فرضها على نفسه.

(١) أخرجه البخاري (١٨/ ٤٤٣ رقم ٧٤٢٢).

فإن قال قائـــل: إننا نجد من الناس من أصابـــه البؤس والبلاء، وفقد المـــال، وفقد الأولاد، وهو في غاية البؤس، أين الرحمة؟ فالجواب: كل ما أصاب الإنســـان من شيء من بلاء وهو مؤمن فإنه رحمة؛ لأنه إذا صبر أُثِيـــبَ ثواب الصابرين، وإذا احتســـب أُثِيبَ ثواب الشـــاكرين، فهو خيرٌ له، وكم من أناس لو أنهم رُزِقُوا صحة ومالًا وأولادًا لبطروا وأفســـدهم الغنى، وكم من أناس بالعكس. كل شـــيء يصيب المؤمن -والحمد لله- فهو رحمة وكفَّارة، حتى لو أن الإنســـان فزع من شيء قابله كُتِبَ له بذلك أجر -اللهم لك الحمد- حتى جاء في الحديث: لو أن إنسانًا فقد شيئًا في جيبـــه مثلًا ثم فزع، خاف أن يكون ضاع مثـــلًا، فله أجر، إلى هذا الحد!! إذن هذه رحمة، وما أحســـن قول رابعة العدوية: إن حلاوة أجرها أَنْسَتْنِي مرارة صبرها. والآلام، والبؤس، والتعب، والهـــمّ، والغمّ في الدنيا كله يزول، إما أن يزول إلـــى ضدّه، وإما أن يصل بصاحبه إلى الهلاك، ولا بد أن يزول، لكن الأجر باقٍ.

فإذا قال قائل: والكافر؟ فالجواب أن نقول: إن الكافر هو الذي فوَّت الرحمة على نفســـه، مع أن لله عليه رحمة بما يسَّرَه له من الأكل والشرب والنكاح والمسكن، وما أشبه ذلك»[1].

هذا وقد أخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آية أُخرى أنه أوجب رحمته لذاك الجاهل المـُذنب ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]. يتكـــرر ورود رحمـــة الله فـــي القرآن الكريم، وتتجلى رحمته في صور كثيرة؛ في مجازاته الســـيئة

(١). تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأنعام.

بمثلها، والحسنة بعشـــر أمثالها. والمضاعفة بعد ذلك لمن يشاء. ومحو الســـيئة بالحســـنة، وكل ذلك من فضل الله ومنّتِهِ. فلا يبلغ أحد أن يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمّده الله برحمته.

فرحمة الله أملٌ، ورحمته نورٌ، ورحمته سعادةٌ، ورحمته شفاءٌ، ورحمته دواءٌ للقلوب. إن الرحمة صفةٌ لله اقترنت بأسمائه الحُسنى، فهو الرحمن الرحيم، فلا تيأس ولا تقنط. عن أبي الكنود قال: «دخل عبدالله بن مسعود المســـجد، فإذا قاصٌّ يُذكّر بالنارِ والأغلالِ، قـــال: فجاء عبدالله حتى قام على رأسه، فقال يا مُذكر: أتُقنط الناسَ من رحمة الله؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]. وفي السنة النبوية وردت أحاديث شريفة في الرحمة.

أخرج الشيخان بإســـنادهما عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لما قضى الله الخلق** [وعند مســـلم]: **لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**. وعند البخاري في رواية أخرى: **إن رحمتي غلبت غضبي**»(١).

وأخرج الشيخان بإسنادهما عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق، حتى ترفع الدَّابّة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»(٢).

(١) أخرجه البخاري (١٩/ ١٥ رقم٧٥٥٣)، ومسلم (رقم٢٧٥١).
(٢) أخرجه البخاري (١٥/ ١٧٥ رقم٦٠٠٠)، ومسلم (٤/ ٢١٠٨ رقم٢٧٥٢).

وأخرج مسلم -بإسناده عن سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن لله مئة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق بينهم، وتسعة وتسعون ليوم القيامة**»[1]. وله في أخرى: «**إن الله تعالى خلق يوم خلق السماوات والأرض مئة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة، فيها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة**»[2].

وعن أبي هريرة: «**إنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يومَ خَلَقَها مِئَةَ رَحْمَةٍ، فأمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وتِسْعِينَ رَحْمَةً، وأَرْسَلَ في خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً واحِدَةً، فلوْ يَعْلَمُ الكافِرُ بكُلِّ الذي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الجَنَّةِ، ولو يَعْلَمُ المُؤْمِنُ بكُلِّ الذي عِنْدَ اللهِ مِنَ العَذابِ لَمْ يَأْمَن مِنَ النّارِ**»[3].

إن هذه الأحاديث النبوية الواضحة، تُقرِّبُ لمداركنا البشرية رحمة الله تعالى، فمن ينظر إلى رحمة الأمهات بأطفالهن في عالم المخلوقات الحيّة ويتأملها، يرى العجب العُجاب من أطياف الرحمة!

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَدِمَ على النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قدْ تَحْلُبُ ثَدْيَها تَسْقِي، إذا وجَدَتْ صَبِيًّا في السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فأَلْصَقَتْهُ ببَطْنِها وأَرْضَعَتْهُ، فَقالَ لَنا النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتُرَوْنَ هذِه طارِحَةً**

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٨ رقم٣٢٧٥).
(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٨ رقم٣٢٧٥)، عن سليك الغطفاني.
(٣) أخرجه البخاري (١٦/ ٢٨٧ رقم٦٤٦٩).

ولَدَها في النّارِ؟» قُلْنا: لا، وهي تَقْدِرُ على أنْ لا تَطْرَحَهُ، فَقالَ: «**للهُ أرْحَمُ بعِبادِهِ مِن هذِه بوَلَدِها**»(١).

إن رحمة تلك الأمّ بولدها ما هي إلّا فيضٌ يسيرٌ من رحمة واحدة من رحمات الله الواسعة؟

وإن من تعاليم رسول الله ﷺ لأصحابه هذه الحقيقة القرآنية عن الرحمة، بهذا الأسلوب الموحِي، فإنه يزرع فيهم تلك الخَصْلَة المباركة؛ ليتخلّقوا بخُلُق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الرحمة، فيتراحموا فيما بينهم، وتتذوق قلوبهم مذاق الرحمة ولَذَّتِها.

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**الرّاحمونَ يرحمُهم الرحمنُ، ارحمُوا أهلَ الأرضِ يرحمْكم مَن في السماءِ**»(٢).

ويحثّ رسول الله ﷺ الصحابة على الرحمة، ويُرغّبهم في التراحم، فعن جرير بن عبدالله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**»(٣).

وفي رواية لأبي داود والترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (١٥/ ١٧٣ رقم٥٩٩٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٩ رقم٢٧٥٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٠٣ رقم٤٩٤١)، والترمذي (٤/ ٣٢٣ رقم١٩٢٤)، وأحمد (رقم٦٤٩٤).
(٣) أخرجه البخاري (١٥١٨/ ٣٧٨ رقم٧٣٧٦)، واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٠٩ رقم٢٣١٩).
(٤) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٠٣ رقم٤٩٤٢)، والترمذي (٤/ ٣٢٣ رقم١٩٢٣).

وعن أبي هريرة قال: قَبَّلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدًا! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرحم لا يُرحم**»(١).

ولا يقف رسول الله ﷺ عند حدّ الرحمة بالبشر، وقد علم أن رحمة الله وسعت كل شيء، بل بَيَّن أننا مأمورون أن نتخلّق بأخلاق الله سبحانه؛ فالإنسان لا يبلغ كمال إنسانيته إلا حين يرحم كُلَّ حيٍّ؛ تخلُّقًا بخُلقِ الله سبحانه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش، فوجد بئرًا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، وإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ منِّي، فنزل البئر، فملأ خفَّه ماءً، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب. فشكر الله تعالى له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإنَّ لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجر**»(٢).

وفي أخرى: «**إن امرأة بغيًا رأت كلبًا في يومٍ حارٍ يطيف ببئر، قد أدلع (أي أخرج) لسانه من العطش، فنزعت له موقَها؛ (أي خفَّها)، فغُفِر لها به**»(٣).

وعن عبدالرحمن بن عبدالله عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فرأينا حمرة (طائر) معها فرخان لها فأخذناهما،

(١) أخرجه البخاري (١٥/ ١٧١ رقم٥٩٩٧)، ومسلم (٤/ ١٨٠٨ رقم٢٣١٨).
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٩٩ رقم٢٣٦٣)، ومسلم (٤/ ١٧٦١ رقم٢٢٤٤).
(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٦١رقم٢٢٤٥).

فجاءت الحمرة تعرّش (أو تفرش) أي ترخي جناحيها وتدنو من الأرض، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردُّوا ولدها إليها**». ورأى قرية نملٍ قد أحرقناها، فقال: «**من أحرق هذه؟**» قلنا: نحن. قال: «**إنه لا ينبغي أن يعذِّب بالنار إلا ربُّ النار**»[1].

لقد علَّمَ رسولُ الله ﷺ أصحابه هديَ القرآن، وألوانًا من الرحمة. وتعددت أحاديثه حول الرحمة وأهميتها. جعلنا الله من عباده المتراحمين، وبرحمة الله ندعوه: ربِّ ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]. آمين.

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٨٩ رقم٥٢٦٨).

رِضاهُم

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

إن تأمّل هذه الآية الكريمة وتدبّرها يستدعي استحضار التاريخ، ومعرفة كيف هو موقف اليهود والنصارى من دعوة سيدنا محمدٍ ﷺ؛ إذ أنكروا نبوته، ومكروا وكادوا، مع أن الإسلام عاملهم بالسماحة والرفق؛ فكان الخادم لرسول الله ﷺ غُلامًا يهوديًّا، كما تُوفي ﷺ ودرعهُ مرهونةً عند يهودي، وأباح الإسلامُ تناول أطعمة اليهود والنصارى، وأجاز أن تكون أمّ المسلم يهودية أو نصرانية، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [المائدة:٥]، كما ورد في القرآن الكريم جواز برِّ المُسَالِمين من غير المسلمين والإقساط إليهم؛ إذ قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما دخل القدس أبقى على معابد النصارى، والوثيقة العمرية مشهورة في بيان ذلك، وهي التي كتبها

لأهل إيليا (القدس) عندما فتحها المسلمون؛ إذ جاء فيها «هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين، أهل إيليا من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسَقيمِها وبريئها وسائر مِلْتها، إنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدَّم، ولا يُنقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضار أحدٌ منهم»[1].

إن اليهود والنصارى، وإن تعامل الإسلام معهم برفق، فإنهم يأبون إلا محاربة دين الله والكيد له، وفي آية هذا المجلس إخبارٌ وتقريرٌ، وإعلامٌ وتوجيهٌ من ربِّ البشر سبحانه، أن رِضا اليهود والنصارى لن يتحقّق إلا أن تترك إسلامك، وتصبح مثلهم يهوديًّا أو نصرانيًّا، وتتخلّى عن الدين الحق الذي قرّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حتميتَه؛ إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩].

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

قال الشيخ الشعراوي في آية هذا المجلس ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠]: «هذا الخطاب لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب أن نقف معه وقفةً، لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي اصطفاه. فالله حين يوجّه هذا الخطاب لمحمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. فالمراد به أمّة رسول الله

(١) تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر ابن جرير الطبري، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم (٢/ ٤٤٩).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتْباع رسول الله الذين سيأتون من بعده. وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى. أما الرسول فقد عصمه الله من أن يتّبعهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريدنا أن نعلم يقينًا أن ما لم يقبله من رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. لا يمكن أن يقبله من أحد من أمته مهما علا شأنه. وذلك حتى لا يأتي بعد رسول الله من يَدَّعِي العلم. ويقول: نتبع ملة اليهود أو النصارى لنجذبهم إلينا. نقول له: لا ما لم يقبله الله من حبيبه ورسوله لا يقبله من أحد.

إن ضرب المثل هنا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقصود به أَنَّ اتِّبَاعَ ملة اليهود أو النصارى مرفوضٌ تمامًا تحت أي ظرف من الظروف، لقد ضرب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المثل برسوله؛ حتى يقطع على المغرضين أي طريق للعبث بهذا الدين بحجة التقارب مع اليهود والنصارى»[1].

وأقول: إن الواقع والتاريخ يعرض جوهر الخلاف مع اليهود والنصارى، ويكشف حقيقة المعركة التي يشنّونها على المسلمين كل حين، إنها معركة العقيدة والدين، فلن يرضوا حتى تخرج من دينك، وتترك عقيدتك. إن مكرهم يتلوّن، وَكيدهُم يتنوع، فلم يُعلنوها اليوم حربًا على العقيدة؛ لئلا يستثيروا المسلمين، فيُوحّدوا صفوفهم، وإنما عمِلوا على السُّخريةِ من الدين وعلمائه، ووسموهم بالتخلف، ومضوا يمزّقون وحدة المسلمين، ويُؤلّبون فيما بينهم، وأغروا المجتمعات المسلمة ببريق الحضارة الغربية وغرس ثقافة الغالب وتبعية المغلوب، وأعملوا

(١) تفسير الشعراوي (١/ ٥٦٢-٥٦٣).

سهامهم في الاقتصاد؛ لتكون لهم الصدارة والغلبة، ومن ثمّ الضعف لدى المسلمين والتبعية لهم، وسلّطوا إعلامهم في سبيل ذلك: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

قال الشوكاني في تفسيره «قَوْلُهُ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ﴾؛ أيْ لَيْسَ غَرَضُهم ومَبْلَغُ الرِّضا مِنهم ما يَقْتَرِحُونَهُ عَلَيْكَ مِنَ الآياتِ، ويُورِدُونَهُ مِنَ التَّعَنُّتاتِ، فَإنَّكَ لَوْ جِئْتَهم بِكُلِّ ما يَقْتَرِحُونَ وأجَبْتَهم عَنْ كُلِّ تَعَنُّتٍ لَمْ يَرْضَوْا عَنْكَ، ثُمَّ أخْبَرَهُ بِأنَّهم لَنْ يَرْضَوْا عَنْهُ حَتّى يَدْخُلَ في دِينِهِمْ ويَتَّبِعَ مِلَّتَهم، ثُمَّ رَدَّ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَأمَرَهُ بِأنْ يَقُولَ لَهم: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠] الحَقِيقِيُّ، لا ما أنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ المَنسُوخَةِ والكُتُبِ المُحَرَّفَةِ، ثُمَّ أتْبَعَ ذَلِكَ بِوَعِيدٍ شَدِيدٍ لِرَسُولِ اللهِ إنِ اتَّبَعَ أهْواءَهم وحاوَلَ رِضاهم وأتْعَبَ نَفْسَهُ في طَلَبِ ما يُوافِقُهم، ويُحْتَمَلُ أنْ يَكُونَ تَعْرِيضًا لِأُمَّتِهِ وتَحْذِيرًا لَهم أنْ يُواقِعُوا شَيْئًا مِن ذَلِكَ، أوْ يَدْخُلُوا في أهْوِيَةِ أهْلِ المِلَلِ، ويَطْلُبُوا رِضا أهْلِ البِدَعِ»[1].

وقال الشوكاني كذلك: «فِي هَذِهِ الآيَةِ مِنَ الوَعِيدِ الشَّدِيدِ الَّذِي تَرْجُفُ لَهُ القُلُوبُ وتَتَصَدَّعُ مِنهُ الأفْئِدَةُ، ما يُوجِبُ عَلى أهْلِ العِلْمِ الحامِلِينَ لِحُجَجِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والقائِمِينَ بِبَيانِ شَرائِعِهِ، تَرْكَ الدِّهانَ لِأهْلِ البِدَعِ المُتَمَذْهِبِينَ بِمَذاهِبِ السُّوءِ، التّارِكِينَ لِلْعَمَلِ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ، المُؤْثِرِينَ لِمَحْضِ الرَّأْيِ عَلَيْهِما، فَإنَّ غالِبَ هَؤُلاءِ، وإنْ أظْهَرَ قَبُولًا، وأبانَ مِن أخْلاقِهِ لِينًا، لا يُرْضِيهِ إلّا اتِّباعُ بِدْعَتِهِ، والدُّخُولُ في مَداخِلِهِ، والوُقُوعُ في حَبائِلِهِ، فَإنْ

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٥٨).

فَعَلَ العالِمُ ذَلِكَ بَعْدَ أنْ عَلَّمَهُ اللهُ مِنَ العِلْمِ ما يَسْتَفِيدُ بِهِ أنَّ هُدى اللهِ هو ما في كِتابِهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ، لا ما هم عَلَيْهِ مِن تِلْكَ البِدَعِ الَّتِي هي ضَلالَةٌ مَحْضَةٌ، وجَهالَةٌ بَيِّنَةٌ، ورَأْيٌ مُنْهارٌ، وتَقْلِيدٌ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ، فَهو إذْ ذاكَ ما لَهُ مِنَ اللهِ مِن ولِيٍّ ولا نصير، ومَن كذلك فهو مخذول لا محالة، وهالك بلا شك ولا شبهة»[1].

ومما ذكره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾، أنه نبّه لأمرٍ دقيقٍ يغيبُ عن كثيرين، وهو أن القرآن لا زيادة فيه ولا نقص، وكل حرفٍ جاء في موضعه، فحرف (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ جاء في مكانه، فلا يمكن أن يُقال: حرف زائد، ولا يمكن تحريكه من موقعه؛ إذ قال الشيخ: «(لا) هنا للتوكيد، وليست مستقلة، فإنه لو حذفت، وقيل: ولن ترضى عنك اليهود والنصارى لاستقام الكلام، لكنها زيدت للتوكيد؛ لأجل أن لا يظنّ الظانّ أن المراد: أن الجميع لا يرضون مجتمعين؛ لأنه لو قال: لن ترضى عنك اليهود والنصارى لظنّ الظانُّ أنهم لن يرضوا في حال اجتماعهم، مع أن الواقع أن كل طائفة لن ترضى»[2].

لقد بين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن حرف (لا) جاء لتأكيد عدم رضا اليهود والنصارى متفرقين أو مجتمعين، نافيًا ما قد يظنه الظان أو يقوله المتأول: إن اليهود قد يرضون، وأن النصارى قد يرضون، إذا كانوا منفردين، لكن

(١) فتح القدير: الشوكاني (١/ ١٥٨).
(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة البقرة.

فـي حال اجتماعهم لن يرضوا. إن الشـيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينبّه لدلالة حرف (لا)، وكيف حسمت هذا التخريج الباطل والتأويل الفاسد.

ونبّـه الشـيخ لأمر دقيق آخـر؛ إذ قـال تعالـى: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، ثم قال: ﴿أَهْوَآءَهُم﴾؛ لأن هذه الملة التي هم عليها ليسـت ملة هدى، ولكنها ملة هوى؛ ولهـذا قـال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة:١٢٠]؛ لأنهم على هوى، وليسـوا على هـدى؛ إذ لو كانوا علـى هدى لوجب على اليهود أن يؤمنوا بالمسـيح عيسى ابن مريم، ولوجب عليهم جميعًا أن يؤمنوا بمحمـد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن دينهم هوى، وليس هدى، وهكذا كل إنسان يتبع غير ما جاء به الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويتعصب له، فإننا نقول: إن ملّتك هوى، وليست هدى.

ومما ذكرهُ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لبقية هذه الآية في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ قوله: «يشـير إلى الوحي الذي جاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سواء كان القرآن أو السنة.

وقال عند قوله تعالى: ﴿جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: «هو العلمُ الذي جاء الرسـول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فـإن الله يقـول لـه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨] الرسـول ما كان عالمـًا، كان نبيًّا أمّيًّا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما يعلم، لا يقرأ ولا يكتـب، ولكن الله أنزل عليه هـذا العلم حتى صار بذلك نبيًّا، جاء بالعلم النافع، والعمل الصالح.

وقال عند قوله تعالى: ﴿مِن وَلِىٍّ﴾: «الولي هو الذي يتولى غيره بحفظه وصيانته، فالمعنى ما أحد يتولى حفظك سـوى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا أحد يتولى

نصرك ولا نصيـــر فيدفع عنك، وحينئذ تنزل بـــك عقوبة الله حتى لو كثر الجنود عندك، ولو كثرت الشُّـــرَط، ولو كثرت القوة، فإنك إذا اتبعت غير شريعة الله ما أحد يحفظك من الله، ولا أحد ينصرك من دونه؛ لأن النصر والولاية تكون بالهداية باتباع هدى الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ [الأنعام:٨٢]. فالأمن إنما يكون بالإيمان، وعدم الظلم، ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [البقرة:١٢٠].

روى البخاري من حديث ابن مســـعود، قال: لمـــا نزلت هذه الآية، شَقَّ ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول الله، وأيُّنا لا يظلمُ نفسه، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣][1].

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٤٢٧ رقم٣٣٦٠)، ومسلم (١/ ١١٤ رقم١٢٤).

زُمَرًا

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧١-٧٤].

مشهدٌ رهيب، وموقفٌ عصيب، فرزٌ نهائي، وموعدٌ قطعي، يعرضه سبحانه وكأننا نراه. إنه يوم صِدْقٍ نبّهنا اللهُ -سبحانه- لهَوْلِه في هذه الآيات الواضحات!

هما فريقان تم حصرهما وجمعهما في ذاك اليوم العصيب، وسيعلم كلُ فردٍ من بني آدم حينذاك أين هو ذاهب! لا مفرَّ، ولا مهرب، ولا شفاعة، ولا منجاة، كلٌّ تَحَدَّدَ مصيره. استحضِر أين أنت في ذاك الجمع!

إن هذه الآيات الكاشفة عن ذاك الموعد وهوله، يغفل عنها كثيرون، بل ربما قرؤوها وما استشعروا هيبة المشهد وخطورته، قلوبٌ قاسية، قُلوبٌ غافلة، كيف يطيب لها الأكل والشرب! وكيف تستلذ مُتع الدنيا، وهذا الموعد العظيم في انتظارنا! ربّاه اكتبنا في زُمرة المُتقين، ربّاه نَجِّنا من زُمرة الكافرين.

هذا، ونحمد الله على نعمة الإسلام؛ فالكفرة بالله هُمُ الذين نصّت الآية على سَوْقِهِم والدفعِ بهم إلى جهنم، نجّانا الله منها. لقد نصّت الآية أنه يُدفع بالجميع؛ الكافرين والمتقين زُمرًا؛ أي مجموعات إثر مجموعات، وما أن يصلوا حتى تُفتح الأبواب؛ أبواب النار، وأبواب الجنة. فهناك؛ فاتحٌ وخازن، وخطابُ تقريعٍ وترحيب، وصوتُ توبيخٍ وتكريم.

جاء في تفسير الزمخشري: «أبواب جهنم لا تُفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدّم فتحها، بدليل قوله: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص:٥٠]؛ فلذلك جيء بالواو، كأنه قيل: حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها. فإن قلت: كيف عبّر عن الذهاب بالفريقين جميعًا بلفظ السَّوْق؟ قلت: المراد بسَوْقِ أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يُفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبسٍ أو قتل. والمراد بسَوْقِ أهل الجنة: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يُذهب بهم إلَّا راكبين، وحثّها؛ إسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يُفعلُ بمن يُشرَّفُ ويُكرّمُ من الوافدين على بعض الملوك، فشتّان ما بين السَّوقين. ﴿طِبۡتُمۡ﴾ من دنس المعاصي، وطُهّرتم من خبث الخطايا، فَادْخُلُوها، جعل دخول الجنة مسبَّبًا عن الطيب والطهارة، فما هي إلا دار الطيبين

ومثوى الطاهرين؛ لأنها دارٌ طهرها الله من كل دنس، وطَيَّبها من كل قذر، فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها»[1].

هذا، وبتأمُّل هذه الآيات، وتدبّرها، نلحظ أن الله عَزَّوَجَلَّ قد سمّى الناجين بالمتقين، كلما دخلت زمرةٌ سلّمت عليهم ملائكة الجنة، وطمأنتهم بطيب الثواب، وطيب المقام، وخلودٍ دائم.

وتكرر في القرآن الكريم الثناء على الموصوفين بالتقوى، الفائزين بجنة الخلد؛ إذ جاء أن الله ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:٧٦]، وأنه سبحانه ﴿عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١١٥]، وأنه -جلَّ عُلاه- يتقبَّلُ من المُتقين ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، وأنه عَزَّوَجَلَّ ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٩٤]. وورد تكريم المُتقين في عدد من الآيات؛ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور:١٧] و﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١] و﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤]، وغيرها كثير.

وبعدُ فهل نحن من المُتقين؟، ومنْ هم المُتقون؟ إن خيرَ تعريفٍ للمتقين وأصدق تفسير لهم، هو ما ورد في القرآن الكريم، فالقرآن يُفسّر بعضه بعضًا؛ ففي سورة البقرة ورد وصف المتقين، وفي سورة آل عمران تكرر وصف المتقين، وفي سورة الأنبياء جاءت الإشارة إلى المتقين.

قال تعالى في سورة البقرة عن المتقين: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١، ٢]. وبَيَّنَهُم في الآيات الآتية بأنهم:

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري (٤/ ١٤٧).

١. ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

٢. ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٣. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣].

٤. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٥. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

٦. ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤].

وفي سورة آل عمران ندب الله المتقين للجنة، فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

ثم عَرَّف المتقين، فقال عَزَّوَجَلَّ بأنهم:

١. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

٢. ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

٣. ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٤. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٣٥].

وفي سورة الأنبياء وردت الإشارة للمتقين، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨]. وبَيَّنَ سبحانه وصفهم بأنهم:

١ . ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

٢ . ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٤٩].

سَـائِلْ نفسَـكَ هل تعمل عمل أهل هذه الصفات؟! وهل تستحضر هذه الخصال كل حين؟! وهل هذه السجايا تضبط تصرفاتك؟! إن كُنتَ جاهلًا فاعلم، وإن كُنتَ غافلًا فتَنَبَّه!

إن هذه الآيات القرآنية بَيَّنَت منْ هم المـُتقون. نَوَّر الله بصائرنا لاتباع منهجهم، وكتبنا من عباده المتقين!

إن الهداية بيد الله، والتوفيق بإذنه سبحانه، فلا تمل من سؤاله الطريق المسـتقيم؛ طريق عباده المـُتقين! الذين أنعم عليهم، وجعل دخولهم الجنة زُمرًا!

إن مثقال الذرّة من عمل عملناه من خيرٍ أو شرٍّ في جميع أيامنا الماضية من أعمارنا، مُسجَّلٌ ومُدَوَّن، وسنُحاسب عليه ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

احـذَرْ بريق الدنيا، فما يحفلُ به كفرة اليـوم من نعيم، فهم مثل كفرة الأمس؛ أغرتهم الحياة الدنيا، وازدان لهم نعيمها، ويسـخرون ويهزؤون من عباد الله المؤمنين، وسـيعلمون غدًا يوم السَّـوق إلـى النار والجنة، من الخاسـر؟ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [البقرة:٢١٢].

أي والله، يوم القيامـة يعلو المتقون، وينالون النعيم. كتبَنا الله مع زُمر المتقين.

جاء في تفسير البغوي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «الْمُتَّقِي مَنْ يَتَّقِي الشِّرْكَ وَالْكَبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الِاتِّقَاءِ، وَأَصْلُهُ الْحَجْزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، وَمِنْهُ يُقَالُ: اتَّقَى بِتُرْسِهِ؛ أَيْ جَعَلَهُ حَاجِزًا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ مَا يَقْصِدُهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أَيْ إِذَا اشْتَدَّ الْحَرْبُ جَعَلْنَاهُ حَاجِزًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعَدُوِّ، فَكَأَنَّ الْمُتَّقِي يَجْعَلُ امْتِثَالَ أَمْرِ اللهِ وَالِاجْتِنَابَ عَمَّا نَهَاهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَذَابِ. قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِكَعْبِ الْأَحْبَارِ: حَدِّثْنِي عَنِ التَّقْوَى، فَقَالَ: هَلْ أَخَذْتَ طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهِ؟ قَالَ: حَذِرْتُ وَشَمَّرْتُ: قَالَ كَعْبٌ: ذَلِكَ التَّقْوَى. وَقَالَ شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: الْمُتَّقِي الَّذِي يَتْرُكُ مَا لَا بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ بَأْسٌ، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عبدالعَزِيزِ: التَّقْوَى تَرْكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ، فَمَا رَزَقَ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ خَيْرٌ إِلى خَيْرٍ. وَقِيلَ: هُوَ الِاقْتِدَاءُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَفِي الْحَدِيثِ: «جِمَاعُ التَّقْوَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]. وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: التَّقْوَى أَنْ لَا تَرَى نَفْسَكَ خَيْرًا مِنْ أَحَدٍ. وَتَخْصِيصُ الْمُتَّقِينَ بِالذِّكْرِ تَشْرِيفٌ لَهُمْ أَوْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّقُونَ بِالْهُدَى»[1].

ومما ورد عن الشيخ ابن عثيمين حول المتقين قوله: «﴿الْمُتَّقِينَ﴾ اسم فاعل، والفعل منه (اتقى)، ومعنى اتقى: اتخذ وقايةً من عذاب الله، وهذا لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وعلى هذا فأشمل الحدود في التقوى أنها اتخاذ وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فهي فعل الأوامر واجتناب النواهي.

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي (١/ ٦٠).

واعلم أن التقــوى تُقرَن تارةً بالبــر، كقوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٢]، وتارة تُقــرَن بالإيمان، كما في هذه الآية: ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقــرة:٢، ٣]، وتارة تُذكر وحدها، فإن ذُكرت وحدها شملت الدين كلــه؛ لأن الدين كله وقايةٌ من عذاب الله، وإن اقترنت بالبر صار البر فعل الأوامر، والتقوى ترك النواهي، فهي تفسَّر في كل سياق بحسبه»[١].

وقــال ابن عثيمين كذلــك: «إذا رأيت الله قد منّ عليــك بفهم كتابه والعمل به، فاعلم أنــك من المتقين؛ لأن الله قال: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، فإذا رأيت مِن نفســك أن الله مَنَّ عليك بالعلم والعمل بكتابه فأبشِر فإنك من المتقين.

ويتفرع أيضًا على هذا فائدة أخــرى: إذا رأيت الغفلة وعدم الانتفاع بالقرآن فاحذر؛ فإن هذا يدل على نقص تقواك؛ لأنه لو كانت تقواك كاملة لكان هذا القــرآن هدى لك. ويتفرع على هذا أيضًا: الحث على التقوى، وأنها سبب للاهتداء بالقرآن، وأنك كلما اتقيت الله ازددت انتفاعًا بالقرآن واهتداءً به»[٢].

نســأل الله بأســمائه الحســنى وصفاته العُظمى أن يكتبنا من عباده المتقين، ممن يُساقون إلى الجنة زُمَرًا.

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة البقرة.
(٢) المرجع السابق.

ساعةً من النهار

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس:٤٥].

هناك في الحياة الآخرة التلاقي، والتعارف والحياة الأبدية، سعادةٌ وجنَّةٌ للمؤمنين، وشقاوةٌ ونارٌ للكافرين، وهناك يستذكر الجميع حياة الدنيا الماضية، وكأنها ساعة من النهار الذي عاشوه في دنياهم. إنه الزمن يمضي، والدنيا تنقضي، والأعمار تنطوي، وحين يتذَكَّرُ أَحَدُنَا سنواتَ حياتِه الماضية وهو في كامل صحته، يشعُر كأن الأحداث التي عاشها أحلامٌ مرّت به في نومةِ ليلةٍ غابت، أو ضحوةِ نهارٍ رحل، أو قيلولةِ ظُهْرٍ غَبْر.

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليومٍ لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مرّ عليهم نعيمٌ ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم والدين القويم؛ حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار»[1].

(١) تفسير السعدي (ص٣٦٥).

ولقد تكـــرر التنبيه في القـــرآن الكريم لهذه الحقيقة؛ لســـرعة انتهاء الدنيا، وتَعدَّدَ التذكير بأن الدنيا ليســـت إلا ومضة في حياة الإنسان، ففي آخِرِ ســـورة «الأحْقـــافِ»: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥] وفي آخِرِ سورة النّازِعاتِ: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦] وفي آخِرِ سورة الرُّومِ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الروم:٥٥].

إن الحياة الدنيا ليســـت إلا مرحلة قصيرة في عمـــر الزمن؛ هي حياة امتحـــان للإنســـان ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملـك:١، ٢]، وهي متاعٌ زائل ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

جرّب مع نفسك، وخذْ ورقة وقلمًا، واكتب ذكرياتك الحلوة والمرَّة، إنك ســـوف تتحدث مع ذاتك حديثًا نفسيًّا؛ كيف حدث ذلك الموقف؟ وكيف صار ذاك التصرف؟ وحتمًا ستقول -مخاطبًا ذاتك- لو عادت بي الأيام لتلك الأحداث ما اتخـــذت ذاك الإجراء، ولعملت بكذا وكذا. إن الماضي لا يعود، وإن جميع أعمالك، وجميع أقوالك مُسجَّلة، وستجدها يوم الحســـاب، فاحذرْ! واحذر! ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩]، و﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق:١٨].

وسوستُكَ مع نفسك يعلمها الله ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ [ق:١٦، ١٧].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره لقَوْلِهُ تَعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥].

«صَرَّحَ في هَـذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَـةِ: أنَّ أهْلَ المَـحْشَرِ يَعْرِفُ بَعْضُهم بَعْضًا، فَيَعْرِفُ الآبـاءُ الأبْناءَ، والعَكْسِ، ولَكِنَّهُ بَيَّنَ فـي مَواضِعَ أُخَرَ أنَّ هَذِهِ المُـعارَفَةَ لا أثَرَ لَها، فَلا يَسْألُ بَعْضُهم بَعْضًا شَيْئًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج:١٠]، وقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١][1].

وقال الشـنقيطي عنـد قَوْلِـهُ تَعالـى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس:٤٥]: «صَرَّحَ تَعالـى في هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ بِخُسْـرانِ المُـكَذِّبينَ بِلِقائِهِ، وأنَّهم لَمْ يَكُونُوا مُهْتَدِينَ ... وقَدْ أقْسَمَ تَعالى عَلى أنَّ هَذا الخُسْرانَ لا يَنْجُو مِنهُ إنْسانٌ إلّا بِأرْبَعَةِ أُمُورٍ:

الأوَّلُ: الإيمانُ.

الثّانِي: العَمَلُ الصّالِحُ.

الثّالِثُ: التَّواصِي بِالحَقِّ.

الرّابِعُ: التَّواصِي بِالصَّبْرِ.

وَذَلِكَ فـي قَوْلِـهِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣][2].

وبَيَّنَ في مَواضِعَ أُخَرَ أنَّ المَفْعُولَ المَحْذُوفَ الواقِعَ عَلَيْهِ الخُسْرانُ هو

(١) أضـواء البيـان فـي إيضـاح القـرآن بالقـرآن: محمـد الأميـن بـن محمـد المختـار بـن عبدالقـادر الشـنقيطي (٢/ ١٥٧-١٥٨).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (٢/ ١٥٧-١٥٨).

أَنْفُسُـــهم، كَقَوْلِهِ في الأعْرافِ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٩]، وقَوْلِهِ في المُؤْمِنُونَ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٣]، وقَوْلِهِ في هُودٍ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [هود:٢١].

وَزادَ في مَواضِعَ أُخَرَ خُسْرانَ الأهْلِ مَعَ النَّفْسِ، كَقَوْلِهِ في الزُّمَرِ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥]، وقَوْلِهِ في الشُّورى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٥].

وَبَيَّنَ في مَوْضِعٍ آخَرَ أنَّ خُسْرانَ الخاسِرِينَ قَدْ يَشْمَلُ الدُّنْيا والآخِرَةَ، وهو قَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]»[(١)].

احذر أن تخسر نفســك فما الحياة الدنيا بأفراحها وأحزانها إلا ساعة وتنقضي، عن عبدالله بن مســعود: دخَلْتُ على النَّبيِّ ﷺ، وهو في غُرفةٍ كأنَّها بيتُ حَمامٍ، وهو نائمٌ على حصيرٍ قد أثَّر بجنبِه، فبكَيْتُ، فقال: ما يُبكِيكَ يا عبدَاللهِ؟! قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ كِسْرى وقيصرُ يَطْوونَ على الخَزِّ والدَّيباجِ والحريرِ، وأنت نائمٌ على هــذا الحصيرِ، قد أثَّر بجنبِك، فقال: فلا تبــكِ يا عبدَاللهِ فإنَّ لهم الدُّنيا ولنا الآخرةُ، ومــا أنا والدُّنيا، وما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا إلّا كمَثَلِ راكبٍ نزَل تحتَ شجرةٍ، ثُمَّ سار وتركَها»[(٢)].

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشنقيطي (٢/ ١٥٩).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٠/ ١٦٢ رقم١٠٣٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣،٤٥ رقم ٩٩٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٢٦ رقم١٨٣٠٠): رواه الطبراني، وفيه عبيدالله بن سعيد قائد الأعمش، وقد وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.

إن أيام الدنيا التي نتعارك فيها، وينسى فيها كثيرون آخرتهم، ليست إلا شيئًا يسيرًا بالنسبة للزمن، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

شتّان بين يومنا السريع ويوم عند الله بالنسبة لأيام الدنيا التي نعدّها، إنه ألف سنة مما نعدّ، والبعد الكوني للسماء عن الأرض، يَقْرُبُ تصوره عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]. روى الطبري في تفسيره أقول العلماء حول هذا اليوم، ثم قال: «وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه: يُدبّر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه في يوم كان مقدار ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه، ونزوله إلى الأرض ألف سنة مما تعدون من أيامكم، خمس مئة في النزول، وخمس مئة في الصعود؛ لأن ذلك أظهر معانيه، وأشبهها بظاهر التنزيل»[1].

وتعرض آية سورة المعارج العظمة الكبرى للبعد في قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤].

مما جاء في تفسير الطبري عن ذلك اليوم قال: «مقدار صعودهم ذلك في يوم لغيرهم من الخلق خمسين ألف سنة، وذلك أنها تصعد من منتهى أمره من أسفل الأرض السابعة إلى منتهى أمره، من فوق السموات السبع.

عن ابن عباس قال: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قَالَ: مُنْتَهَى أَمْرِهِ مِنْ أَسْفَلِ الْأَرَضِينَ إلى مُنْتَهَى أَمْرِهِ من فوق السموات مِقْدَارُ خَمْسِينَ

(١) تفسير الطبري، ت: شاكر (٢٠/ ١٦٩).

أَلْفَ سَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ. يَعْنِي بِذَلِكَ: تَنزل الْأَمْرِ مِنَ السَّمَاءِ إِلى الْأَرْضِ، وَمِنَ الْأَرْضِ إِلى السَّمَاءِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ فَذَلِكَ مِقْدَارُهُ أَلْفُ سَنَةٍ؛ لِأَنَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِقْدَارُ مَسِيرَةِ خَمْسِ مئة سَنَةٍ.

وفي رواية أُخرى عن ابن عباس قَالَ: فَهَذَا يَوْمُ الْقِيَامَةِ، جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْكَافِرِينَ مِقْدَارَ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ.

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعة، حَدَّثَنَا دَرّاج، عَنْ أَبِي الْهَيْثَم، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ مَا أَطْوَلَ هَذَا الْيَوْمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يصليها في الدنيا»[1].

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي عَمْرٍو الغُداني قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي هُرَيرة فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا أَكْثَرُ عَامِرِيٍّ مَالًا. فَقَالَ أبو هريرة: رُدُّوهُ فَقَالَ: نُبِّئْتُ أَنَّكَ ذُو مَالٍ كَثِيرٍ؟ فَقَالَ الْعَامِرِيُّ: إِيْ وَاللهِ، إِنَّ لِي لَمئة حُمْرًا ومئة أُدْمًا، حَتَّى عَدَّ مِن أَلْوَانِ الْإِبِلِ، وَأَفْنَانِ الرقيق، ورباط الخيل فقال أبو هريرة: إِيَّاكَ وَأَخْفَافَ الْإِبِلِ وأظلاف النَّعَم، يُرَدّد ذَلِكَ عَلَيْهِ، حَتَّى جَعَلَ لونُ الْعَامِرِيِّ يَتَغَيَّرُ، فَقَالَ: مَا ذَاكَ يَا أَبَا هُرَيرة؟ قَالَ: سمعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَنْ كَانَتْ لَهُ إِبِلٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا ورِسْلها -قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: مَا نجدتُها ورِسْلُها؟ قَالَ: «فِي عُسرها وَيُسْرِهَا-» فَإِنَّهَا

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٨/ ٢٤٦ رقم١١٧١٧)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٣٧ رقم١٨٣٤٧): رواه أحمد، وأبو يعلى، وإسناده حسن على ضعف في راويه.

تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرِهِ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ، حَتَّى يُبْطَحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرقَر، فَتَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا، فَإِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ، وَإِذَا كَانَتْ لَهُ بَقَرٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَكْثَرِهِ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ ثم يُبْطَحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرقَر فَتَطَؤُهُ كُلُّ ذَاتِ ظِلْفٍ بِظِلْفِهَا، وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا، إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَى سَبِيلَهُ. وَإِذَا كَانَتْ لَهُ غَنَمٌ لَا يُعْطِي حَقَّهَا فِي نَجْدَتِهَا وَرِسْلِهَا، فَإِنَّهَا تَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغَذِّ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنِهِ وَآشَرِهِ، حَتَّى يُبْطَحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرقَر، فَتَطَؤُهُ كُلُّ ذَاتِ ظِلْفٍ بِظِلْفِهَا وَتَنْطَحُهُ كُلُّ ذَاتِ قَرْنٍ بِقَرْنِهَا، لَيْسَ فِيهَا عَقصاء وَلَا عَضْبَاءُ، إِذَا جَاوَزَتْهُ أُخْرَاهَا أُعِيدَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ». قَالَ الْعَامِرِيُّ: وَمَا حَقُّ الْإِبِلِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: أَنْ تُعْطِيَ الْكَرِيمَةَ، وَتَمْنَحَ الغَزِيرَة، وَتُفْقِرَ الظَّهْرَ، وتَسقيَ اللَّبَنَ وتُطْرِقَ الْفَحْل»[1].

وجاء في الدر المنثور لجلال الدين السيوطي: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

«أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدُوَيْهْ، عَنْ عِكْرِمَةَ قالَ: سَأَلَ رَجُلٌ ابْنَ عَبّاسٍ: ما هَؤُلاءِ الآياتُ؟ ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، و﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ

(١) أخرجه الإمام أحمد بلفظه (١٦/ ٢٣٠-٢٣١ رقم ١٠٣٥٠)، وأصل الحديث عند مسلم في الصحيح (٢/ ٦٨٠ رقم ٩٨٧) وانظر: تفسير ابن كثير، ت: السلامة (٨/ ٢٢٣). تُطْرِقَ الفحل: في لسان العرب: الطَّرق: ماء الفحل، أي تُعيرُ فحل الإبل لِضراب الإناث وتلقيحها، وألا يُمنع إذا طُلِب، ولا يؤخذ عليه مقابل.

﴿يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]؟ قالَ: يَوْمُ القِيامَةِ حِسابُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وخَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ، كُلُّ يَوْمٍ أَلْفُ سَنَةٍ، و﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، قالَ: ذَلِكَ مِقْدارُ المَسِيرِ.

وأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وأَبُو يَعْلى، وابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ حِبّانَ، والبَيْهَقِيُّ في البَعْثِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قالَ: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ: ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ما أَطْوَلَ هَذا اليَوْمَ! فَقالَ: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ على المُؤْمِنِ حَتّى يَكُونَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِن صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ، يُصَلِّيها في الدُّنْيا»[1].

وأَخْرَجَ عبدالرَّزّاقِ، وعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، عَنْ إبْراهِيمَ التَّيْمِيِّ قالَ: قَدْرُ يَوْمِ القِيامَةِ عَلى المُؤْمِنِ قَدْرُ ما بَيْنَ الظُّهْرِ إلى العَصْرِ.

وأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، عَنْ عبداللهِ بْنِ عَمْرٍو قالَ: يَشْتَدُّ كَرْبُ يَوْمِ القِيامَةِ حَتّى يُلْجِمَ الكافِرَ العَرَقُ، قِيلَ: فَأَيْنَ المُؤْمِنُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قالَ: يُوضَعُ لَهم كَراسِيُّ مِن ذَهَبٍ، ويُظَلَّلُ عَلَيْهِمُ الغَمامُ، ويُقَصَّرُ ذَلِكَ اليَوْمُ عَلَيْهِمْ ويُهَوَّنُ، حَتّى يَكُونَ كَيَوْمٍ مِن أَيّامِكم هَذِهِ.

وأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، عَنِ الحَسَنِ قالَ: يَكُونُ عَلَيْهِمْ كَصَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ.

وأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حاتِمٍ، والحاكِمُ، والبَيْهَقِيُّ في البَعْثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

(١) أخرجه أحمد (١٨/ ٢٤٦ رقم١١٧١٧)، وأبو يعلى (٢/ ٥٢٧ رقم١٣٩٠)، وابن حبان (١٦/ ٣٢٩ رقم٧٣٣٤) باختلاف يسير.

مَرْفُوعًا قالَ: «ما قَدْرُ طُولِ يَوْمِ القِيامَةِ عَلى المُؤْمِنِينَ، إلّا كَقَدْرِ ما بَيْنَ الظُّهْرِ إلى العَصْرِ»[1].

هذا، وإنني أكتب هذه التأملات وقد تجاوزت السبعين عامًا، فوالله، وتالله، وبالله ما السبعون الماضية من عمري إلا كغمضة عين. لقد صار الماضي بأفراحه وأحزانه ذكريات، وكُلُّ عملٍ عملته مُسجّلٌ في صحائفي، أسأل الله المغفرة، والنجاة من خسارة نفسي.

أي والله، لا أكاد أُصدّق أنه قد انطوى من عمري سبعون عامًا. ربَّاه أعلم أن الكرام الكاتبين قد سجلوا ودوّنوا، كل أقوالي وأعمالي، حسناتي وسيئاتي، أسألك عفوك، وأتوسل إليك ربي أن ترزقني، وترزق كُلَّ قارئٍ وسامع لهذا الرجاء أن تجعلنا جميعًا من عبادك الذين قُلْتَ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٧].

إنه الفوز؛ تكفير السيئات، والجزاء بأحسن الأعمال.

وعن الزمن ورحيل البشر، يُخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخر سورة مريم، عن أُمم سابقة هلكوا وطواهم الزمن، وبادوا جميعًا، ولم يبق لهم عينٌ ولا أثر، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

أين أولئك؟ أين ذاك الوقت كيف انقضى وأين أهله؟

(١) الدر المنثور: جلال الدين السيوطي (٨/ ٢٨٠).

جاء في أضواء البيان لمحمد الأمين الشـــنقيطي، «وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، أيْ: هَلْ تَرى أحَدًا مِنهم، أوْ تَشْـــعُرُ بِـــهِ، أوْ تَجِدُهُ ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾، أيْ: صَوْتًـــا، وأصْلُ الرِّكْزِ: الصَّوْتُ الخَفِيُّ، ومِنهُ رَكَّزَ الرُّمْحَ: إذا غَيَّـــبَ طَرَفَهُ وأخْفاهُ في الأرْضِ، ومِنهُ الرِّكازُ: وهو دَفْنٌ جاهِلِيٌّ مُغَيَّبٌ بِالدَّفْنِ في الأرْض.

والمَعْنـــى: أهْلَكْنا كَثِيرًا مِـــنَ الأُمَمِ الماضِيَةِ، فَما تَـــرى مِنهم أحَدًا، ولا تَسْـــمَعُ لَهم صَوْتًا، وما ذَكَرَهُ في هَذِهِ الآيَةِ مِن عَدَمِ رُؤْيَةِ أشْخاصِهِمْ، وعَدَمِ سَماعِ أصْواتِهِمْ، ذَكَرَ بَعْضَهُ في غَيْرِ هَذا المَـوْضِعِ.

* كَقَوْلِهِ في عادٍ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٨].

* وقَوْلِهِ فِيهِمْ: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٥].

* وقَوْلِهِ: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥]»[1].

إن هذه الآيات الكريمة تنبيـــهٌ للغافل، وتحذيرٌ للعاصي، فمهما طال بك الزمـــن، ومهما نالك من صحـــةٍ وغنى، ومهما حظِيـــت به من جاهٍ وسلطان، فكل ذلك إلى زوال!

أين منْ كانوا بيننا ملءَ السمع والبصر؟

رأينا أكابر في عِزّةٍ وجبروت، ورحلوا مع الراحلين!

وتحدثنا مع أخيار صالحين غبروا مع الغابرين!

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن: محمد الأمين الشنقيطي (٣/ ٥١٨-٥١٩).

وكُلُّ أولئك لو سألتهم اليوم عن ماضيهم، لقالوا: ليس إلا ساعة من النهار.

إن الشقي مَنْ مضى وقته القصير، وكان له في الحساب وعدٌ ووعيد ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٩].

وإن السعيد منْ تدارك نفسه، وعمل في هذا الوقت السريع، وكان ممّن صحا واستدرك، فتاب وأناب قبل ساعة الفراق، يقول تعالى مبشرًا التائبين العاملين: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان:٧٠].

رزقنا الله توبة خالصة لله، وكتبنا من عباده الصالحين، الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

السِّراجُ المُنير

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

وصفَ اللهُ الشمسَ أن جعلها سراجًا؛ والسراجُ يفقدُ نورَهُ أحيانًا فيُظلِم، والشمسُ تغيبُ فيكون الظلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [نوح:١٦].

ووصف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القمرَ أن جعله منيرًا، ولكن إنارته تختفي بعض الأيام فيكون الظلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ [نوح:١٦].

وجمع عَزَّوَجَلَّ صفتي الشمس والقمر للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال تعالى واصفًا إيّاه: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٦]، فضوؤه ونُورُه دائمان، وهدايته خالدة لا تختفي، ولا تغيب لا في الليل ولا في النهار، إلّا أن تقوم الساعة! لقد جمع الله له صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذه الآيات ما للقمر والشمس من نور مجتمعين ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾.

وذكر الله في آيات هذا المجلس أوصافًا أُخرى للرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يشدوا بها قُرّاء كتابه صباح مساء، إنه الشرف والتشريف الربّاني، وهو الكرم والتكريم الإلهي، لسيد البشرية صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ!

إن في هذه الآيات العظيمة تأكيدًا لنبوته، ورسالته عَلَيْهِ السَّلَامُ لجَمِيعِ العالمين من إنسٍ وجنٍّ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وتقريرًا لشهادته عليهم، فقد بلغهم رسالة الله، وأشعرهم حكمة الله من خلقهم ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. جاء مُبشّرًا لهم بالجنة، ومُنذرًا لهم من النار، وداعيًا لطريق النجاة، كاشفًا منهج الخير، سراجًا منيرًا، يجلو ظلمة الباطل!

لقد عرَضَتْ آيات هذا المجلس لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصافًا خمسة صريحة واضحة، وزاد الشيخ ابن عثيمين، فقال: «هذه الأوصاف الخمسة التي بَيَّنها الله تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممكن أن نضيف إليها وصفًا سادسًا، ووصفًا سابعًا؛ الوصف السادس، قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، فإن هذا فيه إثبات الرسالة له، والوصف السابع قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، فإن فيه أيضًا إثباتًا للنبوة، وعلى هذا فالآية تضمنت سبعة أوصاف: النبوة، والرسالة، والشهادة، والبشارة، والإنذار، والدعوة إلى الله بإذنه، وكونه سراجًا منيرًا»[1].

قال الشيخ ابن سعدي: «هذه الأشياء، التي وصف الله بها رسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هي المقصود من رسالته، وزبدتها وأصولها، التي اختص بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه (**شَاهِدًا**)؛ أي: شاهدًا على أمته بما عملوه، من خير وشرٍّ، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء:٤١]. فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاهد عدل مقبول.

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأحزاب.

الثانـــي، والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، وهذا يســـتلزم ذكر المـــبَشَّر والمـُنْذَر، وما يُبشَّر به ويُنْذَر، والأعمال الموجبة لذلك.

فالمـــبَشَّر هم: المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالـــح، وترك المعاصي، لهم البشـــرى في الحياة الدنيـــا، بكل ثوابٍ دنيوي وديني، رتّب على الإيمان والتقوى، وفي الأخرى بالنعيم المقيم. وذلك كله يســـتلزم ذكر تفصيل المذكور؛ من تفاصيل الأعمال، وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والْمنْذَر هم: المجرمـــون الظالمون أهل الظلم والجهل، لهم النذارة فـــي الدنيا من العقوبات الدنيوية والدينيـــة المترتبة على الجهل والظلم، وفي الأخرى؛ بالعقاب الوبيل، والعذاب الطويل.

وهذه الجملة تفصيلهـــا، ما جاء به ﷺ، من الكتاب والســـنة، المشتمل على ذلك»[1].

ومما ورد في تفسير ابن كثير: «عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقلت: أخبرني عن صفة رســـول الله ﷺ في التوراة، قال: «أجل، والله إنـــه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحـــزاب:٤٥]، وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورســـولي، سميتك المتوكل، لست بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخّاب في الأســـواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح

(١) تفسير السعدي، (ص٦٦٧).

ويغفـــر، ولن يقبضه الله حتـــى يقيم به الملّة العوجاء، بـــأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»[1].

وقـــال البخاري فـــي البيوع: وقال ســـعيد عن هلال عـــن عطاء عن عبدالله بن ســـلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وقال وهب ابن منبـــه: إن الله تعالى أوحى إلى نبيٍ من أنبياء بني إســـرائيل يقال له شعياء: أن قمْ في قومك بني إسرائيل، فإني منطِقٌ لسانَك بوحي، وأبعث أمّيًّا من الأمّيين، أبعثه مبشِّرًا ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأســـواق، لو يمر إلى جنب ســـراج لم يطفئه من ســـكينته، ولو يمشي على القصب لم يســـمع من تحت قدميه، أبعثه مبشِّـــرًا ونذيرًا، لا يقول الخنا، أفتح به أعينًا كمهًـــا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا، أســـدّده لكل أمر جميل، وأهب له كلّ خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبِرَّ شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفـــو والمعروف خلقه، والحق شـــريعته، والعدل ســـيرته، والهدى إمامه، والإســـلام ملّته، وأحمد اســـمه، أهدي به بعد الضلال، وأعلّم به بعد الجهالـــة، وأرفع به بعد الخمالة، وأعـــرف به بعد النكرة، وأكثـــر به بعد القلّة، وأغني به بعد العيلـــة، وأجمع به بعد الفرقة، وأؤلِّف به بين أممٍ متفرقة، وقلوبٍ مختلفة، وأهواءٍ متشـــتتة، وأستنقذ به فئامًا من النـــاس عظيمة من الهلكة، وأجعل أمّته خير أمّة أُخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، موحّدين مؤمنين مخلصين مصدِّقين لما جاءت به رسلي، ألهمهم التســـبيح والتحميد والثناء والتكبير والتوحيد، في مساجدهم ومجالســـهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلّون لي

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٣٢٨ رقم٢١٢٥).

قيامًا وقعودًا، ويقاتلون في سبيل الله صفوفًا وزحوفًا، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتي ألوفًا، يطهّرون الوجوه والأطراف، ويشدّون الثياب في الأنصاف، قربانهم دماؤهم، وأناجيلهم في صدورهم، رهبانٌ بالليل، ليوثٌ بالنهار، وأجعل في أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين، أمّته من بعده، يهدون بالحقّ، وبه يعدلون، وأُعزُّ من نصرهم، وأؤيد من دعا لهم، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم، أو بغى عليهم، أو أراد أن ينتزع شيئًا مما في أيديهم، أجعلهم ورثة لنبيهم، والداعية إلى ربّهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويوفون بعهدهم، أختم بهم الخير الذي بدأته بأوّلهم، ذلك فضلي أوتيه من أشاء، وأنا ذو الفضل العظيم[1].

عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ وقد كان أمر عليًّا ومعاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن يسيرا إلى اليمن، فقال: «انطلقا، فبشّرا ولا تنفِّرا، ويسِّرا ولا تعسِّرا، إنه قد أنزل عليَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾؛ أي: بشيرًا للمؤمنين بجزيل الثواب، ونذيرًا للكافرين من وبيل العقاب. وقوله جلّت عظمته: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤٦]؛ أي: داعيًا للخلق إلى عبادة ربّهم، عن أمره لك بذلك، ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾؛ أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ [الأحزاب:٤٨]؛ أي: لا تطعهم وتسمع منهم في الذي

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٦/ ٤٣٨).

يقولونه، ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾؛ أي: اصفح وتجاوز عنهم، وكِل أمرهم إلى الله تعالى، فإن فيه كفاية لهم؛ ولهذا قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٨]»[1].

هذا وقد أورد الشيخ ابن عثيمين عددًا من فوائد الآية الكريمة، فقال: «من فوائد الآية: أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جمع بين البشارة والإنذار؛ لقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن رسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ داعٍ إلى الله؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾.

* ومن فوائدها: الإشارة إلى أنه يجب على الداعية أن تكون دعوته إلى الله تعالى، لا إلى حَظِّ نفسه؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، فإن هذا وصف الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

* ومن فوائدها: أن دعوة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى الله كانت بإذن منه؛ لقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، وهذه يتفرع عليها فائدة أخرى، وهي رضا الله عما كان الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو إليه؛ لأن الله لا يأذن إلا بما يحبّه ويرضاه.

* ومنها: أن دعوة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مبنيةٌ على شرع الله، بكيفيتها وفيما يدعو إليه؛ لقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾، فهو داعي إلى الله بإذنه؛ أي: على حسب أمره وبشرعه؛ فيدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل بالتي هي أحسن، وكذلك يدعو إلى شرع الله لا يتجاوزه.

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٦/ ٤٣٩).

* ومنهـــا: أن النبي ﷺ لا يمكن أن يُشَـــرِّع من عنـــده؛ لقوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾، لا بشيء من عنده.

* ومنها: أن ما يدعو إليه الرسول عليه الصلاة والسلام فهو من الله؛ فيتفرع على هذه الفائدة أن طاعة الرســـول طاعةٌ لله، ومعصية الرسول معصيةٌ لله؛ ولهذا لمـــا جاءت امرأة إلى ابن مســـعود رضي الله عنه، وقالت: إنك تقول: إن المتفلّجات للحُســـن ملعونات بكتاب الله. وإنني فتحت المصحـــف أو قرأت المصحف من فاتحته إلـــى خاتمته فلم أجد ذلـــك. فقال: بلى. ثم قرأ عليها الحديـــث، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

* ومن فوائد الآيـــة الكريمة: أن ما جاء بـــه النبي ﷺ فهو نورٌ كالسراج يضيء الظُّلَم؛ لقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل من حكم بشـــريعة النبي ﷺ فإنه على سراج منير لقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

* ومنها: فضيلة النبي ﷺ؛ حيث جمع الله له بين هذه الأوصاف العظيمة: النبوة، والرسالة، والشهادة، والبشارة، والإنذار، والدعوة إلى الله بإذنه، والسراج المنير سبعة»[1].

هـــذا وقد كان ﷺ في حياته وبعد مماته ســـراجًا منيرًا، مرت به محنٌ فصبر، سخر منه صناديد قريش ووجهاؤها، وأغروا السفهاء لأذيته، وبقي سراجًا منيرًا، وآذوا أصحابه فصَبَّرَهُم، وكان لهم سراجًا منيرًا. وفي

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأحزاب.

قرن الثعالــب كان وحيدًا، وقد بلغ منه التعب مبلغــه والأذى منه غايته، وآتاه جبريــل وملَك الجبال، وعرض عليه أن يُطبــق جَبَلَي مكة عليهم، فكان ســراجًا منيرًا، وقال: أَصْبِرُ، لعل الله يُخرج من أصلابهم عبادًا لله. ويحاصرونه وصحابته في الشــعب ثلاث ســنوات، فيكون لهم سراجًا منيرًا؛ يشــاطرهم الجــوع، ويتحمل معهم الأذى، ويُصــاب في معركة أُحُد؛ يَشُجّون رأسه، ويُدمون جســده الطاهر، فيظل سراجًا منيرًا؛ يُصَبِّر أَصْحَابَهُ، ويَعِدُهُم الخير. ويرحل إلى ربّه، وتظل رســالته ودعوته سراجًا منيرًا، محفوظة بحفظ الله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

الشَّيطان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء:٥٣].

إخبارٌ صادق، وحقيقــةٌ قطعية، أنه عدوٌ للجميع، هو إبليس لعنه الله، ظاهرةٌ عداوته، وقانا الله شــرَّه. وردت في القــرآن الكريم آيات متكررة في التحذير منه، وأخبرنا الله عن اســتكباره ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤].

لو زارَكَ صديقٌ تثق في قوله، وأخبرك برفقٍ عن شخصٍ أنه يكيد لك، وحذّرك منه، فحتمًا ستشكره، وتأخذ حذرك، فكيف بربِّ الكون وخالقه، يخبرنا بوجود إبليس وحقده، فيحذّرنا منه، ويؤكد لنا عداوته، وأنها واضحة جليّة، لقد تكررت آياتٌ واضحات، تُبيّن عداوة إبليس وتَكَبُّره وحَسَــده، وتكشــف بداية انطلاق المعركة التي قَدَّرها الله بين الإنسان وإبليس إلى الأجل المعلوم عند الله سبحانه، وتُشــير لميزةٍ اختص الله بها البشر دون سائر مخلوقاته؛ وهي العقل، وملَكةُ الاختيار، ولقد طُبِّقت هذه الميزة مع آدم وزوجه في الجنة؛ إذ نهاهُما الله عن الأكل من الشجرة، وحذَّرهما من إبليس، وترك لهما الخيار والقرار ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥]. ولكن إبليس

-لعنه الله- زَيَّن وخَدع، وأغرى آدم وزوجه أن يأكلا من الشجرة، وأقسم لهما أنه ناصحٌ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]، فصدّقاه، ونسيا تحذير الله، وأكلا، فالخيار والقرار كان لهما ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢٠-١٢١]، وأدرك آدم وحواء خطأهما، وندما وتابا ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فتاب الله عليهما ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢].

ونحن ذرّية آدم من بعده، يعلم الله أننا سنخطئ، فمَنَّ اللهُ علينا وأخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يقبل التوبة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥]، لكن ليس لنا تكرار الخطأ، وَوعْدُ النَّفسِ بالتوبة؛ إذ بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التَّوبَة الَتي يَعفُو عنها ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧]. يعفو عن الجهالة وليس العمد، عليمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصدق الصادق، وإخلاص المخلص، عليمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالسِّر وما هو أخفى من السِّر ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧].

وفي سورة الأعراف يأتي الحوار الربّاني مع إبليس، وكيف أعلن -لعنه الله- تكبره وحسده، وطلبه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإمهال؛ ليتسلّط على أبينا آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وذريته، ويصرفهم عن دروب الخير والعبادة، ويأخذهم لسُبل الضلال والغواية. إن آيات الأعراف تنبيهٌ لكل غافل، وتحذيرٌ لكل جاهل؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد كشف فيها حواره مع إبليس، وكيف زجره

وتوعــده، وأمهله وأجّله، وحذّر جَلَّجَلَالُهُ أبانــا آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وحذّرنا منه. إن لتلــك البداية الحواريــة نهاية، ولتلك الإرادة الربانية أجل، فمشــيئة الله ماضية، وقَــدَرُهُ آتٍ؛ فخَلْقُنا ليس لهــوًا ولا عبثًا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

هــو إبليس يرانا ولا نراه، وتلك إرادة ربّانية لحكمة يعلمها ســبحانه ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧].

الكهرباء نرى آثارها، ولكن لا نراها؛ لا نشــم لها رائحة، ولا نسمع لها صوتًا، ولا نرى لها شكلًا، إنما نرى فوائدها ومضارها؛ إن قَرَّبتَ منها بَنَانك أحرقتك، وإن وظفتها بذكائك نفعتك. وإبليس -لعنه الله- لا خير فيه، وإنما هو شــرٌ موجودٌ، هو كالكهرباء لا يُرى، هو نارٌ، إن اقتربتَ منه وطاوعته ورافقته، أوصلك للنار المحرقة.

«سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الرؤية في هذه الآية؛ هل ذلك عام لا يراهم أحد أم يراهم بعض الناس دُون بعض؟ وهل الجن والشــياطين جنسٌ واحد ولد إبليس أم جنسان: ولد إبليس، وغير ولده؟ فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: «الحمد لله: الذي فــي القرآن أنهم يَرَوْنَ الإنس من حيث لا يراهم الإنس، وهذا حقٌّ يقتضي أنهم يَرَوْنَ الإنسَ في حال لا يراهم الإنسُ فيها، وليس فيه أنهم لا يراهم أحدٌ مــن الإنس بحال؛ بل قد يراهم الصالحون وغير الصالحين أيضًا؛ لكن لا يرونهم في كل حال، والشياطين هم مَرَدَة الإنس والجن، وجميع الجن ولد إبليس، والله أعلم»[1].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥/ ٧).

إن الحوار بين إبليس -لعنه الله- والذات الإلهية يكشف حقد إبليس وحسده لأبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنه حوارٌ واضحٌ جَلِي، ولكن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ انخدع به وصدّقة حين أقسم له أنه ناصحٌ وصادق، وكانت الخطيئة ثمّ التوبة. هو إبليس خَدَّاعٌ لَعِينٌ، هَمُّه غوايتنا، وعملُه إضلالنا ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧]. تحذيرٌ صريحٌ لكل إنسان من إبليس، تحذيرٌ بيِّنٌ لا يحتاج لتفسيرٍ ولا توضيح.

وجاء في سورة الحجر تنبيهٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن إبليس -لعنه الله- سيأتينا من بوابة الزينة والجمال، فقد يكون في العسل واللبن هلاكنا ونحن لا نعلم، يكون الهلاك حين يخالطهما السم، وهو منهج إبليس السرّي يُخفيه عنا، ولكن الله الرحمن الرحيم أخبرنا بذاك السر الشيطاني، فحين طرده من الجنه ولعنه ومنحه مهلة، حذّرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه، ووضّح كيف ستكون غوايته؛ بتزيين المعاصي، وتجميل الشهوات، اقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر:٣٤-٤٢]. جعلنا الله من عباده المخلصين!

ويكشف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الإسراء، حقد إبليس على آدم وذريته، فقد غاظه أن الله جَلَّ جَلَالُهُ كرّم آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ورفعه فوقه. هو الكبر والحسد خُلُقٌ

إبليس وجِبلَّتِـهِ، فاحذرهما أخي في الله، احذر الحسـد والكبر، وتذكّر كيـف أخرجا إبليس من الجنة، وصار شـقيًّا مطـرودًا من رحمة الله، إن إبليس حين علم بشـقائه اسـتأذن الذات الإلهية، في أن يُمهله، ليسحب معه للشقاوة وللنار، منْ يسـتطيعُ سحبَه من ذرّية آدم. لقد أكرم الله البشر بالقرآن الخالـد، وبيّن فيه عداوة إبليس لهم، وحـواره معه، وإمهاله له، وكيـف توعّد إبليس ذرّيـة آدم بالغواية والضلال، وأنه سـوف يلازمهم ملازمة أحناكهم، لا ينفكّ عنهم. وقانا الله شرَّه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦١-٦٤].

إن حسد إبليس وتكبّره وتسـلّطه على الإنسان، قضاءٌ قدّرهُ اللهُ، فقد ميّز اللهُ الإنسـانَ وفضّله على كثيرٍ مـن خلقه ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسـراء:٧٠]. لقد جعل اللهُ الإنسانَ خليفتَهُ في أرضهِ، ونفخ فيه من روحهِ، ومنحه العقلَ، وجعل له حرّيةَ الاختيارِ، فكانت غيرة إبليس وغوايته، ودعوته الإنسـانَ لعصيان الله، وصار أمام كلّ إنسـان طريقان لا ثالث لهما؛ طريق الرحمن، أو سـبيل الشـيطان ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣].

إن إبليس، وإن تسلّط على الإنسـان، فوسوس وزيّن، فقد منحنا الله وسـيلة النجاة منه بقوله تعالـى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢].

جعلنا الله من عباده الصالحين.



الصَّابرون

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

رزقنا الله الصبر، وكتبنا من عباده الصابرين، وجعل الصبر معنا كل حين ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

تَنْشُدُ النفوسُ البشرية الأمانَ، ورخاءَ العيشِ، ووفرةَ الأموال، وسلامةَ الأبدان، وهذه المرْغُوبات أغيار؛ فيومٌ لك، ويومٌ عليك. هي الدنيا؛ أفراحٌ، وأحزانٌ، ودوام الحال من المُحال. وتأتي الابتلاءات للتمحيص والتمييز ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

وفي آيات هذا المجلس ترغيبٌ في الصبر وتَحَمُّلِ الألمِ، ووعدٌ من الله عَزَّوَجَلَّ بالخير، وحسن العقبى للصابرين!

إن الله سبحانه يخبر بابتلائه هؤلاء المُخاطبين، قال أبو جعفر الطبري: «هذا إخبارٌ من الله -تعالى ذِكْرُهُ- أتباعَ رَسولهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أنه مبتليهم وممتحنهم بشدائد من الأمور، ليعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، كما ابتلاهم فامتحنهم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى

الكعبة، وكما امتحن أصفياءَه قَبلهم. ووَعدهم ذلك في آية أخرى، فقال لهم: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [سورة البقرة:٢١٤].

عن ابن عباس قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ ﴾ [البقرة:١٥٥]، ونحو هذا، قال: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دارُ بلاء، وأنه مبتليهم فيها، وأمرَهم بالصبر، وبَشّرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ثم أخبرهم أنه فعل هكذا بأنبيائه وصَفوته، لتطيب أنفسهم، فقال: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة:٢١٤]»[١].

وفي آية هذا المجلس يُنَبِّهَ عَزَّوَجَلَّ أنه سوف يُصيبهم بشيء، والشيء يعني أنه قليل؛ أي قليل من الخوف؛ نخاف من الفقر، ونخاف من المرض، ونخاف من فُقدان الأمن، ونخاف من الجهل، ونخاف ونخاف. قال الزمخشري في تفسيره: «وإنما قلّل في قوله: ﴿بِشَىْءٍ﴾ ليُؤذن أن كُلَّ بلاء أصاب الإنسان، وإن جلَّ، ففوقه ما يقِلُّ إليه، وليُخَفِّف عليهم ويُريهم أن رحمتَه معهم في كل حال، لا تُزايلهم، وإنما وَعَدَهُم ذلك قبل كَوْنِه؛ ليوطِّنوا عليه نفوسهم»[٢].

هذا وقد عاش الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والصحابة هذه الابتلاءات فصبروا؛ عن أنس بن مالك أن فاطمة عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ جاءت بكسرة خبز إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «ما هذِهِ الكِسْرَةُ يا فاطمةُ؟ قالت: قُرصٌ خبَزْتُه فلم تَطِب نفسي

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢١٩).
(٢) الكشاف: الزمخشري (١/ ٢٠٧).

حتى أتيتك بهذه الكسرة، فقال: أما إنه أولُ طعامٍ دخلَ فمَ أبيكِ مَنذُ ثلاثةِ أيام»[1].

وطَرَقَتِ امرأةٌ تتضورُ جُوعًا وطفلتاها بيت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وما كان عند عائشة ما تقدمه سوى ثلاث تمرات. بيت النبوة مؤنتُهُ المُتوفّرة فيه ثلاث تمرات، تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فناولتها التمرات الثلاث، فأعطت الأم كل طفلة تمرة، وهمّت بأكل الثالثة، ولكن الصغيرتين ابتلعتا التمرتين، ونظرتا لأمهما وهي تهمّ بأكل الثالثة، فرحمت الأم الصغيرتين، وشقّت تمرتها نصفين، وناولتهما الطفلتين، وباتت الأم طاويةً على الجوع، صابرة شاكرة الله، وجاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تقول عائشة فحدَّثتُهُ، فقالَ: «**ما عجبُكِ، لقد دخلَت بِهِ الجنَّةَ**»[2]. إنه الصبر عاقبته خير.

تمرةٌ واحدةٌ لطفلتيها أدخلتها الجنة، نسأل الله من فَضلِه.

ويكون النقص والفقد للأموال، فكم من غنيٍّ افتقر، وتاجرٍ كسدت تجارته فصبر؛ احتسابًا، ونال الأجر. ويأتي الابتلاء في الأنفس؛ يفقد الأب ابنه، والأم فلذة كبدها، والأبناء والديهم، وكم وكم، فيصبرون ويسترجعون، فيكون لهم الأجر، وآخرون في لحظات فقدوا محاصيلهم الزراعية، برياحٍ عاتية، أو بردٍ نزلَ فجأةً فدمّر ثمارَ غرسهم، فصبروا، فالأرزاق بيد الله. إنه الصبر خير.

---

(١) أخرجه ضياء الدين المقدسي في الأحاديث المختارة (٧/ ١٦٦ رقم٢٥٩٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣١٥ رقم١٠٤٣٠)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢١٠ رقم٣٦٦٨)، وعبد بن حميد (رقم١٥٣٠)، قال في مصباح الزجاجة (٢/ ٢٢١): هذا إسناد صحيح، وأصله في الصحيحين. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة (رقم٢٩٧٣).

ويندب سبحانه أُولئك المُـــبْتَلين إلى الصبر والاسترجاع، ويُعلّمهم القول السديد ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

ويُطمئنُ ســبحانه تلك النفُوس الحزينة بالثواب العظيم؛ فالله يُصلي عليهم، ويرحمهم، ويصفهم بالمهتدين. وأكْرِم به من وصف!

ومما ذكره الشــيخ ابن عثيمين عند تفســيره لقولــه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة ١٥٥] قوله: «من هم الصابرون؟ هم الذين حبسوا أنفسهم عن التسخّط من قضاء الله، هؤلاء المصابرون في هذا الباب الذين حبسوا أنفسهم عن التسخّط من قضاء الله، ومقامات الإنسان عند المصيبة أربعة؛ أربعة مقامات.

نعم أربعة مقامات: التسخّط، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الشكر. التسخُّط محرم؛ ولهذا تبرأ النبي ﷺ ممن تسخط، قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»(١).

الصبر واجب؛ لأن الله تعالى أمر به في آيات كثيرة، والأصل في الأمر ما هو؟ الوجوب، ولأنه لا معنى لعدم التسخّط إلا الصبر، أما الرضا فإن في وجوبه لأهل العلم قولين، والصواب أنه سُــنّة، وليس بواجب، وأما الشكر فإنه مستحبٌّ بالاتفاق، وهو أعلى من الرضا.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦].

إذا أصابتهم المصيبة، وتحقّق وقوعها فيهم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ﴾ اللام تشير؟

(١) أخرجه البخاري (٩/ ٣٦ رقم٣٥١٩)، ومسلم (١/ ٩٩ رقم١٠٣).

للملك يعني إنا مُلكٌ لله، والمملوك يفعل فيه المالك ما شاء، فإذا كنا مُلكًا لله فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربّنا يفعل بنا ما شاء، أوجدنا وأمدّنا وأعدّنا، وإذا شاء منعنا، فله الأمر كله؛ نحن إلى الله، نحن لله، ثم مع ذلك بإقرارهم بالملك بأنهم مملوكون لله يرجون ثوابه؛ ولهذا يقولون: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، فنرجو الذي أصابنا بهذه المصيبة عند رجوعنا إليه أن يجزينا بأفضل منها، فهم جمعوا هنا بين الإقرار بالربوبية في قولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ وبين الإقرار والإيمان بالجزاء، بالجزاء الذي يستلزم العمل الصالح؛ لأنهم يقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، فنحن نرجو ثوابه مع أنه فعل بنا ما هو ملكه وبيده، وهذا جمعوا بين عمل القلب والنطق باللسان؛ عمل القلب الصبر، والنطق باللسان يقولون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وجاءت السنة بزيادة على هذا أيضًا بأن يقول الإنسان: «اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، واخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا»؛ يعني اجعل لي خلفًا خيرًا منها، فإذن نقول: ما أرشد الله إليه، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا، وأخلف لنا خيرًا منها؛ إذا قالها الإنسان مؤمنًا محتسبًا آجره الله عَزَّوَجَلَّ في مصيبته وأخلف له خيرًا منها.

والشاهد في هذا قصة أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت تحب ابن عمها أبا سلمة محبّة شديدة، ولما مات وكان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد حدّثها بهذا الحديث، قالت: «**اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها**»[1]، فكانت تفكر بنفسها تقول: من هو الذي سيصير خلفًا عن أبي سلمة؟ هي مؤمنة بأنه سيوجد خلفٌ خيرٌ منه، لكن من هو اللي بيصير؟ ما كان يجول في

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٣١ رقم٩١٨) من حديث أم سلمة.

فكرها أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سيكون، وسبحان الله من كان خلفًا؟ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أخلف الله لها خيرًا منه، ودعاء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ له عند موته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَافْسَحْ لَهُ فِي قَبْرِهِ وَنَوِّرْ لَهُ فِيهِ وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ**» يعني يكون خلفًا. ما الذي حصل؟ خلفه في عقبه أفضل خليفة، مَنْ؟

النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبقية الأدعية نرجو أنها أُجيبت؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ كريم جواد[1].

وقصة أم المؤمنين أُم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا التي أشار إليها الشيخ تحكي عاقبة الصبر عند أمّ سلمة؛ إذ صَحِبَتْها في سنوات عمرها ابتلاءاتٌ متنوعةٌ، فَصَبَرَتْ، منذ إسلامها وهي تعيش البلاء.

إن في سيرتها دروسًا للمعتبرين، فما أن أسلمت وزوجها أبو سلمة، إلا وقد طالهم أذى قريش، فهاجرا مع من هاجر إلى الحبشة. وكيف هي وسائل النقل ذلك الزمان؛ معاناةٌ وتعبٌ وشدةٌ وجُهْد. ثم عادت وزوجها من الحبشة، ولقيا في مكة الأذى، وعند ذلك قرّر أبو سلمة الهجرة إلى المدينة، فانطلق بأم سلمة مع طفلها سلمة، وعلم أهلها بالرحيل، فلحقوا بهم، وقالوا لأبي سلمة: هذه نفسُك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد، وانتزعوها منه، وعادت أم سلمة بطفلها، وانطلق أبو سلمة مُهاجرًا لوحده، وعلم رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لانترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا الطفل بينهم حتى خلعوا يد الصغير!

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة البقرة: ١٥٥.

ما أصبر أم سلمة؛ تفرّق الأحبة؛ زوجها سافر، وصغيرها تركته؛ شفقةً ورحمةً عند تجاذب الأيدي له؛ تركته وقلبها يتفطر ولهًا ورقَّة، ولهذا كانت تخرج كل غداة بالأبطح تبكي صغيرها حتى تُمسي نحو سنة!

يالها من سيدةٍ والهة، وأُمٍّ حزينة، قريبةٍ من طفلها بعيدة، تتقاطر دموعها صباح مساء على وليدها وقد حُرمت منه!

ومع البكاء والحنين رقَّ لها أحد ذويها، فقال لرهطه: ألا تتركون هذه المسكينة؟ فَرَّقْتُم بينها وبين زوجها وولدها، فاستجابوا لرأيه، وقالوا لها: إن شئت فالحقي بزوجك، فاسترجعت ابنها من آل سلمة!

ومضت لتُهاجر إلى المدينة بصحبة صغيرها! تقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «فارتحلت ببعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحدٌ من خلق الله، فقلت: أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بنى عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله، إلا الله وبنيَّ هذا.

قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلًا من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم

استأخر عني، حتى إذا نزلت عنه استأخر ببعيري، فحطّ عنه، ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحّى إلى الشجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحّله، ثم استأخر عنّي، فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاد بي حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية -وكان أبو سلمة بها نازلًا - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما علمت أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قطّ أكرم من عثمان بن طلحة»[1].

وقال الشيخ ابن عثيمين في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾ [البقرة:١٥٧]: «الصلوات اختلف العلماء في معناها، ولكن أصح الأقوال فيها أن المراد بها الثناء عليهم في الملأ الأعلى، فالمعنى أن الله يثني على هؤلاء في الملأ الأعلى؛ رفعًا لذكرهم، وإعلاءً لشأنهم.

وقوله: ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ يعني يحصل لهم بها المطلوب؛ لأن الرحمة إما حصول مطلوب، وإما زوال مكروه، فهنا الرحمة تشمل الأمرين: زوال المكروه، وحصول المحبوب.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧] هذه جملة اسمية مسوقة على سبيل الحصر، ما طريق الكلام الذي يقولونه مع الصبر هو الهداية، عكس هؤلاء الذين لا يصبرون على المصائب؛ لا بقلوبهم، ولا بألسنتهم، ولا بجوارحهم، مهتدون وإلّا ضالّون؟

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ١٥٠)، والسيرة النبوية الصحيحة (ص٢٣٣-٢٣٤).

ضالّون، ولهذا جعل النبـــي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جعل ذلك من أعمال الكفر، فقال: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَـــبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[1]. والنياحة عنوان على عـــدم الصبر، فدلّ ذلك على أن الهداية في الصبر، وتســـليم الأمر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وانتظار ثوابه واحتســـابه، وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾»[2].

نسأل الله أن يرزقنا الصبر والثبات.

(١) أخرجه مسلم (١/ ٨٢ رقم٦٧) من حديث أبي هريرة.
(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة البقرة: ١٥٧.

الصِّدِّيقُون

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

أربع فئات؛ النبيّون، والصِّدِّيقون، والشّهداء، والصّالحون.

قال الشيخ ابن سعدي: «كلّ مَنْ أطاع الله ورسوله، على حسب حاله، وقدر الواجب عليه، من ذكرٍ وأنثى، وصغيرٍ وكبير، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الذين فضّلهم الله بوحيه، واختصّهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾، وهم: الذين كمُلَ تصديقُهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدّقوه بيقينهم، وبالقيام به قولًا وعملًا، وحالًا ودعوة إلى الله، ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله فقتلوا، ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين صلح ظاهرهم وباطنهم فصلحت أعمالهم. فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء في صحبتهم، ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأُنْس بقربهم في جوار ربّ العالمين»[1].

(١) تفسير السعدي (ص٣٤٥).

هذا وقد خَصَّصْتُ هذه الجلسة للحديث عن الصديقين؛ إذ جاء في تفسير البغوي: «﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ أَفَاضِلُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالصِّدِّيقُ الْمُبَالِغُ فِي الصِّدْقِ»[1].

قال ابن قيم الجوزية: «فأما تقديم النبيين على الصديقين؛ فلكون الصديق تابعًا للنبي ﷺ، فإنما استحق اسم الصديق بكمال تصديقه للنبي، فهو تابع محض. وقال: «وتأمل تقديم الصديقين على الشهداء؛ لفضل الصديقين عليهم، وتقديم الشهداء على الصالحين لفضلهم عليهم»[2].

ومما قاله ابن عثيمين حول الصِّدِّيق: «هو الذي صدّق بالحق، وقال بالصدق، بيَّنَهُ قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر:٣٣]. فالصِّدِّيق هو الذي قال بالصدق وصدّق بالحق. وأفضل الصِّدِّيقين هو أبو بكر رضي الله عنه؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم، وأبو بكر أفضل هذه الأمة، فيكون أفضل الصديقين هو أبو بكر رضي الله عنه»[3].

وقال الشيخ كذلك: «﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ عام يشمل كل أحد حتى النبي عليه الصلاة والسلام صدّق بأنه رسول الله، فكان يقول أحيانًا: «أَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ»، فقد صدّق بأنه رسول الله، وأن ما أنزل إليه من ربه هو الحق، وأول من يدخل في هذه الآية بعد الرسول ﷺ أبو بكر الصديق، فإن أبا بكر الصديق رضي الله عنه صدّق، جاء بالصدق وصدّق به»[4].

---

(١) تفسير البغوي (٢/ ٢٤٧).
(٢) بدائع الفوائد: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، ابن قيم الجوزية (ص٤٧).
(٣) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة النساء.
(٤) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الزمر.

لقد اشـــتهر أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلقب الصديق، كان قبل الإسلام قريبًا من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصديقًا له، يراه مثله الأعلى، وصَفَتْ أمُّ سلمة تلك العلاقة، فقالت: «كان خِدْنًا لمحمد وصفيًّا له». ومنذ أن بدأ رســـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة قومه للإســـلام؛ صدّقه أبو بكر، وقال عبارته المشهورة: إن كان قالها فقد صدق.

قدمت قافلة قريش من الشام وفيها أبو بكر، وما أن أبصرها أهلُ مكة مُقبلة عليهم، حتى أســـرعوا إليها يتقدّمهم أبو جهـــل، وتعانق القادمون بالمستقبلين.

وفجـــأة تكلّم أبو جهل، فقـــال لأبي بكر: أو حدّثـــوك عن صاحبك يا عتيق؟ يقصد أبا بكر، كان يُعرف بهذا الاسم قبل الإسلام.

قال أبو بكر: أتقصد محمد الأمين؟

قال أبو جهل: نعم أقصده.

قال أبو بكر: وماذا جرى له؟

قال أبو جهل: محمد صاحبك يقول: إن في الســـماء إلهًا، أرسله إلينا لنعبده، ونذر ما كان يعبده آباؤنا!

قال أبو بكر: أو قال إن الله أوحى إليه؟

قال أبو جهل: أجل قال ذلك.

قال أبو بكر: ألم يقل كيف كلّمه ربُّه؟

قال أبو جهل: يقول إن جبريل أتاه في غار حراء.

ويتهلّل وجه أبي بكر كالقمر، ويقول بكل ثقةٍ وهدوءٍ كلمته الخالدة:

إن كان قالها، فقد صدق.

وأحسب الأرض قد دارت بأبي جهل، وكاد يسقط، فما كان يتوقع سماع هذا القول الثابت، هذا القول الصادم للكفر، هذا القول اللاطم للحقد والكراهية، وكأني بأبي جهل، قد هذر وتمتم حانقًا على أبي بكر، ولكن أبا بكر مضى وتركه يهذي يُحرقه غيظهُ وحسدُه!

وتناقل الناس حوار أبي بكر وأبي جهل، إلا أن مقولة أبي بكر: «إن كان قالها فقد صدق» طارت، وصار لها صدىً ودويًّا كدويِّ النّحل في مكة!

ودخلت القافلة مكة، وأمَّ القادمون دورهم، وسأل أبو بكر عن رفيقه وصديقه محمد الأمين، وذهب إليه مسرعًا، وهناك قرع باب المصطفى ﷺ، وأسرع الرسول إليه مستقبلًا، وما أن جلس أبو بكر حتى قال: أصحيح ما أنبأني به القوم يا محمد؟

فقال الرسول ﷺ: **وماذا بلغك؟**

قال أبو بكر: يقولون: إنك تقول: إن الله أرسلك إلينا لنعبده، ولا نشرك به شيئًا.

قال الرسول: **وماذا كان جوابك لهم؟**

قال أبو بكر: قلتُ لهم: إن كان قال فقد صدق.

ورأى أبو بكر عينا رسول الله ﷺ وقد فاضتا بالدمع غِبطةً بما سمع، وعانق صاحبه وقبّل جبينه، ومضى رسول الله ﷺ يقصّ على أبي بكر كيف جاءه الوحي في غار حراء.

وتلا عليه قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥].

وطأطأ أبو بكر رأسه في خشوع وأدب، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

ويتكرر موقف التصديق مرة أخرى، فبعد أن أُسْرِيَ بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، وعرج به إلى السماء السابعة، ثم عاد إلى مكة في ليلته، يمر أبو جهل -رأس الكفر وفرعون هذه الأمة- بالنبي ﷺ، والنبي في حال تفكّرٍ وصمت، بعد حادثة الإسراء والمعراج، فيراه جالسًا وحده في المسجد الحرام صامتًا مفكرًا، فأراد أن يؤذي الرسول ببعض سخرياته، فاقترب منه وسأله: «أو لم يأتك الليلة شيءٌ جديد؟».

فرفع الرسول رأسه نحوه، وأجابه بجدٍّ وحزم «**نعم**».

فقال أبو جهل: وما ذاك؟! فقال النبي ﷺ: «**إنه قد أسري بي الليلة إلى بيت المقدس بالشام**».

فقال أبو جهل مستنكرًا: وأصبحت بين أظهرنا!

قال عليه الصلاة والسلام: **نعم**، وهنا صاح أبو جهل فى جنون: «يا بني كعب يا بني لؤي، يا بني فلان، يا بني فلان، هلّموا، هلّموا»!

فأقبلت قريش ينادي بعضها بعضًا، ولم يكن الرسول قد حدّث أحدًا من أصحابه المؤمنين بنبأ الإسراء بعد، وتجمّع الناس عند الكعبة.

ومضى أبو جهل يحدّثهم في تهكّم بما سمع، فقد حسبها الفرصة المواتية التى سَينْفَضُّ بسببها عن الرسول كُلُّ مَن آمن به.

وتقدَّم أحد المسلمين، وسأل الرسول: «أحقًّا أُسري بك الليلة يا رسول الله؟ «فأجاب الرسول: **نعم وصلّيت بإخواني الأنبياء هناك**».

قال ﷺ عن ذلك الموقف: «**لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فَكَرُبْتُ كُرْبةً ما كَرُبتُ مثلها قط. قال: فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألونني عن شيءٍ إلا نبّأتهم به**»[1].

وقد افتتن المشركون؛ فمن بين مُصفّقٍ، ومن بين واضعٍ يده على رأسه متعجبًا، ولكنهم اضطروا للاعتراف بصحة وصفه لمسجد بيت المقدس»[2].

وقد سرى في جمع الحضور خليط مشاعر متباينة، فرح وترحيبٌ من المشركين بما سمعوا ظانّين أن في هذا النبأ نهاية رسول الله، وساورت الشكوك فريقًا من المسلمين الذين لم يتعمّق الإيمان في قلوبهم، كان موقفًا صعبًا عليهم، تحار فيه العقول وتذهل له القلوب.

طرب زعماء الكفر بما سمعوا وتساورا بينهم: اليوم يكذِّبه أصحابه،

(١) السيرة النبوية الصحيحة (ص٢٢٠). والحديث في صحيح مسلم (١/ ١٥٦ رقم١٧٢).
(٢) السيرة النبوية الصحيحة (ص٢٢٠).

وأسرع بعض رجالات قريش إلى بيت أبي بكر فرحين شامتين، لا يخالجهم ريب في أنهم سيعودون ومعهم ردّته عن هذا الدين، فأبو بكر يعرف أكثر من غيره ما يحتاجه قطع المسافة بين مكة والشام من سفرٍ مُضْنٍ وزمانٍ طويل، فكيف بالذي راح ورجع وصلّى هناك، كل ذلك في بضع ساعات!.

وما أن بلغوا دار أبي بكر، حتى صاحوا به يُنادونه، فخرج لهم تُجَمِّلُهُ سكينتُه ووقارُه وسألهم: «ماذا وراءكم؟ «قالوا: صاحبك. فانتفض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: ويحكم هل أصابه سوء؟! فضحكوا ساخرين.

وقال أحدهم: لا، ولكنه عند الكعبة يحدث الناس: أن ربَّه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس، وتقدم آخر يكمل الحديث ساخرًا، فقال: ويزعم أنه ذهب ليلًا، وعاد ليلًا، وأصبح بين أظهرنا.

وهنا يتجلى الإيمان الراسخ، الذي تتحطم على صخرته كُلُّ وساوس الشيطان وإرجافه وأباطيله، فيتهلّل وجه أبي بكر بِشْرًا، ويقول لهم: أيُّ بأسٍ في ذلك! يعجب من عجبهم، ويستنكر استنكارهم، ويقول في ثقةٍ وطُمأنينة: إني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك! أُصدِّقهُ في خبر السماء يأتيه في غُدْوةٍ أو رَوْحَةٍ، ثم قال عبارته الشهيرة «إن قال ذلك فقد صدق».

وحنق الكفار، وخنسوا، وفغروا أفواههم. ثم انطلق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُهرولًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو جالسٌ قرب الكعبة، وكفار قريش حوله يسخرون منه. وبعض المؤمنين في تردّدهم واقفين. فاخترق صفوف المكذبين بإيمانه. واخترق صفوف المتردّدين بثباته. حتى وصل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأله

سؤال المؤمن المسلم: يا رسول الله: أأسري بك الليلة إلى بيت المقدس ثم رجعت؟ فنظر النبي إليه وإلى لهفة ترقّبه. وإلى لمعان التصديق والتسليم بين عينيه. وقال: **نعم**.

فقال أبو بكر: صدقت، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **وأنت يا أبا بكر الصديق**.

أي والله صدّيق صادق؛ ما تردّد وتشكّك، ولا تلكّأ وناقش، ولا استفسر وتساءل، سؤال مختصر، وجواب مختصر، وتصديقٌ، تَتَعجَّبُ الدنيا منه.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يومٍ: «**ما لأحد عندنا من يدٍ إلا وقد كافأناه بها، ما خلا أبا بكر، فإن له عندنا يدًا يكافئه بها الله يوم القيامة، وما نفعني مالُ أحدٍ قط، مثلما نفعني مال أبي بكر، وما عرضت الإسلام على أحدٍ إلا كانت له كبوة، عدا أبي بكر، فإنه لم يتلعثم**»[1]. إنه الصِّدِّيق وكفى!

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أصبح منكم اليوم صائمًا؟**» قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنا، قال: «**فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن أطعم اليوم منكم مسكينًا؟**» قال أبو بكر: أنا، قال: «**فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟**» قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخل الجنة**»[2].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعلى مراتب الصدق: مرتبةُ الصّديقيَّة، وهي

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٥٦٦١)، مع زيادة: «لوكنت متخذًا خليلًا».. إلخ.
(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٧١٣ رقم١٠٢٨، ١٠٢٩).

كمالُ الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص لله»[1]، فمن اتَّبع الصّدِّيقين على ما هم عليه من الصّدق والتصديق، والتقوى والصلاح: كان منهم وحُشر معهم.

ولذلك ما سبق أبو بكر بكثير صيام، ولا كثير صلاة، وإنما سبق بشيءٍ وقر في قلبه.

وقال ابن القيّم كذلك في تفسيره: «الصِّدِّيقِيَّةُ: كَمالُ الإخْلاصِ والإنْقِيادِ، والمُتابَعَةَ لِلْخَبَرِ والأمْرِ، ظاهِرًا وباطِنًا، حَتّى إنَّ صِدْقَ المُتَبايِعَيْنِ يُحِلُّ البَرَكَةَ في بَيْعِهِما، وكَذِبَهُما يَمْحَقُ بَرَكَةَ بَيْعِهِما، كَما في الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزامٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**البَيِّعانِ بِالخِيارِ ما لَمْ يَتَفَرَّقا؛ فَإنْ صَدَقا وبَيَّنا بُورِكَ لَهُما في بَيْعِهِما، وإنْ كَذَبا وكَتَما مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِما**»[2].

جعلنا الله وإياكم من عباده الصِّدِّيقين.

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٢/ ٢٧٠).
(٢) الحديث أخرجه البخاري (٥/ ٢٥٣ رقم٢٠٧٩)، ومسلم (٣/ ١١٦٤ رقم١٥٣٢)، وانظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: ابن قيم الجوزية (٢/ ٢٧٣).

الصِّراطُ المستقيم

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة].

ندعو الله ونرجوه هداية الصراط المستقيم، والبعض منا يغفل عن أهمية هذه الدعوة والحاجة إليها، ونُكرر هذا الدعاء يوميًّا في قراءتنا الفاتحة في فروض الصلوات الخمس اليومية، وفي النوافل، لكن هل نقرؤوها بقلوبنا؟ وهل يستوقفنا تدبّرها؟ أم على قُلُوبٍ أقفالها!

هو دعاءٌ يأتي بعد تمجيد الله، والثناء عليه، والإقرار له بالعبودية، وإفراده بالاستعانة!

دعاءٌ لرؤية الطريق المستقيم ومعرفته بقلوبنا.

دعاءٌ بالاستقامة والثبات على الطريق المستقيم بعد معرفته. فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرتان لهداية الله ورعايته ورحمته.

إن هداية الطريق المستقيم والالتزام به سعادة الدنيا والآخرة.

إن هذا الدعاء حوى الشرف كله؛ فكونه من الله شرف، ومعلّمه الأول

هو الله شـــرف، وإبلاغنا به من رسول الله ﷺ شرف، وتخليد القرآن له شرف!

قال أبو جعفر الطبري في تفســـيره: «أجمعـــت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن «الصراط المستقيم»، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه»[1]. وقال ابن كثير: «اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي تَفْسِيرِ الصِّرَاطِ، وَإِنْ كَانَ يَرْجِعُ حَاصِلُهَا إلى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ الْمُتَابَعَةُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُول ﷺ»[2].

وجاء في فتاوى شـــيخ الإســـلام ابن تيمية: قَالَ شَـــيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد ابْنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَـــى: «وَالْعَبْدُ مُضْطَرٌّ دَائِمًا إلى أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ الصِّرَاطَ الْمُسْـــتَقِيمَ، فَهُوَ مُضْطَرٌّ إلى مَقْصُودِ هَذَا الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَا نَجَاةَ مِن الْعَذَابِ، وَلَا وُصُولَ إلى السَّـــعَادَةِ إلَّا بِهَذِهِ الْهِدَايَـــةِ، فَمَنْ فَاتَهُ؛ فَهُوَ إمَّـــا مِن الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِـــمْ، وَإِمَّا مِن الضَّالِّينَ، وَهَـــذَا الْهُدَى لَا يَحْصُلُ إلَّا بِهُـــدَى اللهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يُبَيِّنُ فَسَـــادَ مَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ. وَأَمَّا سُـــؤَالُ مَنْ يَقُولُ فَقَدْ هَدَاهُمْ فَلَا حَاجَةَ بِهِمْ إلى السُّـــؤَالِ، وَجَوَابُ مَنْ أَجَابَهُ بِأَنَّ الْمَطْلُوبَ دَوَامُهَا كَلَامُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ الْأَسْـــبَابِ وَمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ؛ فَإِنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْـــتَقِيمَ أَنْ يَفْعَلَ الْعَبْدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا أُمِرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَـــلٍ، وَلَا يَفْعَلُ مَا نُهِيَ عَنْهُ، وَهَذَا يَحْتَاجُ فِي كُلِّ وَقْتٍ إلى أَنْ يَعْلَـــمَ وَيَعْمَلَ مَا أُمِرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْـــتِ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ، وَإِلَى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ إرَادَةٌ جَازِمَةٌ لِفِعْلِ الْمَأْمُورِ، وَكَرَاهَةٌ جَازِمَـــةٌ لِتَرْكِ الْمَحْظُورِ، فَهَذَا الْعِلْمُ

(١) تفسير الطبري (١/ ١٧٠).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٧).

الْمُفَصَّلُ وَالْإِرَادَةُ الْمُفَصَّلَةُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ تَحْصُلَ لِلْعَبْدِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، بَلْ كُلُّ وَقْتٍ يَحْتَاجُ إلى أَنْ يَجْعَلَ اللهُ فِي قَلْبِهِ مِن العُلُومِ وَالْإِرَادَاتِ مَا يَهْتَدِي بِهِ فِي ذَلِكَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. نَعَمْ حَصَلَ لَهُ هُدًى مُجْمَلٌ بِأَنَّ القرآن حَقٌّ، وَالرَّسُولَ حَقٌّ، وَدِينَ الْإِسْلَامِ حَقٌّ، وَذَلِكَ حَقٌّ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمُجْمَلَ لَا يُغْنِيهِ إِنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ هُدًى مُفَصَّلٌ فِي كُلِّ مَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ مِن الجُزْئِيَّاتِ الَّتِي يَحَارُ فِيهَا أَكْثَرُ عُقُولِ الْخَلْقِ، وَيَغْلِبُ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتُ أَكْثَرَ عُقُولِهِمْ؛ لِغَلَبَةِ الشَّهَوَاتِ وَالشُّبُهَاتِ عَلَيْهِمْ. وَالْإِنْسَانُ خُلِقَ ظَلُومًا جَهُولًا، فَالْأَصْلُ فِيهِ عَدَمُ الْعِلْمِ، وَمَيْلُهُ إلى مَا يَهْوَاهُ مِن الشَّرِّ، فَيَحْتَاجُ دَائِمًا إلى عِلْمٍ مُفَصَّلٍ يَزُولُ بِهِ جَهْلُهُ وَعَدْلٍ فِي مَحَبَّتِهِ وَبُغْضِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَفِعْلِهِ وَتَرْكِهِ وَإِعْطَائِهِ وَمَنْعِهِ وَأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَنَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ، فَكُلُّ مَا يَقُولُهُ وَيَعْمَلُهُ يَحْتَاجُ فِيهِ إلى عِلْمٍ يُنَافِي جَهْلَهُ وَعَدْلٍ يُنَافِي ظُلْمَهُ، فَإِنْ لَمْ يَمُنّ اللهُ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ الْمُفَصَّلِ وَالْعَدْلِ الْمُفَصَّلِ كَانَ فِيهِ مِن الجَهْلِ وَالظُّلْمِ مَا يَخْرُجُ بِهِ عَن الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ بَعْدَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَبَيْعَةِ الرِّضْوَانِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:١-٢]. فَإِذَا كَانَ هَذِهِ حَالُهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا فَكَيْفَ حَالُ غَيْرِهِ. و(الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمِ قَدْ فُسِّرَ بِالقرآن وَبِالْإِسْلَامِ وَطَرِيقِ الْعُبُودِيَّةِ)، وَكُلُّ هَذَا حَقٌّ. فَهُوَ مَوْصُوفٌ بِهَذَا وَبِغَيْرِهِ، فالقرآن مُشْتَمِلٌ عَلَى مُهِمَّاتٍ وَأُمُورٍ دَقِيقَةٍ وَنَوَاهٍ وَأَخْبَارٍ وَقَصَصٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِنْ لَمْ يَهْدِ اللهُ الْعبد الَيْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِهَا ضَالٌّ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ «الْإِسْلَامُ» وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِن المَكَارِمِ وَالطَّاعَاتِ وَالْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَكَذَلِكَ «الْعِبَادَةُ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ». فَحَاجَةُ الْعبد الى سُؤَالِ هَذِهِ الْهِدَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ فِي سَعَادَتِهِ وَنَجَاتِهِ وَفَلَاحِهِ؛ بِخِلَافِ حَاجَتِهِ إلى الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ، فَإِنَّ اللهَ يَرْزُقُهُ، فَإِذَا

انْقَطَعَ رِزْقُهُ مَـاتَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ مِـنْ أَهْلِ الْهُدَى بِهِ كَانَ سَـعِيدًا قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ، وَكَانَ الْمَوْتُ مُوَصِّلًا إلى السَّـعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَكَذَلِكَ النَّصْرُ إذَا قُدِّرَ أَنَّهُ غُلِبَ حَتَّى قُتِلَ فَإِنَّهُ يَمُوتُ شَـهِيدًا، وَكَانَ الْقَتْلُ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْحَاجَةَ إلى الْهُدَى أَعْظَمُ مِن الحَاجَةِ إلى النَّصْرِ وَالرِّزْقِ، بَلْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّهُ إذَا هُدِيَ كَانَ مِن المُـتَّقِينَ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطـلاق:٢-٣]، وَكَانَ مِمَّنْ يَنْصُرُ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ نَصَرَ اللهَ نَصَرَهُ اللَّهُ، وَكَانَ مِنْ جُنْدِ اللهِ وَهُم الغَالِبُونَ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ هُوَ الْمَفْرُوضُ. وأَيْضًـا فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الرِّزْقَ وَالنَّصْرَ؛ لِأَنَّهُ إذَا هُدِيَ ثُمَّ أَمَرَ وَهَدَى غَيْـرَهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَرُؤْيَتِهِ، فَالْهُدَى التَّامُّ أَعْظَمُ مَا يَحْصُلُ بِهِ الرِّزْقُ وَالنَّصْرُ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ جَامِعٌ لِكُلِّ مَطْلُوبٍ، وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ لَك أَنَّ غَيْرَ الْفَاتِحَـةِ لَا يَقُومُ مَقَامَهَا، وَأَنَّ فَضْلَهَا عَلَى غَيْرِهَا مِن الكَلَامِ أَعْظَمُ مِنْ فَضْلِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ عَلَى سَائِرِ أَفْعَالِ الْخُضُوعِ، فَإِذَا تَعَيَّنَت الأَفْعَالُ فَهَـذَا الْقَوْلُ أَوْلَى، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا»[1].

وأورد ابن كثير التسـاؤل التالي قائلًا: «فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الْهِدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ؟ فَهَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَمْ لَا؟

فَالْجَـوَابُ: أَنْ لَا، وَلَوْلَا احْتِيَاجُهُ لَيْلًا وَنَهَارًا إلى سُـؤَالِ الْهِدَايَةِ لَمَا أَرْشَـدَهُ اللهُ إلى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ مُفْتَقِرٌ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إلى اللهِ تَعَالَى فِي تَثْبِيتِهِ عَلَى الْهِدَايَةِ، وَرُسُوخِهِ فِيهَا، وَتَبَصُّرِهِ، وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا، وَاسْتِمْرَارِهِ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٣٧-٣٨).

عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، فَأَرْشَدَهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يَمُدَّهُ بِالْمَعُونَةِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوْفِيقِ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي إِذَا دَعَاهُ، وَلَا سِيَّمَا الْمُضْطَرُّ الْمُحْتَاجُ الْمُفْتَقِرُ إِلَيْهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦]. فَقَدْ أَمَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْإِيمَانِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ تَحْصِيلُ الْحَاصِلِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ الثَّبَاتُ وَالِاسْتِمْرَارُ وَالْمُدَاوَمَةُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمُعِينَةِ عَلَى ذَلِكَ»[1].

وقال الشيخ الشعراوي: «من رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه علّمنا ما نطلب. وهذا يستوجب الحمد لله. وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

والهداية نوعان: هداية دلالة، وهداية معونة. هداية الدلالة هي للناس جميعًا. وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط المتّبعين لمنهج الله. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هدى كل عباده هداية دلالة؛ أي دلّهم على طريق الخير وبيّنه لهم. فمَنْ أراد أن يتّبع طريق الخير اتبعه. ومَنْ أراد ألّا يتّبعه تركه الله لما أراد.

هذه الهداية العامة هي أساس البلاغ عن الله. فقد بَيَّنَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في منهجه بافعل ولا تفعل ما يرضيه وما يغضبه. وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه لنهتدي. والطريق الذي لو سلكناه حقّ علينا غضب الله وسخطه.

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٣٩).

ولكن هـل كل مَنْ بيّن له الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طريـق الهداية اهتدى؟ نقول: لا. واقرأ قولـه جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧].

إذن، هناك مَنْ لا يأخذ طريق الهداية بالاختيار الذي أعطاه الله له. فلو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أرادنا جميعًا مهديين. ما استطاع واحد من خلقه أن يخرج على مشـيئته. ولكنه جَلَّ جَلَالُهُ خلقنا مختاريـن؛ لنأتيه عن حبٍّ ورغبة، بدلًا مـن أن يقهرنا على الطاعة. ما الذي يحدث للذيـن اتبعوا طريق الهداية والذين لم يتّبعوه وخالفوا مراد الله الشرعي في كونه؟ الذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه، ويحبّبهم في الإيمان والتقوى، ويحبّبهم فـي طاعته. واقـرأ قولـه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

أي إن كلّ مـن يتخذ طريق الهداية يعينه الله عليه. ويزيده تقوى وحبًّا في الدين. أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه. فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يتخلّى عنهم ويتركهم فـي ضلالهم. واقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد بَيَّنَ لنا المحرومين من هداية المعونة على الإيمان، وهم ثلاثة كما بَيَّنَهُم لنا في القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل:١٠٧].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة:١٠٨].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:٢٥٨].

إذن، فالمطرودون من هداية الله في المعونة على الإيمان هم؛ الكافرون، والفاسقون، والظالمون.

الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ما هو الصراط؟ إنه الطريق الموصلة إلى الغاية. ولماذا نصّ على أنه الصراط المستقيم؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وضع لنا في منهجه الطريق المستقيم. وهو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية. فأقصر طريق بين نقطتين هو الطريق المستقيم؛ ولذلك إذا كنت تقصد مكانًا، فأقصرُ طريق تسلكه هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه، ولكنه مستقيم تمامًا.

ولا تحسب أن البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير، بل باعوجاج صغير جدًّا، ولكنه ينتهي إلى بُعد كبير.

ويكفي أن تراقب قضبان السكة الحديد. عندما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذي كان يسلكه، فهو لا ينحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات. أي إن أول التحويلة ضيق جدًّا، وكلّما مشيت اتسع الفرق، وازداد اتساعًا؛ بحيث عند النهاية تجد أن الطريق الذي مشيت فيه يبعد عن الطريق الأول عشرات الكيلو مترات، وربما مئات الكيلو مترات. إذن فأي انحراف مهما كان بسيطًا يبعدك عن الطريق المستقيم بعدًا كبيرًا، ولذلك فإن الدعاء: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾؛ أي الطريق الذي ليس فيه

اعوجاج ولو بضعة ملليمترات. الطريق الذي ليس فيه مخالفة تبعدنا عن طريق الله المستقيم.

لذلك؛ فإن الإنسان المؤمن يطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يهديه إلى أقصر الطرق للوصول إلى الغاية. وما هي الغاية؟ إنها الجنّة والنعيم في الآخرة. ولذلك نقول: يا رب اهدنا وأعِنَّا على أن نسلك الطريق المستقيم، وهو طريق المنهج؛ ليوصلنا إلى الجنة دون أن يكون فيه أي اعوجاج يبعدنا عنها.

ولقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حديث قدسي: إنه إذا قال العبد: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يقول جَلَّ جَلَالُهُ: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»[1].

اللهمّ اهدنا صراطك المستقيم في كلّ أحوالنا، وارزقنا هدايتك كلّ حين، آمين.

(١) تفسير الشعراوي (٨٤-٨٧).

العفو والصَّفح

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

تشملُ هذه الآية الكريمة قيمَ الخير، وسلامةَ المجتمع وتماسكه، وحمايةَ القلوب من الكراهية والقطيعة، وتصفيةَ النفوس من البغضاء والشحناء، وإزالةَ الكدر والقلق من الصدور!

إن الوقوفَ عند هذه الآية، والعمل بمقتضاها توجيهٌ ربّاني، فقد تضمنت؛ نهيًا، وأمرًا، وترغيبًا!

نهَت أن نقسو في قطيعة الرحم، حتى ولو صار التجاوز، وتكرّر الخطأ، فإذا أقسمنا في لحظة غضب، بمنع نفقة أو قطيعة زيارة، فلنتحلل من ذاك القسم، ونعاود البذل، ونُكرر التواصل!

وأمرت الآية الكريم بالعفو والصفح عن هذا المُتجنّي، وذاك المُتَجاوز، وتلك الذامّة، وهاتيك الشانئة، إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الأعلم بما هو أصلح، وهو الأدرى بما هو أنفع، فكيف نعصي الله، فلا نعفو، ولا نصفح، ونسير مع الشيطان في غوايته!

إنــك تعصي الله في إصــرارك على القطيعة والكراهيــة، فالله يأمرك أمرًا صريحًا لا غُموض فيه ولا لبس، بالعفو والصفح، فكيف تستمر في العناد!

إن عدم العفو والصفح مُخالفةٌ لأمر الله، وســببٌ في غضبه سبحانه، فأنت إن لم تعفُ وتصفح فقد يأخذ ذاك الجاني من حسناتك لمخالفتك أمر الله بالعفو والصفح!

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هــو الأعلم بالأنفع لك عبدالله، فإياك أن تســتمر في قطيعة رحمك، وإياك أن تغلبك شــهوة الانتقام، واحذر الشــيطان، فهو يدفعك للعناد، ويأخذك لظلم نفسك بعصيان الله في عدم العفو والصفح، وأخْشَــى عليك من غضب الله، تقرأ هذا الأمــر الرباني بالعفو والصفح وتأبى. احذر غضب الله!

واحتــوت هذه الآية علــى الترغيب في العفو والصفــح، فقال أكرم الأكرميــن: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ كرمٌ وعطــاءٌ ربّاني للعافين. إن كل مؤمن بالله، مُوقن بكتاب الله، يطمع في عفو الله، وينشد مغفرة الله! فكيف لا يَعْفو ولا يَصْفَحْ!

إن العجب من ذاك الجاهل المُــعاند المســتمر في خصومة رَحمِه، والمُتمادي في قطيعة ذوي قرباه، السائر مع الشيطان في الغواية، الغافل عن ترغيب الله له بالمغفرة إن عفا وصفح. نوَّرَ اللهُ بصائرنا جميعًا!

وبعد، هل يعي مُتقاطعو الأرحام اليوم هذه الدروس؟ نرى الأســرة الواحدة تتخاصم بسبب حطام الدنيا، مزّق المال أرحامًا أوصى الله ببرِّها،

وتعادى إخوةٌ وأخوات لأجل دُنيا زائلة، ونسوا أُمومةً وأُبوةً جمعتهم، وانساقوا وراء شياطين تؤزُّهم أزًّا، يلِجُّون في الشحناء، ويتمادون في الكراهية، ويغفلون عن هذه التوجيهات في العفو والصفح، بل يُخاصم الابنُ والديه، وتتورّم أوداجه، ويعقُّهما بسب حُطام الدنيا. نسألُ الله هداية أُولئك التائهين!

ويقرأ الكثيرون هذه الآيات وآيات أُخرى، وأحاديث لرسول الله ﷺ في العفو والصفح، ولا يقفون عند هذه النصوص الهادية محاسبين أنفسهم، ومسائلين ذواتهم عن تطبيق هذه التوجيهات الربّانية، ولا يستشعرون عظمتها وما تضمنته من نهي وأمر وترغيب، فيأثم الجميع، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠]. إنهم يظلمون أنفسهم، والله لا يحب الظالمين.

هذه الآية نزلت بسبب قولٍ عظيم، واتهامٍ خطير تنوء بحمله الجبال الرواسي، وليس في خلافٍ مالي، ولا عتابٍ في زعامة، ولا في غيرة قريبٍ من قريبه، إنه ترديد بُهتانٍ عظيم من قريبٍ في رحمه، من مسطح بن أُثاثة وهو ابن خالة أبي بكر في أُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زوجة رسول الله ﷺ، وجاءت الآية بالعفو والصفح عنه.

ومما جاء في تفسير ابن كثير: «يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ مِنَ الأَلِيَّة، (وَهِيَ: الْحَلِفُ) أَيْ: لَا يَحْلِفْ ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾؛ أَيِ: الطَّول وَالصَّدَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أَيِ: الجِدَةَ ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أَيْ: لَا تَحْلِفُوا أَلَّا تَصِلُوا قَرَابَاتِكُمُ الْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ.

وَهَذِهِ فِي غَايَةِ التَّرَفُّقِ وَالْعَطْفِ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾؛ أَيْ: عَمَّا تَقَدَّمَ مِنْهُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَذَى، وَهَذَا مِنْ حِلْمِهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ مَعَ ظُلْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِم»[1].

وورد في تفسير الرازي قوله: «العَفْوُ والصَّفْحُ عَنِ المُسِيءِ حَسَنٌ مَندُوبٌ إلَيْهِ، ورُبَّما وجَبَ ذَلِكَ، ولَوْ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ إلّا هَذِهِ الآيَةُ لَكَفى، ألا تَرى إلى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢]، فَعَلَّقَ الغُفْرانَ بِالعَفْوِ والصَّفْحِ. وعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**مَن لَمْ يَقْبَلْ عُذْرًا لِمُتَنَصِّلٍ كاذِبًا كانَ أوْ صادِقًا فَلا يَرِدُ عَلى حَوْضِي يَوْمَ القِيامَةِ**»، وعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أفْضَلُ أخْلاقِ المُسْلِمِينَ العَفْوُ**»، وعَنْهُ أيْضًا: «**يُنادِي مُنادٍ يَوْمَ القِيامَةِ ألا مَن كانَ لَهُ عَلى اللهِ أجْرٌ فَلْيَقُمْ فَلا يَقُومُ إلّا أهْلُ العَفْوِ**، ثُمَّ تَلا ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]»، وعَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أيْضًا: «**لا يَكُونُ العَبْدُ ذا فَضْلٍ حَتّى يَصِلَ مَن قَطَعَهُ، ويَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَهُ، ويُعْطِيَ مَن حَرَمَهُ**»[2].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٣١).
(٢) تفسير الرازي (٢٣/ ٣٥٢).

الغرفة

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٧٥].

الغرفةُ وما أدراك ما الغرفة؛ هي نعيمٌ وبهجة! لقد تكرر ورود الإشارة إلى اسم الغرفة في كتاب الله الكريم، وأنها من النعيم الموعود به أهل الجنة. نسأل الله أن يكتبنا منهم، وفي تلك الغرف إغراءٌ وتحبيبٌ!

وورد مع ذِكرِ الغرف ذكر الصبر؛ ولذا فالصبر على المكاره، والصبر على طاعة الله فضيلة ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. جعلنا الله من عباده الصابرين السابقين المقربين!

صبروا فكانت لهم الغرف، وفي الغرف تحيةٌ وتكريمٌ وسلام، كتبنا الله من ساكنيها!

قال الشيخ الشعراوي في تفسيره: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبرٌ عن عباد الرحمن الذين تقدّمتْ أوصافهم، فجزاؤهم ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾. وجاءت الغرفة مفردةً مع أنهم متعددون، يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة به. قالوا؛ لأن الغرفة هنا معناها المكان العالي، الذي يشتمل على غرفات، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ

﴿ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧]. وهذا الجزاء نتيجة ﴿بِمَاصَبَرُوٓاْ﴾؛ صبروا على مشاقِّ الطاعات. وقد أوضح النبي ﷺ هذه المسألة بقوله: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»[1]. فالجنة تستلزم أن أصبر على مشاقِّ الطاعات، وأن أُقدِّر الجزاء على العمل، وأستحضره في الآخرة، فإنْ ضِقْتَ بالطاعات، وكذَّبْتَ بجزاء الآخرة، فَلِمَ العمل إذن؟ ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي يجدّ ويجتهد في دروسه؛ لأنه يستحضر يوم الامتحان ونتيجته، وكيف سيكون موقفه في هذا اليوم، إذن: لو استحضر الإنسانُ الثوابَ على الطاعة لَسَهُلَتْ عليه، وهانتْ عليه متاعبها، ولو استحضر عاقبة المعصية وما ينتظره من جزائها لابتعد عنها. فالتكاليف الشرعية تستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

فالحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى يريد منّا ألَّا نعزل التكاليف عن جزائها، بل ضَعِ الجزاء نُصْب عينيك قبل أنْ تُقدِم على العمل.

لذلك النبي ﷺ يسأل أحد صحابته: «كيف أصبحتَ يا حارثة؟» فيقول: أصبحتُ مؤمنًا حقًّا، فقال: «إنَّ لكل حقٍّ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟» قال: عزفتْ نفسي عن الدنيا، حتى استوى عندي ذهبها ومدرها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون. فالمسألة -إذن- في نظرهم لم تكُنْ غيبًا، إنما مشاهدة، كأنهم يرونها من شدّة يقينهم بها؛ لذلك قال له النبي ﷺ: «عرفتَ

(١) أخرجه البخاري (١٦/ ٣١٤ رقم٦٤٨٧)، ولفظه: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره».

فالزم»[1]. والإمام عليٌّ -كرَّم الله وجهه- يقول: لو كُشِف عنّي الحجاب ما ازددتُ يقينًا. لماذا؟ لأنه بلغ من اليقين في الغيب إلى حَدِّ العلم والمشاهدة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان:٧٥]. التحية أن نقول له: إننا نُحيِّيك يعني: نريد حياتك بأُنْسك بِنَا، والسلام: الأمان والرحمة، لكن ممَّنْ يكون السلام؟ ورَد السلام في القرآن الكريم بمعانٍ ثلاثة:

- سلامٌ من الله، كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨].
- وسلامٌ من الملائكة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد:٢٣، ٢٤].
- وسلامٌ من أهل الأعراف، وهم قوم استوتْ حسناتهم وسيئاتهم، فلم يدخلوا الجنة، ولم يدخلوا النار، وهؤلاء يقولون: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْٓا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف:٤٦].

إذن: فعباد الرحمن يُلَقَّوْن في الجنة سلامًا من الله، وسلامًا من الملائكة، وسلامًا من أهل الأعراف»[2].

وبعد: فإن بشائر الله تتوالى في كتابه الطاهر؛ فنعيمه متنوعٌ ومتعدد، وفي آية هذا المجلس جاء ذِكر الغرفة والحث على الصبر، وما يتلقونه من

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٣٦٢ رقم١٠٥٩٠)، والسلمي في الأربعين في التصوف (رقم١٠)، وقوام السنة في الترغيب والترهيب (١/ ٧٣ رقم٢٢).
(٢) تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٥٢٧).

تكريمٍ وقولٍ جميل؛ تحيةٌ وسلام. وفي سورة الرعد نقرأُ حلاوة الوعد، وعذوبة القول للصابرين، فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب بجميل الترحيب. ربَّاه اشملنا بذاك النعيم ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢-٢٤].

وفي سورة العنكبوت وردت الغرفة بصيغة الجمع، وذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنها للمؤمنين الذين عملوا الصالحات، وجاءت أوصاف تلك الغرف؛ أنها تجري من تحتها الأنهار، وأن لساكنيها الخلود والدوام. وجاء التأكيد على ثواب الصبر. رزقنا الله أجر الصابرين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٨، ٥٩].

عن أبي سعيد الخدري: «إنَّ أهْلَ الجَنَّةِ يَتَراءَوْنَ أهْلَ الغُرَفِ مِن فَوْقِهِمْ، كما يَتَراءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ في الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أوِ المَغْرِبِ، لِتَفاضُلِ ما بيْنَهُمْ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ تِلكَ مَنازِلُ الأنْبِياءِ لا يَبْلُغُها غَيْرُهُمْ، قالَ: بَلى والذي نَفْسِي بيَدِهِ، رِجالٌ آمَنُوا باللهِ وصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ»[1].

ولئن سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ واستفسروا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ساكني تلك الغرف، وأكد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنها للمؤمنين المصدقين ما جاء به رُسل الله

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٠٧ رقم٣٢٥٦)، ومسلم (٤/ ٢١٧٧ رقم٢٨٣١).

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ففي آية الزمر تأكيد أنها غرف من فوقها غرف، نسأل الله نعيمه وفضله، قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

مرَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على آل ياسر (عمار وأبويه؛ ياسر، وسمية) وهم يُعذَّبون في مكة في بداية الدعوة، وهو لا يملك تلك الفترة قوةً ولا نصرًا، وقد وقف عليهم وهم يُعذَبون، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**»[1]، فهدأت النفوس المُعذَبة، وقَرَّت العيون الشاخصة، وعَلَت الوجوه المكدودة ابتسامةٌ راضية.

لم يَطُل الأمر بالشيخين الكبيرين، أما سُمية فمر بها أبو جهل وهي تُعذَّب، فشتمها أقذع الشّتم، وأسمعها قوارص الكلام، فلم تأبه له، فجرَّد رُمحه، وطعنها به في أسفل بطنها، فخرجت حربة الرمح من ظهرها، فكانت أول من استُشهد في الإسلام، وحسبُها بذلك رفعةً ومجدًا. وأما ياسر فمات تحت التعذيب، وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

اشتد الأذى على عمار بعد استشهاد أبويه، ولقد جاوز جلادوه في تعذيبه كل حد. وفي ذات يوم أقبل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كاسفًا حزينًا خَجِلًا، وقد حاول أن ينظر إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه، وأن يملأ عينه منه، فلم يستطع أن يرفع بصره إليه، فقال له الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**ما وراءك يا عمار؟!**».

---

(١) الحديث صححه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة (ص١٠٣)، وانظر: صور من حياة الصحابة (١/ ٥٠٥-٥٠٨).

فقال عمار: شرٌّ مُستطيرٌ يا رسول الله.

فقال: **وما ذاك؟!**

فقال: عُذبتُ أمس حتى نالني من الجَهد والضُّر ما لو نزل بجبلٍ لصَدَّعه، ثم إن أعداء الله لم يكتفوا بما عرَّضُوني له من حَرِّ الهواجر، فأحرقوا جسدي بالنار، وما زالوا يُرغمونني على النيل منك، وذِكر آلهتهم بخير حتى فعلت، ثم أخذ يَنشِج نشيجًا يُقطع القلوب، فقال له النبي صلوات الله وسلامه عليه: **وكيف تجدُ قلبك يا عمار؟!**

فقال: أجدُه مطمئنًا يا رسول الله.

فقال: **لا عليك، وإن عادوا لمثلها، فَعُد إلى مثل ما قُلت**[1].

ثم أكرم الله عَزَّوَجَلَّ عمارًا، وأنزل فيه قرآنًا، فقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦].

ولَمَّا أذن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، كان عمار بن ياسر في طليعة من هاجر إليها؛ فرارًا بدينه.

وانطلق يجاهد مع المجاهدين في سبيل الله، يذُبُّ عن دين الله، ويبذل مُهجته في سبيل الله.

ولما لحق الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بجوار ربّه، وارتد أكثر العرب عن

(١) انظر: الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد الشيباني، ت: عبدالله القاضي (١/ ٥٨٩).

الإســـلام، كان له في يوم (اليمامة) موقفٌ مشهورٌ مبرور، ذلك أنه حين اســـتحرَّ القتل في صحابة الرسول صلوات الله وســـلامه عليه، وجعلت المنون تتخطف حفظة القرآن، وزُلزلت الأرض تحت أقدام المســـلمين، عند ذلك وقف عمار بن ياســـر على صخرةٍ مُشـــرفة، وقـــد قُطعت أذنه، وبقيت عالقةً برأســـه، وقال: يا معشر المسلمين، أَمِنَ الجنة تفرون، إليَّ. إليَّ يا معشر المسلمين، ثم مضى أمامهم وأُذُنه تتذبذب على صفحة خدِّه. فحملوا بحملته حتى قُتل مُسيلمة الكذاب، وطفق الناس يعودون إلى دين الله أفواجًا بعد أن خرجوا منه أفواجًا»[1].

هؤلاء نماذج الصابرين؛ صبروا على العذاب، وصَدَقوا ما عاهدوا الله عليه، فنالـــوا ثواب الله وجزاءه ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الزمر:٢٠]. كتبنا الله في ركابهم.

(١) صور من حياة الصحابة (١/ ٥٠٨-٥٠٩).

غضُّ البصر

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

البصر وما ينقله للفؤاد شأنه عظيم؛ فكم من نظرةٍ أغوت! وكم من نظرةٍ جَرَّت للحرام! وكم من نظرةٍ أورثت حسرة! وكم من نظرةٍ أوقدت فتنة! وكم وكم!

هو البصر رسائله صامتة، وسهامه قاتلة، هو من آيات الله الدالة على عظمته وقدرته.

إن البصر من أكبر النِّعم التي أنعم الله بها على الكائنات كلها؛ فالعين مرآةُ الجسم، وآلة التمييز، والنافذة التي يُطِلُّ منها الإنسان على العالم الخارجي، ويكشف بها أسرار الأشكال والأحجام والألوان، فهي وسيلة الإنسان للإبصار، ومن ثم التفكر في خلق الله ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]. انظروا وتأملوا واعتبروا فيما ترونه من مخلوقات!

مَنْ أوجدها؟ مَـنْ منحها مقومات الحياة؟ إن كل ما ترونه من مخلوقاتٍ متحركةٍ، وإن مات ورحل، ستكون له نشأةٌ أخرى، وبعثٌ، وحساب.

إن العين أغلى ما يمتلكه الإنسان؛ فهي الدُرّة الثمينة التي لا تُقدَّر بثمن، سَمَّاها الله تعالى الحبيبةَ والكريمةَ؛ كما جاء في حديثٍ رواه البخاري، أن النبي ﷺ قـال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ قال: إذا ابتليت عبـدي بحبيبتيه فصبر عوَّضته منهما الجنة، يريد عينيه**»(١).

والعين مِن أعظم نِعَم الله على الإنسـان، فيجب علينا أن نسـتعملها فيما يُرضي الله تعالى، وألَّا نستعملها في معصية الله بمشاهدة ما يَجُرُّ إلى معصية أو يَصْرِفُ عن طاعة؛ من أفلام وبرامج خادشـة للحياء. إن العين والحواس كلها أمانة عند الإنسـان، فهو مسؤول عنها، وسيُحاسب على سوء استعمالها ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

وإن الشيطان يدفع بالإنسان لتركيز بصره فيما يجلب الفتنة والشهوة، ويُزيِّن له كُلَّ ما يجرّ للمعصية ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجـر:٣٩-٤٠]. رزقنا الله وإيّاكم حلاوة الإيمان وطمأنينته.

وصدق الرسـولُ ﷺ؛ إذ قال: «**ما من مسلمٍ ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغضُّ بصره، إلا أحدث الله له عبادةً يجدُ حلاوتها في قلبه**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٤/ ٢٥٤ رقم٥٦٥٣) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٦٦ رقم٥٤٣١)، وهناد في الزهد (٢/ ٦٥١ رقم١٤٢٥)، وقوام السنة في الترهيب والترغيب (٣/ ١٤٥ رقم ٢٢٥٩).

لقد جاء الإسلام لصلاح البشرية وطهارتها، جاء دين الله الكامل فشملت تعليماته كل ما فيه نقاوة وطهارة المجتمعات.

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو العالم بالنفوس وطبيعتها، يعلم ما تُحدثُه النظرات من كهرباء عاطفية في النفوس البشرية، فالميل الفطري بين الرجل والمرأة غريزةٌ عميقةٌ في التكوين الحيوي للإنسان، وإثارة تلك الغرائز تبدأ من العيون؛ فهالة البعيد، وغواية الشيطان تفتن الإنسان، وتدفعه للغواية! فما بعد النظر يكون المحذور، قد يتعلق القلب بما لا سبيل لنيله، فيكون الألم والعذاب أو يَحْدُثُ الحرام، وفي هذه الآية ربط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين غضّ البصر وحفظ الفرج. فالعين رسول القلب، ولهذا كان الأمر بغضّ البصر وكبح انطلاقته، والغضّ الفوري له؛ فحركة العين سريعة، وبدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالغضّ قبل حفظ الفرج، فالنظر وسيلةٌ إلى عدم حفظ الفرج، وهو الطريق للحرام، وبريد الزنا. إن حفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغضّ البصر.

إن للبعيد عن الإنسان هالةً وجاذبية، وطالما أن ذاك البعيد ليس للإنسان، فالقلب يتعلق به، وقد يغلب البصرُ صاحبَه، فيتلصّص ويُخالس المنظور النظر، فما أن يصرف الناظرُ نظرَه حتى يعود به البصرُ لذاك البعيد! هي الحياة الدنيا ابتلاءٌ وامتحان! نسأل الله العون على حفظ أبصارنا.

يُروى لابن مفلح أنه قال: «وليحذر العاقل إطلاق البصر، فإن العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه»[1]. وقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) كشف القناع عن متن الإمتاع، موسى بن أحمد الحجاوي الصالحي، ت: محمد بن حسن الشافعي، (٥/ ٨). ورسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي، ت: عبدالفتاح أبو غدة، ط٢، (ص١١٨).

فالشـــيطان حاضر، يجعل الجمال والحُسن في ذاك البعيد، فكم من وجهٍ جالبٍ للمارّة لا يراه من حلّ له إلا دون ذلك، وكم مِن بُرقُعٍ أوجد حسرةً وزفرة، ولو ملكه ذاك الواجدُ لأسِف عن أنّته، ولتحسّر على زفرته.

ولذا؛ اصرف بصرك، وتأكد أن الموضوع أقل بكثير مما تتصور، لكنها هالة البعيد والوهج الزائف لغير المقدور عليه. عن عبدالله بن مســعود: «**أَيُّمَا رجلٍ رأى امرأةً تُعجبه، فليقُم إلى أهله فإن معها مثل الذي معها**»[1].

قــال ﷺ: «**لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ الأُولى لَكَ، ولَيْسَــتْ لَكَ الآخرة**»[2]، وعَنْ جَرِيرٍ البَجَلِيِّ قالَ: «سَــأَلْتُ رَسُــولَ اللهِ ﷺ عَنْ نَظْرَةِ الفَجْأةِ، فَأَمَرَنِي أنْ أصْرِفَ بَصَــرِي»[3]، وفي الصَّحِيحَيْنِ وغَيْرِهِما مِن حَدِيثِ أبِي سَــعِيدٍ قالَ: قالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ: «**إيّاكم والجُلُوسَ عَلى الطُّرُقاتِ**»، فَقالُوا: يا رَسُــولَ اللهِ ما لَنا مِن مَجالِسِــنا نَتَحَدَّثُ فِيها، فَقالَ: «**إنْ أبَيْتُمْ فَأعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**»، قالُوا: وما حَقُّهُ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: «**غَضُّ البَصَرِ، وكَفُّ الأذى، ورَدُّ السَّــلامِ، والأمْرُ بِالمَعْرُوفِ، والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ**»[4]. اللهم ارزقنا غضّ البصر عن محارمك، آمين.

---

(١) يروى مرفوعًا عن عبدالله بن مسعود قال: رأى رسول الله ﷺ امرأة فأعجبته فأتى سودة، وهي تصنع طيبًا، وعندها نساء فأخلينه فقضى حاجته، ثم قال: «**أيما رجل رأى امرأة تعجبه، فليقم إلى أهله، فإن معها مثل الذي معها**». أخرجه الدارمي (٢/ ١٩٦ رقم٢٢١٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٦٧ رقم٥٤٣٦)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١/ ٦٥٢ رقم٢١٤٩)، والترمذي (٥/ ١٠١ رقم٢٧٧٧)، وأحمد (٣٨/ ٩٥ رقم٢٢٩٩١) من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ١٨٩ رقم١٩٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٩٩ رقم٢١٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٠ رقم٢٤٦٥)، ومسلم (٣/ ١٦٧٥ رقم٢١٢١).

الغِـلُّ

قال تعالـــى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٧-٤٨].

آية نعيمٍ وبشارة، وطهارة ونقاوة؛ فغِلُّ الدنيا ونكدها بين البشر، ينزعه الله في الآخرة من مكمنه من الصدور. والنزع: اســتلالٌ للشـــيء وإزالته بجذوره. وبيّنت الآيــة أنَّ صدور بني آدم هي موطن الكراهية والبغضاء، وأنَّ التخلــص من الغلِّ في الجنة تكريمٌ وطمأنينة. إنّها الحياة الدنيا على اسمها دنيا، يتحاسد البشر فيها ويتقاطعون، وتنطوي قلوب بعضهم على الغلِّ والحقد والضغينة، ويودُّ أحدُهم لو هلك ذاك الآخر! وكثيرًا مايكون الغلُّ بسبب الغيرة والحسد، أو الخلاف في الرأي. وقلَّةٌ هم أُولئك الكبار ممّن يقبلون المخالف لهم في الرأي. ذكـــر الإمام ابن تيمية في الفتاوى عن الأئمة الأربعة مقولاتٍ خالدة:

«**قال الإمـــام أبو حنيفة**: هذا رأيي، وهذا أحســـن ما رأيت، فمن جاء برأي خير منه قبلناه.

وقال الإمام مالك: إنما أنا بشر أُصيب وأُخطئ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة. أو كلامًا هذا معناه.

وقال الإمام الشافعي: إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط، وإذا رأيت الحجة موضوعة على الطريق فهي قولي.

وقال الإمام أحمد: لا تقلّدوني ولا تقلّدوا مالكًا، ولا الشافعي، ولا الثوري، وتعلّموا كما تعلَّمنا. وكان يقول: من قلّة علم الرجل أن يُقلّد دينه الرِّجال، وقال: لا تُقلِّد دينك الرجال فإنَّهم لن يسلموا من أن يغلطوا»[1].

هؤلاء العلماء نوادر قلَّ أن يجود الزمان بمثلهم!

قال الشيخ ابن سعدي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: «هذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة، أن الغلّ الذي كان موجودًا في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله؛ حتى يكونوا إخوانًا متحابِّين، وأخلّاء متصافين. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾. ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم. فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض[2].

وورد في نظم الدرر للبقاعي [٨٨٥هـ] عند قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قوله: «ولَمّا كانَ الأُنْسُ لا يَكْمُلُ إلّا بِالجِنْسِ؛ مَعَ كَمالِ المَوَدَّةِ؛ وصَفاءِ القُلُوبِ عَنِ الكَدَرِ؛ قالَ: ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ أيْ: بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ؛ ﴿مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾؛ أيْ: حِقْدٍ يَنْغُلُ؛ أيْ: يَنْغَرِزُ في القَلْبِ حالَ كَوْنِهِمْ ﴿إِخْوَانًا﴾؛ أيْ: مُتَصافِينَ؛ حالَ كَوْنِهِمْ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾؛

(١) فتاوى ابن تيمية (٢٠/ ٢١١-٢١٢).
(٢) تفسير السعدي، تيسير الكريم الرحمن إلى تفسير كلام المنان (ص٢٨٩).

جَمْعُ سَرِيرٌ؛ وهو مَجْلِسٌ رَفِيعٌ مُوَطَّأٌ لِلسُّرُورِ؛ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ لا يَرى بَعْضُهم قَفا بَعْضٍ؛ في آخِرِ الثَّقَفِيّاتِ؛ عَنِ الجُنَيْدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّهُ قالَ: ما أحْلى الِاجْتِماعَ مَعَ الأصْحابِ! وما أمَرَّ الِاجْتِماعَ مَعَ الأضْدادِ»[1].

وقال الشوكاني في تفسيره ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: «الغِلُّ: الحِقْدُ والعَداوَةُ، وانْتِصابُ إخْوانًا عَلى الحالِ؛ أيْ: إخْوَةً في الدِّينِ والتَّعاطُفِ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ أيْ حالَ كَوْنِهِمْ عَلى سُرُرٍ، وعَلى صُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ وهي التَّقابُلُ، يَنْظُرُ بَعْضُهم إلى وجْهِ بَعْضٍ، والسُّرُرُ جَمْعُ سَرِيرٍ، وقِيلَ: هو المَجْلِسُ الرَّفِيعُ المُهَيَّأُ لِلسُّرُورِ، ومِنهُ قَوْلُهم: سِرُّ الوادِي لِأفْضَلِ مَوْضِعٍ مِنهُ.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر:٤٨]؛ أيْ تَعَبٌ وإعْياءٌ؛ لِعَدَمِ وُجُودِ ما يَتَسَبَّبُ عَنْهُ ذَلِكَ في الجَنَّةِ؛ لِأنَّها نُعَيْمٌ خالِصٌ، ولَذَّةٌ مَحْضَةٌ تَحْصُلُ لَهم بِسُهُولَةٍ، وتُوافِيهِمْ مَطالِبُهم بِلا كَسْبٍ ولا جَهْدٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ خُطُورِ شَهْوَةِ الشَّيْءِ بِقُلُوبِهِمْ يَحْصُلُ ذَلِكَ الشَّيْءُ عِنْدَهم صَفْوًا عَفْوًا ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨] أبَدًا، وفي هَذا الخُلُودِ الدّائِمِ وعِلْمِهِمْ بِهِ تَمامُ اللَّذَّةِ وكَمالُ النَّعِيمِ، فَإنَّ عِلْمَ مَن هو في نِعْمَةٍ ولَذَّةٍ بِانْقِطاعِها وعَدَمِها بَعْدَ حِينٍ -مُوجِبٌ لِتَنَغُّصِ نَعِيمِهِ وتَكَدُّرِ لَذَّتِه»[2].

وجاء في تفسير الرازي: «مَعْنى نَزْعِ الغِلِّ: تَصْفِيَةُ الطِّباعِ، وإسْقاطُ الوَساوِسِ، ومَنعُها مِن أنْ تَرِدَ عَلى القُلُوبِ، فَإنَّ الشَّيْطانَ لَمّا كانَ في

(١) نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٤/ ٢٢٥).

(٢) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ١٦١).

العَذابِ لَمْ يَتَفَرَّغْ لِإلْقاءِ الوَسـاوِسِ في القُلُوبِ. وإلى هَذا المَعْنى أشارَ عَلِـيُّ بْنُ أبِي طالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقالَ: إنِّي لَأرْجُوَ أنْ أكُونَ أنا وعُثْمانُ وطَلْحَةُ والزُّبَيْرُ مِنَ الَّذِينَ قالَ اللهُ تَعالى فِيهِمْ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾»[1].

وقال القرطبي في تفسـيره: «ذَكَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِيمَا يُنْعِمُ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ نَزْعَ الْغِلِّ مِنْ صُدُورِهِمْ. وَالنَّزْعُ: الِاسْـتِخْرَاجُ. وَالْغِلُّ: الْحِقْدُ الْكَامِنُ فِي الصَّدْرِ. وَالْجَمْعُ غِلَالٌ؛ أَيْ أَذْهَبْنَـا فِي الْجَنَّةِ مَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغِلِّ فِي الدُّنْيَا[2].

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٦٦).
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢٠٨).

فردًا

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم:٩٤-٩٥].

آياتُ تنبيهٍ ووعظ، وقولُ وعدٍ وصدق، فيابن آدمَ مهما طال بك الزمن، ستأتي وحيدًا، ومهما نالك من جاهٍ، ومهما جمعت من مالٍ، ومهما ارتفعت في دنياك، ومهما صار لك من مُلكٍ وثراء، ومهما، ومهما، ستُحشر إلى ربك، وتلقى حسابك، عند حكمٍ عدل، ستأتي وحيدًا، وستقدّم فردًا، وستجد عملك قد سبقك؛ إن خيرًا، وإن شرًّا.

سيأتي كل إنسان، ويلقى ربّه فردًا لوحده، كما خلقه فردًا، يأتي كما نزل من بطن أمّه فردًا مُجرّدًا، يأتي وقد زال عنه كل ما ملكه في دُنياه، يأتي البشر كلهم منذ آدم إلى آخر مخلوق، لا مجال لهروب أحد، ولا يمكن نسيان أحد، الكل حضور. يقول الشيخ الشعراوي: «تأمّل قوله ﴿ءَاتِيهِ﴾، فالعبد هو الذي يأتي بنفسه مُختارًا لا يؤتَى به، فكأن الجميع منضبطٌ على وقتٍ معلوم إذا جاء يُهْرَع الجميع طواعيةً إلى الله عَزَّوَجَلَّ»[1].

(١) تفسير الشعراوي (١٥/ ٩١٩٧).

يُروَى عن القُرَظِيِّ أنه قال: «قَرَأْتُ عَلى عائِشَــةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَــوْلَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فَقالَتْ عائِشَــةُ: يا رَسُــولَ اللهِ، واسَــوْأتاهُ إنَّ الرِّجالَ والنِّســاءَ سَيُحْشَــرُونَ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهم إلى سَوْأةِ بَعْضٍ، فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]، لا يَنْظُرُ الرِّجالُ إلى النِّساءِ، ولا النِّساءُ إلى الرِّجالِ، شُغِلَ بَعْضُهم عَنْ بَعْضٍ»[١].

وورد في تفســير ابن أبي حاتم الرازي -أيضًا- عَنْ سَــعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، أَنَّهُ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قالَ: كَيَوْمِ وُلِدَ يُرَدُّ عَلَيْهِ كُلُّ شَــيْءٍ نَقَصَ مِنهُ مِن يَوْمِ وُلِدَ. وذُكِرَ عَنْ أَبِي داوُدَ، عَنْ أَبِي حُرَّةَ، عَنِ الحَسَنِ، قالَ: يُؤْتى بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ[٢]، فَيَقُولُ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أيْنَ ما جَمَعْتَ؟ فَيَقُولُ: يــا رَبِّ جَمَعْتُهُ وتَرَكْتُهُ أوْفَرَ ما كانَ، فَيَقُولُ: فَأيْنَ ما قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ، فَلا تَراهُ قَدَّمَ شَيْئًا، وتَلا هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾»[٣].

وقال الزمخشري (٥٣٨هـ): «فُرادى منفردين عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه وآثرتموه من دنياكم. كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ: على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفــراد، وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ: ما تفضّلنا به عليكم

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: الطبري (١١/ ٥٤٤)، تفسير القرآن العظيم: ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٤٩ رقم ٧٦٣٩)، والحديث صححه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٦٥ رقم٨٦٨٩)، والألباني في السلسلة الصحيحة، (٧/ ١٣٧٩) عن عائشة ﵂ أنها قرأت قول الله تعالى. إلخ.

(٢) بذج: البَذْج ولد الضأن عند ولادته.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٤٩ رقم ٧٦٤١)، وانظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٣/ ٣٠٣).

في الدنيا، فشغلتم به عن الآخرة، وَراءَ ظُهُورِكُمْ لم ينفعكم، ولم تحتملوا منه نقيرًا»[1].

إن استحضار هذه الآيات الكريمة وتأملها يستدعي استحضار وقوفنا فُرادى بين يدي الله، نُسأَل عن كُلِّ شيء عملناه في دُنيانا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

جاء في كتاب نفح الطيب: أنه وُجد بخطّ عبدالرحمن الناصر أحد كبار ملوك الأندلس «أيام السرور التي صفت له دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، وَعُدَّتْ تِلكَ الأيام، فكانت أربعةَ عشر يومًا، فاَعْجَبْ أيها العاقل لهذه الدنيا، وعدم صفائها، وبُخْلِها بكمال الأحوال لأوليائها، هذا الخليفة الناصر حلف السعود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود، ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصفُ إلا أربعة عشر يومًا، فسبحان ذي العزة القائمة والمملكة الدائمة لا إله إلا هو»[2].

«كتب الصحابي الجليل أبو الدرداء لصاحب له يقول: «. . أما بعد، فلستَ في شيءٍ من عَرَض الدنيا، إلا وقد كان لغيرك قَبْلَك. وهو صائرٌ لغيرك بعدك. وليس لك منه إلا ما قَدَّمتَ لنفسك. فآثِرها على من تجمع له المال من وَلَدِك ليكون له إرثًا، فأنت إنما تجمع لواحدٍ من اثنين: إما ولدٌ صالح يعمل فيه بطاعة الله؛ فيسعد بما شقيتَ به. وإما ولدٌ عاصٍ،

(١) الكشاف: الزمخشري (٢/ ٤٧).
(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (١/ ٣٧٩).

يعمل فيه بمعصية الله، فَتَشقى بما جمعتَ له. فَثِق لهم بما عند الله من رزق وانجُ بنفسك». كانت الدنيا كلها في عين أبي الدرداء مجرد عارية.

عندما فُتحت (قبرص)، وحُملت غنائم الحرب إلى المدينة، رأى الناس أبا الدرداء يبكي، واقتربوا دهِشين يسألونه، وتولى توجيه السؤال إليه «جبير بن نفير».

قال له: «يا أبا الدرداء، ما يُبكيك في يومٍ أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟».

فأجاب أبو الدرداء في حكمةٍ بالغة وفهمٍ عميق: «ويحك يا جبير. ما أهون الخلق على الله إذا هُم تركوا أمره. بينما هي أُمةٌ قاهرة، ظاهرة، لها المُلك، تركت أمر الله، فصارت إلى ما ترى!».

وكما كانت الدنيا بأسرها مجرد عارية في يقينه، كانت كذلك جسرًا إلى حياةٍ أبقى وأروع. دخل عليه أصحابه يعودونه وهو مريض، فوجدوه نائمًا على فراشٍ من جلد.

فقالوا له: «لو شئتَ كان لك فراشٌ أطيب وأنعم».

فأجابهم أبو الدرداء وهو يشير بسبابته، وبريق عينيه صوب الأمام البعيد: «إن دارنا هناك. لها نجمع. وإليها نرجع. نَظْعَن إليها. ونعمل لها».

وهذه النظرة إلى الدنيا ليست عند أبي الدرداء وجهة نظرٍ فحسب، بل منهج حياةٍ كذلك. خطب يزيد بن معاوية ابنته «الدرداء»، فَردَّه، ولم يقبل خِطبته. ثم خطبها واحدٌ من فقراء المسلمين وصالحيهم، فزوجها

أبو الدرداء منه. وعَجِبَ الناس لهذا التصرف، فعلّمهم أبو الدرداء قائلًا: «ما ظنّكم بالدرداء إذا قام على رأسها الخدم والخِصْيا وبَهرها زُخرف القصور. أين دينها منها يومئذٍ؟!»[1].

(١) رجال حول الرسول ﷺ، خالد محمد خالد (ص٢١١-٢١٢).

الفزعُ الأكبر

قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

استحضر في ذهنك ذاك اليوم، وقد بعث الله الخلائق من قبورها، كيف ستكون حالتك! إن التفكير في ذاك اليوم؛ يمنع النوم، ويبعث الخوف، ويبثّ القلق، فأين سنكون! حسبُكَ قراءة هذه الآية، فكيف تهنأ بأَكلٍ وشرب؟ هُو يومٌ آتٍ عليك لا محالة ولا مهرب منه! يوم تتفطر سماؤه، وتنتثر كواكبُه، وتتفجر بحارُه، وتتبعثر قبورُه.

إن وصف الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذاك الفزع بالأكبر؛ تأكيدٌ لهوله وعظمته، وتقريعٌ وتنبيه وتحذير، فهل نعقل! ربّاه نسألك الرحمة واللطف! إنه يومٌ ﴿يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٦-٨].

حتى وزن الذَّرَّة محسوبٌ، وسنراه هناك.

بات الإمام أبو حنيفة ليلةً لم يذُق طعم النوم، يتفكر في وزن الذَّرّة، ويُردّد وهو ممسك بلحيته، ودموعه تتقاطر: حتى الذّرَّة سوف تحاسب عليها يا أبا حنيفة!

إنه يومٌ رهيب، يومٌ عصيب، يومٌ ثقيل، يومٌ تذهل فيه كلُّ مرضعةٍ عما أرضعت، يومٌ يكون الناس فيه سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد!

يومٌ تَعْرِفُ فيه -على الفور- كُلُّ نفسٍ ما قدّمت وأخّرت من صغير الأعمال وكبيرها!

في ذلك اليوم ترى الخلائقُ أعمالها، وقد اجتاحها الرعب، وفرّ الأخ من أخيه، والمرء من أُمّه وأبيه، ومن زوجته وبنيه، تراهم وقد انقسموا إلى جموعٍ أخذت مساراتها الموعودة؛ ففريقٌ يمّم طريق الخير، طريقًا تتلقاهم فيه الملائكة؛ مُطَمئِنَةٌ لنفوسهم، مُهدِّئةٌ لمخاوفهم، تبشّرهم بالنعيم الذي آمنوا به في دنياهم، تسرع إليهم مستقبلةً لهم مهلّلةً مبشِّرة!

وفريقُ السوء يتّجهون لطريق الشر إلى جهنم وبئس المصير! وفريقُ الأعراف لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. إنه يومٌ شديدٌ سمّى الله أهواله، بالفزع الأكبر! نسأل الله النجاة واللطف والقبول، ونرجوه أن تشملنا بُشرى الملائكة وطمأنتها!

قال ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير: «الفَزَعُ: نَفْرَةُ النَّفْسِ وانْقِباضُها مِمّا تَتَوَقَّعُ أنْ يَحْصُلَ لَها مِنَ الألَمِ، وهو قَرِيبٌ مِنَ الجَزَعِ، والمُرادُ بِهِ هُنا فَزَعُ الحَشْرِ حِينَ لا يَعْرِفُ أحَدٌ ما سَيَؤُولُ إلَيْهِ أمْرُهُ، فَيَكُونُونَ في أمْنٍ مِن ذَلِكَ بِطَمْأنَةِ المَلائِكَةِ إيّاهم. وذَلِكَ مُفادُ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]. فَهَؤُلاءِ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمُ الحُسْنى هُمُ المُرادُ مِنَ الِاسْتِثْناءِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل:٨٧]»[1].

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٧/ ١١٥).

أما الشيخ الشوكاني فقال: «الفَزَعُ الأكْبَرُ: أهْوالُ يَوْمِ القِيامَةِ مِنَ البَعْثِ والحِسابِ والعِقابِ ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ أيْ تَسْتَقْبِلُهم عَلى أبْوابِ الجَنَّةِ يُهَنِّئُونَهم ويَقُولُونَ لَهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أيْ تُوعَدُونَ بِهِ في الدُّنْيا وتُبَشَّرُونَ بِما فِيهِ»[1].

إن اليقين بذاك اليوم دفع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى أن ترخص أرواحهم في سبيل الله، فغيّروا في سنوات وجيزة ما على الأرض من باطلٍ وظلم، ونشروا دين الله، وأقاموا العدل.

إن الفزع الأكبر الذي حذّرهم منه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلهم يتسابقون للطاعات. عن عبدالله ابن عمر: «ثلاثٌ لا يهولهم الفزَعُ الأكبرُ، ولا ينالُهم الحسابُ، هم على كثيبٍ من مسكٍ حتّى يُفرغَ من حسابِ الخلائقِ، رجلٌ قرأ القرآن ابتغاءَ وجهِ اللهِ وأمَّ به قومًا وهم به راضون، وداعٍ يدعو إلى الصَّلواتِ ابتغاءَ وجهِ اللهِ، وعبدٌ أحسن فيما بينه وبين ربِّه وفيما بينه وبين مواليه»[2]، وعن أبي هريرة: «من مات مرابطًا في سبيلِ اللهِ أُجري عليه أجرُ عملِه الصالحِ الذي كان يعملُ، وأُجري عليه رزقُه، وأمن من الفتّانِ، وبعثَه اللهُ تعالى يومَ القيامةِ آمنًا من الفزعِ الأكبر»[3].

---

(١) فتح القدير: الشوكاني (٣/ ٥٠٧).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٢٥٢ رقم١١١٦)، قال المنذري في الترغيب والترهيب، (٢/ ٢٢٩ رقم٢٢٠٢(: رواه الطبراني في الأوسط والصغير بإسناد لا بأس به.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢/ ٩٢٤ رقم ٢٧٦٧)، وابن عساكر في الأربعين في الحث على الجهاد (ص٨٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب، (٢/ ١٥٥ : (رواه ابن ماجه بإسناده صحيح. وقال البصيري في مصباح الزجاجة (٢/ ٩٦): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٣٢ رقم١٢٢١).

ذكر ابن تيمية في الفتاوى: «أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحبُّ إليَّ من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود»[1]

إن الفزع الأكبر عِلمُ يَقينٍ لا شكَّ فيه، والعاقل من استعدَّ له، وعمل للنجاة من أهواله. بعد أن أسلم الصحابي عكرمة بن أبي جهل، وأيقن بحقيقة الدين وأنه حق، وقرأ القرآن الكريم، كان يضع المصحف على وجهه، ويقول: كتاب ربي. كلام ربي. وهو يبكي من خشية الله، قرأ الفزع الأكبر وفزع، وقرأ أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفزع الأكبر وما للشهداء من الأجر.

عن المقدام بن مَعْدِي كَرِبَ الْكِنْدِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ للشَّهيدِ عِندَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ» قال الحَكَمُ: «سِتَّ خِصالٍ: أنْ يَغفِرَ له في أوَّلِ دَفْعةٍ مِن دَمِه، ويَرى» -قال الحَكَمُ: «ويُرى- مَقعَدَه مِنَ الجَنَّةِ، ويُحَلّى حُلَّةَ الإيمانِ، ويُزَوَّجَ مِنَ الحُورِ العِينِ، ويُجارَ مِن عَذابِ القبرِ، ويأمَنَ مِنَ الفَزَعِ الأَكبَرِ» -قال الحَكَمُ: «يَومَ الفَزَعِ الأَكبَرِ-، ويوضَعَ على رأسِه تاجُ الوَقارِ، الياقوتةُ منه خَيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها، ويُزَوَّجَ اثنتَينِ وسبعينَ زَوجةً مِنَ الحُورِ العِينِ، ويُشَفَّعَ في سبعينَ إنسانًا مِن أقارِبِه»[2].

ذاكم عكرمة بن أبي جهل كان عدوًّا شرسًا للإسلام، وبعد أن أسلم قال للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني أسألُكَ أن تستغفر لي كل عداوةٍ عادَيْتُكَها، أو مسيرٍ أوْضَعتُ فيه أو مقامٍ لقيتُك فيه، أو كلامٍ قُلتُه في وجهك أو غيبتك.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨/ ٢٨٣).
(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٤١٩ رقم ١٧١٨٢)، والترمذي (٤/ ١٨٧ رقم ١٦٦٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨/ ٢٢٠ رقم ٣٢١٣).

فقال الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللهم اغفر له كل عداوةٍ عادَانيها، وكل مسيرٍ سار فيه إلى موضعٍ يريد به إطفاء نورك، واغفِر له ما نال من عِرضي في وجهي أو أنا غائبٌ عنه**».

فتهلّل وجه عكرمة بِشرًا، وقال: أمَّا والله، يا رسول الله، لا أَدَعُ نفقةً أنفقتُها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقتُ ضِعفها في سبيل الله، ولا قتالًا قاتلتُه صدًّا عن سبيل الله إلا قاتلتُ ضِعفه في سبيل الله. مضى بقية حياته مجاهدًا في سبيل الله، راجيًا جنّته، حذِرًا من الفزع الأكبر. حين اشتد الكرب على المسلمين في أحد المواقف في معركة اليرموك، نزل عكرمة عن جواده، وكسر غمد سيفه، وأوغل في صفوف الروم، فبادر إليه خالد بن الوليد، وقال: لا تفعل يا عكرمة؛ فإن قتلك سيكون شديدًا على المسلمين.

فقال: إليك عني يا خالد. فلقد كان لك مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سابقة، أما أنا وأبي فقد كُنا من أشدّ الناس على رسول الله، فدعني أُكَفِّر عما سلف مني، ثم قال: لقد قاتلتُ مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مواطن كثيرة وأفِرُّ من الروم اليوم؟! إن هذا لن يكون أبدًا.

ثم نادى في المسلمين: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمُه الحارث بن هشام، وضِرار بن الأزور في أربع مئة من المسلمين، فقاتلوا دون فُسطاط خالد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أشد القتال، وذادوا عنه أكرم الذود.

ولما انجلت معركة (اليرموك) عن ذلك النصر المؤزر للمسلمين؛ كان يتمدّد على أرض اليرموك ثلاثة مجاهدين، أثخنتهم الجراح هم:

الحارث بن هشـــام، وعياش بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، فدعا الحارث بماءٍ ليشـــربه، فلما قُدِّم له نظر إليه عكرمـــة. فقال: ادفعوه إليه. فلما قرّبوه منـــه نظر إليه عياش. فقال: ادفعوه إليـــه. فلما دنوا من عياش وجـــدوه قد قضى نحبه. فلما عادوا إلـــى صاحبيه وجدوهما قد لحقا به. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين. وســـقاهم من حوض الكوثر شـــربةً لا يظمؤون بعدها. وحباهم خضراء الفردوس يرتعون فيها أبدًا»[1].

أولئك رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكانت لهم البشائر والأمن من الفزع الأكبر. نسأل الله أن يَمُنَّ علينا بعفوه، ويهدينا صراطَهُ المستقيم، ويُؤمّننا يوم الفزع الأكبر، اللهم آمين.

(١) صور من حياة الصحابة، (ص١٢٢-١٢٤).

القتلُ والموت

قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٧، ١٥٨].

كبِّرْ أحرُف هاتين الآيتين، واجلس مُستغرقًا في معانيهما، مُتدبّرًا مضمونهما، وستعرفُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُخبرك أنك حتمًا مُفارقٌ دُنياك، لكن كيف ستكون المغادرة؟ إن كان رحيلك وأنت في ميادين الجهاد في سبيل الله بهذا القيد وهذا الشرط فهذا خيرٌ من الحياة وما فيها، خيرٌ من زينة يتنافس عليها البشر، خيرٌ من مال، ومن جاه، ومن سلطة وسلطان. إن الدنيا ليست إلا زهرة سريعة الذبول كما قال تعالى ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه:١٣١]، وما أسرع ذبول الزهرة. إن الفراق آتٍ لا محالة، فاختر نهايتك! نحن في هذه الحياة الدنيا مصيرنا الموت، فمهما طال بنا الزمن فنهايتنا الموت، وإذا كانت تلك النهاية فإن خدمة دين الله، والدفاع عنه، وتبليغه، والموت في سبيل الله قتلًا، أو الموت حتمًا ونحن في ميادين الدعوة إلى دين الله؛ خيرٌ من الدنيا التي فُتِنّا في جمعها والإقبال عليها! إن مغفرة الله ورحمته كما في هذه الآية، تتحقق لمن اختار وفضّل العمل في ميادين الجهاد في سبيل الله، فطوبَى لذاك الخِيار. إن كل إنسان إذا مات، أو قتل لا بُدَّ أنه سوف يُحشر ويُحاسب! فاختر؛ بين الواضح والمجهول! بين

البشـــارة بمغفرة الله ورحمته أو الانتظار لما هـــو آتٍ. إن الدعوة إلى الله وخدمة دينـــه طريقٌ واضحٌ خيرِيّتِهِ، وإن أحمق الحُمْـــقِ وأغبى الغَباءِ أن يغفلَ المســـلمُ عن هذا الخبر اليقين! يقول الشـــيخ الشـــعراوي في هذا الســـياق: «والذي يحرصُ علـــى ألا يخَوض المعَركة مخافـــةَ أن يُقتل، فما الذي يُرَجِّحُ عنده هذا العمل؟ إنه يبتغي الخير بالحياة، ومادام يبتغي الخير بالحياة، إذن فحركته في الحياة في وَهْمِهِ ستأتيه بخيرٍ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلـــك الخير، إنه لم يمتلك بصيـــرةً إيمانَيةً، ونقول له: الخير في حياتك على قدر حركتك: قُوةً وعلمًا وحكمة، أمّا تمتّعك حين تلتقي بالله شهيدًا، فعلى قدر ما عند الله من فضلٍ ورحمةٍ، وهي عطاءات بلا حدود، إذن فأنت ضيّعت على نفســـك الفرق بين قدرتك وحكمتك وعلمك وحركتك في الكســـب، وبين ما ينســـب إلـــى الله في كل ذلك؛ ولذلك يقول الحق: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران:١٥٧]»[١].

قال الشـــيخ ابن عثيميـــن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في الجهـــاد في ســـبيله، ويحتمل أن يكون أعمَّ من ذلـــك، بمعنى: قُتلتم في ســـبيل الله في الجهاد، أو قُتلتم في سبيل الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو قُتلتم في ســـبيل الله في الدعوة إليه، أو قُتلتم في سبيل الله في بيان الحق، كل هذا داخل في سبيل الله»[٢].

(١) تفسير الشعراوي (٣/ ١٨٣٤).
(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة آل عمران: ١٥٧، ١٥٨.

إن الشيخ ابن عثيمين يَعْرِضُ معنىً أعمَّ في سبيل الله، فلا يقصرُ سبيل الله على ميدان الحرب والسلاح، وإنما كُل مجالات خدمة دين الله، فذاك الذي تقتله أفعى أو لصوصٌ وهو في أدغال إفريقيا يدعو إلى الله، وينشر دين الله، إنما قُتل في سبيل الله، وذاك الذي يركب سيارته ويتّجه لتذكير الناس بدين الله أو يذهب لتفقد أيتام وأرامل، وتنحرفُ سيارتهُ فتقتلَه، فذاك في سبيل الله، والذي يبذل نفسه لبناء المساجد وآبار السُّقيا ودور الأيتام، ويموت وهو في تلك الحال، فهذا في سبيل الله، والذي يتتبعُ ذوي الغِنى واليسار، ويجمعُ منهم هذا الريال وذاك الدولار؛ لإنفاقها في تبليغ دِين الله، ويموت وذاك شُغلهُ الشاغل، فهو في سبيل الله. إن سبيل الله وميادينه كثيرة، فاختر الميدان الذي تَجِدُ نفسك فيه!

هذا، وقد تكرر في هاتين الآيتين، القتل والموت بتقديمٍ وتأخير، وكلا الحالتين؛ الموت، والقتل نهايتهما واحدة، فراق الدنيا والانتقال للآخرة، فلماذا هذا التقديم والتأخير؟ وكذلك في نهاية كل آية؛ إخبار من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مختلف؛ ففي الآية الأولى جاء الإخبار أن مغفرته ورحمته خيرٌ مما يجمعون، وفي الآية الثانية ورد الإخبار أنهم إليه يُحشرون. تساؤلاتٌ دفعتني للتدبّر والبحث في كتب التفسير؛ لعلني أجد جوابًا لتساؤلي! إني أعلم أن كل كلمة في القرآن، بل كل حرف جاء في مكانه، ولا يمكن تغيير ذلك ولا تبديله! إعجازٌ وبلاغةٌ كاملة!

ووَجْدتُ الثعالبي قد تناول في تفسيرهِ هذا التساؤل، فقال: «قَدَّم القَتْل هنا أي في الآية الأولى؛ لأنَّه الأشرف الأهمُّ، ثم قدَّم المَوْتَ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران:١٥٨]؛ لأنها آيةُ وعظٍ بالآخرةِ والحَشْرِ،

وآيةُ تزهيدٍ في الدنْيَــا والحَيَاةِ، وفي الآيةِ تحقيرٌ لأمر الدنيا، وحضٌّ على طَلَبِ الشهادةِ، والمعنى: إذا كان الحَشْر لا بُدَّ في كِلاَ الأمْرَيْن، فالمضيُّ إليه في حالِ شــهادةٍ أولى، وعَنْ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أنَّ النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ سَــأَلَ اللهَ الشَّــهَادَةَ بِصدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ على فِرَاشِــهِ»[1]، وعن أَنَسٍ قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا، أُعْطِيهَا، وَلَوْ لَمْ تُصْبْهُ**»[2].

أما ابن عطية فمما ذكره في تفســيره قوله: «قَدَّمَ القَتْلَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿**وَلَئِن قُتِلْتُمْ**﴾؛ لِأَنَّهُ ابْتِداءُ إخْبارٍ، فَقَدَّمَ الأشْــرَفَ الأهَمَّ، والمَعْنى: أو مُتُّمْ في سَــبِيلِ اللهِ، فَوَقَعَ أجْرُكم عَلى اللهِ، ثُمَّ قَدَّمَ المَــوْتَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿**وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ**﴾؛ لِأَنَّها آيَةُ وعْظٍ بِالآخِرَةِ والحَشْرِ، وآيَةُ تَزْهِيدٍ في الدُّنْيا والحَياةِ. والمَــوْتُ المَذْكُورُ فِيها هو مَوْتٌ عَلى الإطْلاقِ؛ في السَّــبِيلِ، وفي المَــنزِلِ، وكَيْفَ كانَ، فَقُدِّمَ؛ لِعُمُومِهِ، وأنَّــهُ الأغْلَبُ في الناسِ مِنَ القَتْلِ»[3]. وقال ابن عطية أيضًا: «المَـغْفِرَةُ والرَّحْمَةُ اللاحِقَةُ عَنِ القَتْلِ أوِ المَــوْتِ في سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ، فَجاءَ لَفْظُ المَـغْفِرَةِ غَيْرَ مُعَرَّفٍ؛ إشارَةً بَلِيغَةً إلى أنَّ أيْسَرَ جُزْءٍ مِنها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا، وأنَّهُ كافٍ في فَوْزِ العبد المُــؤْمِنِ. وتَحْتَمِلُ الآيَةُ أنْ يَكُونَ قَوْلُهُ ﴿**لَمَغْفِرَةٌ**﴾ إشارَةً إلى القَتْلِ أوِ المَــوْتِ في سَبِيلِ اللهِ، سَمّى ذَلِكَ مَغْفِرَةً ورَحْمَةً؛ إذْ هُما مُقْتَرِنانِ بِهِ، ويَجِيءُ التَّقْدِيرُ: لَذَلِكَ مَغْفِرَةٌ ورَحْمَةٌ. ثُمَّ ذَكَرَ تَعالى الحَشْــرَ إلَيْهِ، وأنَّهُ غايَةٌ لِكُلِّ أحَدٍ قُتِلَ

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٧ رقم١٩٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٧ رقم١٩٠٨). وانظر: تفسير الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، (١/ ٣٢٦).

(٣) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٥٣٢).

أو ماتَ. وفي الآيَةِ تَحْقِيرٌ لِأَمْرِ الدُّنْيا، وحَضٌّ عَلى طَلَبِ الشَّـهادَةِ؛ أيْ: إذا كانَ الحَشْرُ في كِلا الأمْرَيْنِ فالمُضِيُّ إلَيْهِ في حالِ الشَّهادَةِ أولى»[1].

وجاء في تفسير الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الفرق بين المغفرة والرحمة: أن المغفرة بها زوال المكروه، والرحمة بها حصول المطلوب؛ أي أنكم يحصل لكم مطلوبكم، وتنجون من مرهوبكم. والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ لكنها تقتضي الإحسان إلى المرحوم والإنعام عليه.

وفي قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٧] إضافة المغفرة إلى الله تدل على عظمة هذه المغفرة؛ وذلك لأن الشيء يعظم بعِظَم باذله، فمثلًا إذا قلت: أعطاني الملك عطيّةً، وقلت: أعطاني الصعلوك عطية، الصعلوك من هو؟ الفقير. ماذا يتصور الناس إذا قلت: أعطاني الملك عطية؟ أنها كثيرة. أعطاني الصعلوك عطية؟ أنها خمس وعشرون هللة، قليلة، فالشيء يَعْظُم بحسب ما يُضاف إليه؛ فلهذا قال: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي ابتداؤها منه، فهو الذي يبتدئ بها عَزَّوَجَلَّ ويتفضّل بها.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ يعني: منه ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أو (خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ) من الدنيا كلها.

وذكر ابن عثيمين عددًا من الفوائد في هاتين الآيتين منها:

«أن من قُتل في سبيل الله أو مات من المؤمنين فقد انتقل إلى خيرٍ من الدنيا كلها؛ لقوله: ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

(١) تفسير ابن عطية (١/ ٥٣٢-٥٣٣).

ومن فوائدها: منّةُ الله عَزَّوَجَلَّ على عباده بتسليتهم في الأمور التي يهمّهم فواتها، فالإنسان يهمّه فوات الدنيا، كلٌّ يحب أن يبقى في الدنيا، فإذا جاءت التسلية من الله، وقيل: إنك إذا مِتّ أو قُتلت انتقلت إلى ما هو خير، فإن الإنسان يتسلّى بهذا، ويقول: الحمد لله أنني إذا انتقلت إلى الآخرة فأنا أنتقل إلى خيرٍ من الدنيا.

ومن فوائد الآية الكريمة: الجمع بين المغفرة والرحمة ليكمل للإنسان سعادته؛ إذ إن بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب.

ومن فوائد هذه الآية الكريمة: جواز إيقاع التفضيل بين شيئين بينهما بُعْدٌ تام؛ لأنك إذا نَسبْتَ ما في الدنيا للآخرة فليس بشيء، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، وأبيَنُ من ذلك قولهُ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩].

وقال ابن عثيمين عند الآية الثانية: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾:

يقول عَزَّوَجَلَّ: إن متُّم أو قتلتم فإن مرجعكم إلى الله، مهما طالت بكم الأيام أو قصرت. المرجعُ إلى الله، وإذا كان المرجعُ إلى الله، فإن الإنسان سوف يبقى مطمئنًّا؛ إذ إن من كان مرجِعهُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، بل إنه إذا كان مؤمنًا فإنه يستبشر، كيف ذلك؟ لقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، ولما حدَّث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عائشة فقال: «**من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه. ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه**». قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت. قال: «**ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت، بشر برضوان**

الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه ممـــا أمامه، كره لقاء الله، وكره الله لقاءه»[1]. وأورد الشـــيخ في هذه الآية الثانية فوائد منها: أن المرجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ مهما طالت بالإنســـان الحياة، وعلى أي صفةٍ كان موتُهُ، سواءً كان بقتلٍ أو بغيرِهِ، فالمرجعُ إلى الله.

ومن فوائدها: زيادة التسلية للمؤمنين؛ لأن المؤمن إذا علم أن مرجعه إلى الله فإنه سوف يطمئن، وسوف يستبشر وينشرح صدره بذلك.

ومـــن فوائدهـــا: إثبـــات لقـــاء الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولـــه: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٨].

ومن فوائدها أيضًا: إثبات الحشر يوم القيامة، فإن الناس يقومون من قبورهم، ويحشرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ ليجازيهم»[2].

قِيل لأحد العارفين: لو ادّخرت مـــن مالِكَ لأبنائك، فقال: «ادّخرتُ مالِيَ لنفسِـــي عند ربي، وادخرتُ ربي لأبنائي»[3]. نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يسلُكَ بنا سُبلَهُ، وأن يُوفّقنا لخدمة دينه، وأن تكون ميتتنا في سبيله. آمين.

(١) أخرجه البخاري (١٦/ ٣٤٦ رقم٦٥٠٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥ رقم٢٦٨٤).
(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة آل عمران.
(٣) في رحاب التفسير، عبدالحميد كشك (١/ ٨١٦). والمقولة لمحمد بن كعب القرظي حين حضرته الوفاة.

القَلبُ

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

ورد القلب في القرآن الكريم مفردًا وجمعًا: قلبٌ، وقلوب. والقلب هو مضخّة الدم في الجسم، المحكمةُ الصنع؛ عضلة، وشرايين، وشُعيرات. وقد تطور العلم الحديث، فصوّر علماء الطبِّ أجزاءه، وجاؤوا بأدقّ التفاصيل عنه! والصورة المرفقة تُقرّب للذهن شكله.

لكن يا تُرى مَن الذي صنعه وأحكم خلقه! تنتهي الحياة بتوقّفه، وسبحان الله الحكيم! مليارات القلوب تعمل بدقة وإحكام. إن التَّفَكُّر في القلوب، وكيف تعمل يزيد المؤمن إيمانًا؛ دِماءٌ جاريةٌ، وكهرباءٌ سارية، ونبضٌ مُنضبط، ليلٌ ونهار، نومٌ ويقظة، إعجازٌ وأسرار. سبحان الذي أتقن كلَّ شيء، سبحانه!

لقد اهتدى الأطباء لتفاصيل القلب الحسّية الظاهرة، فاستبدلوا الشرايين وقسطروها، ودرسوا كهرباء القلب وعالجوها، وتطور العلم، فنقلوا القلوب من جسمٍ إلى جسم، لكن ثمَّة وظائف أُخرى للقلوب

نســـب إليها القرآن الكريم، وظائف أهمُّ من وظائفها الحسية، التي تعمّق فيها الطبّ الحديث، ولا يزال يتعمّق ويبحث، ويستكشف الجديد.



إن هناك الوظائف العقلية للقلب البشري، ومُهِمَّات الإرادة والتصرف، وكيف يرتبط القلب بالدماغ، وكيف يُحبّ الإنســـان ويكره، وكيف يفرح ويحـــزن، ويَرِقُّ ويكفهِر. لقد تميّز قلبُ الإنســـان بأن أودع الله فيه ســـرًّا وإعجـــازًا، لا نعرف كيف هو؛ إذ جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للإنســـان عقلًا يُميّزُ بهِ،

ويعرف به الخير من الشر، والفضيلة والرذيلة، والنافع والضار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾؛ وفي القلب يكون النفـــاق ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٧٧]، وفي القلب تكون القسوة ﴿وَأَلْقَاسِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج:٥٣]، وفي القلب يكون الخوف ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠]، وفي القلب يكون الرُّعب ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الأحـزاب:٢٦]، وفي القلب تكون الضَّغينة ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشـر:١٠]، وفي القلـــب يكون الميل ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤].

وقد تباينت آراء العلماء حول العقل، وهل هو في القلب أم في الرأس أم هو في الجســـم كله؟ أم هو كالروح، والروح علـــمٌ غيبي لا يعلمه إلا الله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

مما قاله ابن قيّم الجوزية عند تفسيره لآية هذه الجلسة: «قَدْ جَعَلَ اللهُ -سبحانه- القَلْبَ يُبْصِرُ ويَعْمى، كَما تُبْصِرُ العَيْنُ وكَما تَعْمى، قالَ تَعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. فالقَلْبُ يَرى ويَسْمَعُ، ويَعْمى ويَصِمُّ. وعَماهُ وصَمَمُهُ أبْلَغُ مِن عَمى البَصَرِ وصَمَمِهِ»[1].

وقال ابن الجوزي كذلك: اختلـــف الفقهاء؛ هل العقل في القلب أم في الدماغ؟ علـــى قولين حكيا روايتين عن الإمـــام أحمد. والتحقيق أن أصله ومادّتـــه من القلب، وينتهي إلى الدماغ قـــال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج:٤٦].

(١) مـدارج السـالكين بيـن منازل إياك نعبـد وإياك نسـتعين: ابن قيـم الجوزية (٣/ ٢٤٧)، تفسـير ابن القيـم، الباحث القرآني، سـورة الحج.

فجعل العقل في القلب كما جعل السمع بالأذن والبصر بالعين، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

وقال ابن عطية في تفسيره لآية هذه الجلسة: «الآية تقتضي أن العقلَ في القلب، وذلك هو الحق، ولا يُنكَر أن للدماغ اتصالًا بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ»(١).

وقال الرازي كذلك: «هل تدل الآية على أن العقل هو العلم، وعلى أن محلّ العلم هو القلب؟ الجواب: نعم؛ لأن المقصود من قوله: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ العلم، وقوله: ﴿يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ كالدلالة على أن القلب آلة لهذا التعقل، فوجب جعل القلب محلًّا للتعقل، ويُسَمَّى الجهلُ بالعَمَى؛ لأن الجاهل، لكونه مُتحيرًا؛ يُشْبِهُ الأعمى»(٢).

وقال الشيخ ابن عثيمين: «محلُّ الإرادة والتدبير للبدن هو القلب؛ لقوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [آل عمران:١٥١]، وليس المحل هو الدماغ كما هو مشهور عند فلاسفة اليوم، فإن الدماغ في الحقيقة لا يدبِّر، الدماغ يتصوّر، ثم يرسل الصورة إلى القلب، والقلب يحكم، الدماغ بمنزلة ما يسمونه بالسكرتير، يجهّز الأوراق ويصلّحها، ثم يرسلها إلى الملك، ويقول: ماذا تأمر؟ والدليل على هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]. نصٌّ واضح أن العقل يكون بالقلب، وأن محل هذا القلب هو الصدر، وبهذا نرد على من قالوا:

(١) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٤/ ١٢٧).
(٢) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٣٤).

إن المراد بقوله: ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ القلوب المعنوية، وهي الدماغ؛ نقول: كيف الله يقول: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾؟ نصٌّ صريح، ثم السنة أيدت هذا فقال النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1]. فالتدبير للقلب، والتصور للدماغ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العقل بالقلب وله اتصال بالدماغ، واتصاله هو ما ذكرنا أن الدماغ يتصور ثم يرسل إلى القلب، والقلب يأمر بواسطة الدماغ، والدماغ يحرك الأعصاب؛ وبهذا التقرير يتبين لنا أن ما جاء به القرآن والسنة في هذه المسألة لا يخالف ما كان معروفًا عند الأطباء اليوم»[2].

وقال الشيخ الشعراوي: العقل في المخ، والقلب في الصدر.

وأقول: سمعت طبيب القلوب الدكتور عبدالله العبدالقادر يتحدث عن القلوب وما فيها من أسرار عجيبة، فيؤكد: أنهم بالبحوث العلمية؛ أثبتوا أن لكل قلب خيمة كهربائية تتواصل مع الآخرين، وهذه الكهرباء هي التي تجعل الإنسان إذا دخل لمجلس، في لحظات يرتاح لهذا وينفر من ذاك. يقول الدكتور: إن هذه الكهرباء تؤكد ما يروى عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأرواحُ جنودٌ مجنَّدةٌ، ما تعارفَ منها ائْتَلَفَ، وما تَناكرَ منها اختلفَ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري: (١/ ٥٦ رقم٥٢)، ومسلم: (٣/ ١٢١٩ رقم١٥٩٩).
(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة آل عمران.
(٣) أخرجه البخاري (٨/ ٣٩٣ رقم٣٣٣٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١ رقم٢٦٣٨) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وجاء في القرآن الكريم الربط على القلوب بمعنى التثبيت، قال -سبحانه- في قصة أهل الكهف: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف:١٤]، وفي قصة أمِّ نبي الله موسى عليه السلام: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠]. إن العلم الحديث درس الظاهر، فعالج الضغط وتدفق الدماء، لكنه عاجز عما لا يمكن رؤيته وإدراكه، عاجز عن معرفة الارتباط بين القلب والجسم، عاجز عن كيفية التواصل بين القلب والمخ، عاجز وعاجز ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

وأقول بعد قراءة أقوال علماء التفسير وتباين آرائهم حول العقل ومكانه، وما أثاره العلم الحديث مؤخرًا من أنهم نقلوا القلوب البشرية من إنسانٍ لآخر فما تغير سلوك المنقول إليه ولا تبدلت مشاعره، وظلَّ كما هو، ولم ينتقل عقل المنقول منه إلى المنقول إليه، والقرآن الكريم كلام الله المُعجز كامل ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

إن القصور إنما هو في الفهم البشري للنصوص، ولهذا اختلف البشر في تفسير المعاني. إن القلب مضخة الدماء لجميع خلايا الجسم، يُصاب الإنسان بجلطةٍ في رأسه، فيفقد التفكير، وتغيب الذاكرة، وينسى كل ما حوله، وقد ينشل جسمه كله أو نصفه، وقد يفقد إرادة التحكم في مسالكه البولية، وقد . . . وقد، إذن فالقلب بضخه الدماء لجميع أجزاء الجسم تبقى الحياة والتفكير، مهما كان هذا القلب أصليًّا أو منقولًا.

هذا وأحسب أن ارتباط القلب بالجسم وكيف يضخ الدماء إلى الشرايين في جميع أجزاء الجسم، وخلايا الدماغ، وشعيراته البالغة

الدقة، التي لا تــكاد تُرى حتى بالمجاهر، فتتكون الحركة والإرادة، ومن ثم تتلألأ خلايا التفكير والاســتذكار، واســتعادة الماضي واســتحضار المســتقبل، وانبعاث عواطف الحب والكره، والفرح والحزن، ومن ثم يتضح أن القلب مضخة حياة الأجســام، ومن ثم نسب القرآن إليه الكثير من تصرفات الإنســان ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]. رزقنا الله نُور البصيرة والتَّبصُّر.

القوامة

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء:٣٤].

هذه الآية الكريمة تتضمن توجيهًا ربّانيًّا مفاده أن لجنسِ الرجال أفضلية قرّرها سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، خالق الكون ومدبّره، أفضليةً يجب قبولها بالرضا والتسليم، فقد بدأ عَزَّوَجَلَّ خلق البشر بالرجل؛ فأول مخلوق، هو آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكان العلم والتعليم الأول للرجل الأول ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]، ومن آدم الرجل خلق الله الأنثى أمَّ البشرية حواء عَلَيۡهَا ٱلسَّلَامُ، فكانت المرأة بعد الرجل، وكان التقديم في البث للرجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [النساء:١]. وجعل سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ النبوة والرسالة في الرجال ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧] وكان للرجل الأفضلية ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران:٣٦] ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة:٢٢٨].

وفي هذه الآيات القول القطعي بأفضلية جنس الرجال؛ ولذا جعل سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لهم القوامة! والقِوامةُ فسرها ابن عباس، فقال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ

﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، «يعني: أُمـــرَاء، عليها أن تطيعَهُ فيمـــا أمرَها الله به من طاعته، وطاعته: أن تكون محســـنةً إلى أهله، حافظةً لمالـــه. وفَضَّلَهُ عليها بنفقتهِ وسعيه»[1].

هذا وقد رأى عدد من المفســـرين: أنه قد يكون لبعض النساء أفضليةٌ وتميزٌ على عدد من الرجال، إلَّا أنها حالات فردية معدودة، لكن الأفضلية العامة لجنس الرجال، اقْتَضَتْها الإرادةُ الربانية!

وقد نظرتُ فيما كتبه عُلماء التفسير حول هذه الآية، فألفيتهم قد تنوع فهمهم واستنباطهم، أجزل الله لهم الأجر.

فمعظم المفسرين رأوا أن هذه الآية نصّت على أفضلية الرجال؛ ولذا اســـتنبطوا منها أن الولاية العامة للرجل، قال الشـــيخ ابن عثيمين: «ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا ولاية للنســـاء علـــى الرجال لا في قضاء ولا إمارة ولا أي شـــيء؛ لقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، فمن عكس فقد خالف سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ، منْ جعل للمرأة الولاية فقد خالف سُنَّة الله.

فإن قال قائل: أليست الأم تكون وليّة على أولادها وعلى أموالهم؟

قلنا: هذه ولاية خاصـــة، وولاية طارئة بخلاف الولاية العامة، ولهذا قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**»[2].

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري، ت: أحمد شاكر (٨/ ٢٩٠)، وانظر: موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور: أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين (٢/ ٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٠/ ٥٢٢ رقم٤٤٢٥). وانظر: تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة النساء.

وقال بهذا الاستنباط: إن الولاية العامة للرجال: الزمخشري في تفسيره الكشاف، وأبو حيان في تفسيره البحر المحيط[1].

ومما أورده الشيخ ابن عثيمين عند تفسيره لآية هذا المجلس قال: «من فوائد هذه الآية:

* التفضيل بين البشر ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾. فإن قال قائل: هل للمفضَّل عليه أن يحتج على الله فيقول: يا ربِّ لِمَ فضّلتَ هذا عليَّ؟ نقول: ليس له ذلك، لماذا؟ يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

نعم، يقال للمفضَّل عليه: هل منعك الله حقَّك؟ إن كان الأمر كذلك فلك الحجة، وإلا ففضل الله يؤتيه من يشاء، ولهذا لما «ضرب النبي ﷺ مثلًا لليهود والنصارى وهذه الأمَّة برجل استأجر أُجَراء من الصباح إلى الظهر، ومن الظهر إلى العصر، فأعطى كلَّ واحدٍ قيراطًا قيراطًا، ومن العصر إلى الغروب أعطاهم على قيراطين قيراطين، فقال الأولون: لماذا نُعطَى على دينار ونحن أكثر عملًا؟ فقال: هل نقصتكم من أجركم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: ذلك فضلي أوتيه من أشاء»[2]. إذن، لا حجة للمفضَّل عليه على الله عَزَّوَجَلَّ بالتفضيل. ولكن ماذا يصنع المفضَّل عليه؟

(١) انظر: الكشاف (١/ ٥٠٥-٥٠٦)، والبحر المحيط (٣/ ٦٠٧-٦٠٩)، الباحث القرآني، سورة النساء.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٥٦٨ رقم ٥٥٧).

أشـــار الله إلى ذلك في آية سبقت، فقال: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢]، اسأل الله من فضله.

* ومن الفوائد، كراهة السؤال، كراهة سؤال الناس. واستنتج الشيخ هذه الفائـــدة فقال: كون المنفِقِ لهُ فضلٌ علـــى المنفَق عليه يكون ســـؤالك إياه ذلًّا؛ لأنك إذا ســـألته فقد أثبتَّ لـــه فضلًا عليك، إذا ســـألته وأعطاك أثبتَّ له فضلًا عليك، وهذا ذلّ، ولهذا «بايع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه على أن لا يســـألوا الناس شيئًا مطلقًا، حتى كان سوط أحدهم يســـقط من على ظهر بعيره، فينزل فيأخذه ويركب، ولا يقول للناس: أعطوني إياه»[1]؛ لأن سؤالك الناس ذلّ.

* ومن فوائد الآية الكريمة: الثناء على حفظ الغيب؛ أي: على ما كان ســـرًّا بينك وبين أخيك. تؤخذ؟ من قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾.

هذا ومما ذكره الشـــعراوي في تفســـيره آية هـــذا المجلس: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ قولـــه: «أول ما نلتفـــت إليه أن بعضهم لم يفســـروا الآيـــة إلَّا على الرجل وزوجته على الرغم من أنَّ الآية تكلمت عن مطلق رجال ومطلق نساء، فليســـت الآية مقصورة على الرجل وزوجه، فالأب

(١) أخرجـه مسـلم (٢/ ٧٢١ رقـم١٠٤٣)، عـن عوف بن مالك الأشـجعي، قال: «كنا عند رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقـال: «**ألا تبايعـون رسـول الله؟**» وكنـا حديـث عهـد ببيعـة، فقلنا: قـد بايعناك يا رسـول الله، ثـم قـال: «**ألا تبايعـون رسـول الله؟**» فقلنـا: قـد بايعنـاك يـا رسـول الله، ثـم قـال: «**ألا تبايعـون رسـول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟» قـال: فبسـطنا أيدينـا، وقلنـا: قـد بايعنـاك يـا رسـول الله، فعـلام نبايعـك؟ قـال: «**علـى أن تعبدوا الله، ولا تشـركوا به شـيئًا، والصلوات الخمـس، وتطيعوا، ولا تسـألوا الناس شـيئًا**». فلقـد رأيـت بعـض أولئـك النفر، يسـقط سـوط أحدهم، فما يسـأل أحـدًا يناولـه إياه».

قوّام على البنات، والأخ على أخواتــه. ولنفهم أولًا ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ وماذا تعني؟ وننظر أهذه تعطي النساء التفوق والمركز، أم تعطيهن التعب. والحــق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يطلب منا أن نحترم قضيــة كونية، فهو الخالق الذي أحسن كل شــيء خلقه، وأوضح القضية الإيمانية ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، والذي يخالف فيها عليه أن يوضّح -إن وجد- ما يؤدي إلى المخالفة، والمرأة التي تخاف من هــذه الآية، نجد أنها لو لم ترزق بولد ذكر لغضبت، وإذا ســألناها: لماذا إذن؟ تقول: أريــد ابنًا ليحمينا. كيف وأنت تعارضين هذا الأمر؟

ولنفهم ما معنى «قوَّام»، القوَّام هو المبالغ في القيام. وجاء الحق هنا بالقيام الذي فيه تعب، وعندما تقول: فلان يقوم على القوم؛ أي لا يرتاح أبدًا. إذن، فلماذا تأخــذ ﴿قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ على أنه كتم أنفاس؟ لماذا لا تأخذها على أنه ســعي في مصالحهن؟ فالرجــل مكلّف بمهمة القيام على النساء؛ أي أن يقوم بأداء ما يصلح الأمر. ونجد أن الحق جاء بكلمة ﴿ٱلرِّجَالُ﴾ على عمومها، وكلمة ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ على عمومها، وشيء واحد تكلم فيه بعد ذلك في قوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فما وجه التفضيل؟

إن وجــه التفضيل أن الرجل له الكدح، وله الضرب في الأرض، وله السعي على المعاش؛ وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها. وفي قصــة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لنا المثل، حين حذّر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آدم وزوجته من الشــيطان، إبليس الذي دُعي إلى الســجود مع الملائكة لآدم فأبى، وبذلك عرفنا العداوة المسبقة من إبليس لآدم، وحيثيتها: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١].

وأوضـح الحـق لآدم: إذا هبطت إلى الأرض فاذكر هـذه العداوة، واعلم أنه لن يتركك، وسـيظل يغويك ويغريك؛ لأنـه لا يريد أن يكون عاصيًـا بمفرده، بل يريـد أن يضم إليه آخرين من الجنـس الذي أبى أن يسـجد هو لأبيهم آدم يريد أن يغويهم، كما حاول إغواء آدم: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾ وهل قال الحق بعدها: فتشقيا أو فتشقى؟ قال سبحانه: ﴿فَتَشْقَىٰ﴾ [طه:١١٧].

فساعة جاء الشـقاء في الأرض والكفاح ستر المرأة، وكان الخطاب للرجـل. وهذا يدل على أن القوامة تحتاج إلـى تعب، وإلى جهد، وإلى سعي، وهذه المهمة تكون للرجل.

ونلحظ أنه سـاعة التفضيل قال: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لقد جاء بـ﴿بَعْضَهُمْ﴾؛ لأنه سـاعة فضّل الرجل؛ لأنه قوّام، فَضَّلَ المرأة أيضًا لشـيءٍ آخر، وهو كونها السـكن حين يستريح عندها الرجل وتقوم بمهمتها.

ثم تأتي حيثية القوامة: ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، والمال يأتي نتيجة الحركة ونتيجة التعـب، فالذي يتعب نقول له: أنت قـوّام، إذن فالمرأة يجب أن تفرح بذلك؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعطى المشقة، وأعطى التعب للجنس المؤهل لذلك. ولكن مهمتها، وإن كانت مهمة عظيمة، إلا أنها تتناسـب والخصلة المطلوبة أولًا فيها: الرقة والحنان والعطف والوداعة. فلم يأت بمثل هذا ناحية الرجل؛ لأن الكسـب لا يريد هذه الأمور، بل يحتاج إلى القوة والعزم والشدة، فقول الله: ﴿قَوَّامُونَ﴾ يعني مبالغين في القيام على أمور النساء.

ويوضح للنســـاء: لا تذكرن فقط أنها حكاية زوج وزوجة. قَدِّرْنَ أن القيـــام يكون على أمر البنات والأخـــوات والأمهات، فلا يصح أن تأخذ «قوَّام» على أنها الســـيطرة؛ لأن مهمة القيام جاءت للرجل بمشقّة، وهي مهمة صعبة عليه أن يبالغ في القيام على أمر مَنْ يتولى شؤونهن.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ إذا كان الـــزواج متعـــة للأنثـــى وللذكر. والاثنان يســـتمتعان ويريدان اســـتبقاء النوع في الذرية، فما دامت المتعة مشتركة، وطلب الذرية أيضًا مشتركًا، فالتبعات التي تترتب على ذلك لم تقـــع على كل منهما، ولكنها جاءت على الرجل فقط. صداقًا ونفقة حتى ولو كانت المرأة غنية لا يفرض عليها الشرع حتى أن تقرض زوجها.

إذًا، فقوامة الرجال جاءت للنســـاء براحـــة، ومنعت عنهن المتاعب. فلماذا تحزن المرأة منها؟ فـ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي قائمون إقامة دائمـــة؛ لأنه لا يقال قوّام لمطلق قائم، فالقائـــم يؤدي مهمة لمرّة واحدة، لكن (قوّام) تعني أنه مســـتمر فـــي القوامة. ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. وما دمنا نكدح ونتعب للمرأة فلا بد أن تكون للمرأة مهمة توازن ذلك، وهي أن تكون ســـكنًا له، وهذه فيها تفضيل أيضًا.

ويتابع الحق: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ﴾، والمرأة الصالحة هي المرأة التي اســـتقامت على المنهج الذي وضعـــه لها من خلقها في نوعها، فما دامت هي صالحـــة تكون قانتة، والقنوت هو دوام الطاعة لله، ومنه قنوت الفجر الذي نقنتـــه، وندعو ونقف مدة أطول في الصلاة التي فيها قنوت.

والمرأة القانتة خاضعة لله، إذن، فحين تكون خاضعة لله تلتزم منهج الله وأمره فيما حكم به من أن الرجال قوامون على النساء، ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾، وحافظات للغيب تدل على سلامة العفة. فالمرأة حين يغيب عنها الراعي لها والحامي لعرضها كالأب بالنسبة للبنت والابن بالنسبة للأم، والزوج بالنسبة للزوجة، فكل امرأة في ولاية أحد لا بُدَّ أن تحفظ غيبته؛ ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدد المرأة الصالحة، قال في حديث عن الدنيا: «**الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[1].

لقد وضع ﷺ قانونًا للمرأة الصالحة، يقول فيه: «**خير النساء التي تسرّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره**»[2].

وأي شيء يحتاج الرجل إليه أحسن من ذلك. وكلمة «إن نظرت إليها سرّتك» إياك أن توجهها ناحية الجمال فقط، جمال المبنى، لا، فساعة تراها اجمعْ كل صفات الخير فيها، ولا تأخذ صفة ولا تترك صفة؛ لأن النبي ﷺ حذرنا من أن نأخذ صفة في المرأة، ونترك صفة أخرى، بل لا بُدَّ أن نأخذها في مجموع صفاتها، فقال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٠٩٠ رقم ١٤٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (١٥/ ٤١١ رقم٩٦٥٧)، والنسائي في سننه الصغرى (٦/ ٦٨ رقم٣٢٣١)، وفي الكبرى (٣/ ٢٧١ رقم٥٣٤٣).

(٣) أخرجه البخاري (١٢/ ٥٧٥ رقم٥٠٩٠)، ومسلم (٢/ ١٠٨٦ رقم١٤٦٦).

والمـــرأة تكون مـــن (حافظات الغيـــب) ليس بارتجـــالٍ من عندها أو باختيار، بل بالمنهج الذي وضعه الله لحفظ الغيب.

فمـــا المنهج الذي وضعـــه الله لحفظ الغيب؟ تحافـــظ على عرضها وعلـــى مال زوجها في غيبته، فتنظر المنافذ التـــي تأتي منها الفتنة وتمتنع عنها، لا تخرج إلى الشوارع إلا لحاجة ماسّة أو ضرورة؛ كي لا ترى أحدًا يفتنها أو يُفتن بها؛ لأن هذه هي مقدمـــات الحفظ، ولا تذهب في زحمة الحياة، وبعد ذلك نقـــول لها: «حافظي على الغيب» بـــل عليها أن تنظر ما بيّنه الله في ذلك. فإن اضطـــررت أن تخرجي فلتغضّي البصر؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١].

نســـأل الله أن يجعلنا من أهل طاعته، وأن يوفقنا فيما اختارنا له، وأن يعيننا على ذلك.

القولُ الثَّابت

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ورد في القرآن الكريم القول الثابت، وورد القول السديد، وفي آية هذا المجلس حديثنا عن آية القول الثابت؛ فالله سبحانه يبشر عباده المؤمنين بالثبات في الحياة الدنيا وفي الآخرة. رزقنا الله الثبات على دينه الحق.

قال الشيخ ابن سعدي: «يخبر تعالى أنه يثبّت عباده المؤمنين؛ أي: الذين قاموا بما عليهم من إيمان القلب التام، الذي يستلزم أعمال الجوارح ويثمرها، فيثبّتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبّه الله على هوى النفس ومراداتها.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «من ربُّك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي».

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله، ولكنهم ظلموا أنفسهم. وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة، وصفتها، ونعيم القبر وعذابه»[1].

إن السعيد منْ وفّقه الله للقول الثابت، وثبّته في دنياه وآخرته! إنها الدنيا مهما طال العمر، ومهما ازدانت بالمال والبنون، فهي متاع الغرور، وإلى زوال، ومن الدعاء المأثور «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[2].

إن الثبات من خير النعم وأجلِّها على المؤمنين؛ ففي عهد الرسول ﷺ ومن بعده في زمن الراشدين أسلم بعض الناس، ثم ارتدّ، وفي كل زمانٍ نسمع بعض الأشخاص يتطاولون على الثوابت، ويزعمون العلم والمعرفة. نسأل الله الثبات ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨]. وويلٌ لذاك الشقي المحروم من الثبات، نسأل الله نُور البصيرة، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد:١٤]. شتّان، شتّان، ما بين البَيِّنة والضلالة. ربّاه نتوسل إليك الهداية والرشاد.

قال ابن القيم في تفسيره: «﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كَنْزٌ عَظِيمٌ مَن وُفِّقَ لِمَظِنَّتِهِ وأحْسَنَ اسْتِخْراجَهُ واقْتِناءَهُ، وأنْفَقَ مِنهُ فَقَدْ غَنِمَ، ومَن حُرِمَهُ فَقَدْ حُرِمَ، وذَلِكَ أنَّ العَبْدَ لا يَسْتَغْنِي عَنْ تَثْبِيتِ اللهِ لَهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، فَإنْ لَمْ يُثَبِّتْهُ وإلّا زالَتْ سَماءُ إيمانِهِ وأرْضِهِ

(١) تفسير السعدي (ص٤٢٥). والباحث القرآني، سورة الأحزاب.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (رقم٦٨٣)، والترمذي (٤/ ٤٤٨ رقم٢١٤٠)، وصححه.

عَــنْ مَكانِهما، وقَدْ قالَ تَعالى لِأكْرَمِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ عَبْدِهِ ورَسُــولِهِ:﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسـراء:٧٤]. وقــالَ تَعالى لِأكْرَمِ خَلْقِهِ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢]. وفي الصَّحِيحَيْنِ مِن حَدِيثِ البَجَلِيِّ قالَ: «وَهُوَ يَسْألُهم ويُثَبِّتُهُمْ»، وقالَ تَعالى لِرَسُولِهِ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود:١٢٠].

فالخَلْقُ كُلُّهم قِسْمانِ: مُوَفَّقٌ بِالتَّثْبِيتِ، ومَخْذُولٌ بِتَرْكِ التَّثْبِيتِ، ومادَّةُ التَّثْبِيتِ أصْلُهُ ومَنشَــؤُهُ مِــن القَوْلِ الثّابِتِ، وفِعْلِ ما أُمِرَ بِــهِ العَبْدُ، فَبِهِما يُثَبِّــتُ اللهُ عَبْدَهُ، فَكُلُّ مَن كانَ أثْبَتَ قَوْلًا وأحْسَــنَ فِعْلًا كانَ أعْظَمَ تَثْبِيتًا، قالَ تَعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النسـاء:٦٦]. فَأثْبَتُ النّــاسِ قَلْبًا أثْبَتُهم قَوْلًا، والقَوْلُ الثّابِتُ هو القَوْلُ الحَقُّ والصِّدْقُ، وهو ضِدُّ القَوْلِ الباطِلِ الكَذِبِ؛ فالقَــوْلُ نَوْعانِ: ثابِتٌ لَهُ حَقِيقَةٌ، وباطِلٌ لا حَقِيقَةَ لَهُ، وأثْبَتُ القَوْلِ كَلِمَةُ التَّوْحِيــدِ ولَوازِمُها، فَهي أعْظَمُ ما يُثَبِّتُ اللهُ بِهــا عَبْدَهُ في الدُّنْيا والآخِــرَةِ؛ ولِهَذا تَرى الصّادِقَ مِــن أثْبَتِ النّاسِ وأشْجَعِهِمْ قَلْبًا، والكاذِبَ مِن أمْهَنِ النّاسِ وأخْبَثِهِمْ وأكْثَرِهِمْ تَلَوُّثًا وأقَلِّهِمْ ثَباتًا، وأهْلُ الفِراسَــةِ يَعْرِفُونَ صِدْقَ الصّادِقِ مِن ثَباتِ قَلْبِهِ وقْتَ الإخْبارِ وشَــجاعَتِهِ ومَهابَتِهِ، ويَعْرِفُونَ كَذِبَ الكاذِبِ بِضِدِّ ذَلِكَ، ولا يَخْفى ذَلِكَ إلّا عَلى ضَعِيفِ البَصِيرَةِ»[1].

وجاء في المحرر الوجيز لابن عطية: «القَوْلُ الثابِتُ في الحَياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ كَلِمَةُ الإخْلاصِ والنَّجــاةُ مِنَ النارِ «لا إلَهَ إلّا اللهُ»، والإقْرارُ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت: طه عبدالرؤوف سعد (١/ ٢٠٧-٢٠٨)، الباحث القرآني تفسير ابن قيم الجوزية، سورة إبراهيم.

بِالنُّبُوَّةِ، وهَذِهِ الآيَةُ تَعُمُّ العالَمَ مِن لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى يَوْمِ القِيامَةِ. وقالَ طاوُسُ، وقَتادَةُ، وجُمْهُورُ العُلَماءِ: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هي مُدَّةُ حَياةِ الإنْسانِ، ﴿وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ هي وقْتُ سُؤالِهِ في القَبْرِ. و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في هَذِهِ الآيَةِ: الكافِرُونَ، بِدَلِيلِ أنَّهُ عادَلَ بِهِمُ المُؤْمِنِينَ، وعادَلَ التَّثْبِيتَ بِالإضْلالِ»[1].

وبالقراءة في كتب السنة، نجد عددًا من الأحاديث الشريفة التي تتناول نعمة الثبات، وتثبيت الله لعباده المؤمنين، فعن البراء بن عازب: «إذا أُقْعِدَ المُؤْمِنُ في قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أنْ لا إلَهَ إلّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ، فَذلكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ حَدَّثَنا مُحَمَّدُ بنُ بَشّارٍ، حَدَّثَنا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنا شُعْبَةُ بهذا -وزادَ-: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نَزَلَتْ في عَذابِ القَبْرِ»[2].

هذا وإن الثبات نعمةٌ جليلةٌ، فلا يغترّ امرؤ بدينه، بل يسأل الله الثبات، ويُلِحُّ في دعائه بطلب الثبات. فذاكم جَبَلة بن الأيهم في العصر الأول في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الرواة عنه: كان جَبَلة رجلًا شريفًا في قومه وسيدًا نبيلًا، وأراد أن يدخل الإسلام، فقدم إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فأسلم وحسُن إسلامه، ثم عاش في المدينة، فلما كان الحج ذهب إلى مكة، وهناك فَقَدَ الثباتَ واليقين؛ تعرض لموقف أخرجه عن طوره، ألا وهو أن رجلًا من فزارة داس على مؤخّرة ردائه في أثناء تأدية المناسك، فلطم الرجل قائلًا له وقد أخذته العزة: «ألا تعلم من أنا

(١) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣٣٧).
(٢) أخرجه البخاري (٣/ ٣٥٦ رقم١٣٦٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٠١ رقم٢٨٧١).

حتى تدوس على ردائي». وشـكاه الفزاري إلـى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فاسـتدعاه عمر، وقال له: دعه يقتصّ منك. فقـال جَبَلة لعمر: وهل أستوي أنا وهو سوقة؟

فقال له عمر: نعم، الإسلام ساوى بينكما، ولست تفضله إلا بالتقوى.

فقال جَبَلـة: إني كنت أظنّ أني سـأكون في الإسـلام أعزّ مني في الجاهلية!

قال له عمر: دع ذاك، فإنك إن لم تُرضه أقَدْتُهُ منك!

قال جَبَلة: إذن أتنصَّر!

قال عمر: إذا تنصّرت ارتددت بعد إسلام وأضرب عنقك!

قال جَبَلـة: دعني أنظر في أمـري الليلة. غاب عنـه الثبات، وغلبه الشيطان، وزَيَّنَ له وكَبَّرَ وعَظَّمَ حالتَه، ونفخ فيه السوء، فهرب ومن أطاعه من قومـه في ظلمة الليل، وعاد إلى نصرانيتـه وارتد، ومضى إلى قيصر ملك الروم، فأكرمه وأقطعه الأمـوال والضياع، وبقي عنده مُكرَّمًا، لكنه ندم، وقال أبياته المشهورة:

تَنَصَّـرَتِ الْأَشْـرَافُ مِنْ عَـارِ لطمةٍ
وَمَـا كَانَ فِيهَـا لَوْ صَبَـرْتُ لَهَا ضَرَرْ

تَكَنَّفَنِـي فيهـا اللجـاج ونخـوةٌ
وَبِعْتُ بِهَا الْعَيْـنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَرْ

فَيَـا لَيْـتَ أُمِّـي لَـمْ تَلِدْنِـي وَلَيْتَنِـي
رَجَعْتُ إِلَـى الْقَوْلِ الَّـذِي قَالَهُ عُمَرْ

وَيَـا لَيْتَنِـي أَرْعَـى الْمَخَـاضَ بقفرةٍ
وَكُنْـتُ أَسِـيرًا فِـي رَبِيعَـةَ أَوْ مُضَـرْ

وَيَـا لَيْـتَ لِـي بِالشَّـامِ أَدْنَى معيشـةٍ
أُجَالِسُ قَوْمِي ذَاهِبَ السَّمْعِ وَالْبَصَرْ[1]

نسأل الله الثبات في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

(١) البداية والنهاية: ابن كثير (٨/ ٧١).

القولُ السَّديد

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السرّ والعلانية، ويخصُّ منها، ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذّر اليقين؛ من قراءة، وذكر، وأمرٍ بمعروف، ونهيٍ عن منكر، وتعلّم علمٍ وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق يوصل لذلك، وكل وسيلةٍ تعين عليه»[1].

إنه بتدبّر آيتي هذا المجلس، والرجوع لأقوال العلماء، نجد تنوير الله ورحمته وتكريمه لعباده المؤمنين، يُبصرهم ويُرشدهم لما ينفعهم في دينهم ودنياهم، يأمرهم بتقواه، ومع التقوى أن يقولوا القول السديد، ومن اتقى الله وخافه؛ ما ظلم، ولا بغى، ومنْ قال القول السديد: ما فاه بفاحش القول ولا قبيحه، يَعْذُبُ لسانه، ويطيبُ كلامه، مُصاحبته سعادة، ومُحَيَّاهُ بشاشة. ويُخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإخباره يقين مُتحقّق: أن منْ يتقِ الله ويقول القول السديد: يصلح له عمله، ويغفر له ذنبه.

(١) تفسير السعدي (ص٦٧٦)، والباحث القرآني، سورة الأحزاب.

والقول السـديد هو الذي تتفتح له أبواب السـماء، ويصعد لله عَزَّوَجَلَّ، فـالله طيّب لا يقبل إلا طيبًـا ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

كُلٌ منا يَودُّ صلاح أعماله، وينشد نجاح أفعاله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرشدنا في هذه الآية الكريمة لطريق الصلاح والنجاح أن نقول القول السـديد، ومـن ثم فإن منْ يلتزم بهـدي هذا الأمر الرباني يعيش فـي دُنياه مطمئنًا مُوقنًا برضـا الله، ومنْ يقف مع كل كلمة من كلمـات هذا الهدي متدبّرًا متأمـلًا، ويجعلها ماثلةً أمامه في ليله ونهـاره، وفي كل لحظة من حياته؛ يحيا حياة السـعادة، وتدوم له البهجة. يصلح الله نفسـه؛ فينضبط لسانه، وتزكو أعماله، ويحجزه الله عن القبيح والخطل، ويقيه السـفه والطيش، ويغفر الله زلّاته، ويضاعف حسناته، وتمضي أيامه في مسرّة وخير، يلتذّذ بالعبادة القولية والعمليه، يرقُّ قلبه للعبادة، وتنقاد جوارحه للطاعة، يعمل الخير الخاص والعام، يقدّم الصالحات من الأعمال اللفظية والحسّـية، الأعمال المتعدية النفع من صدقة وغيرها، والأعمال الذاتية من استغفارٍ وصومٍ وصلاة. رزقنا الله التوفيق للقول السديد.

قال الشـيخ ابن عثيميـن: «ما هي نتيجة تقوى الله والقول السـديد؟ النتيجة مـن أَحَـبِّ ما يكون مـن النتائـج ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ الدينية والدنيويـة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: ما أذنبتموه، فعلينـا أن نأخذ بهذه التوجيهات الإلهية والأوامر، فنتقي الله، ونقول قولًا سديدًا»[1].

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأحزاب.

إن قــول الخير، قول الفضيلة، توفيــقٌ وهدايةٌ من الله، فمن كرامة الله لأهــل الجنة في الجنة، أن يهديهم القــول الطيب، فلا يتكلمون إلا قولًا زكيًّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٣-٢٤].

هناك في الجنة لا سلاطة لسان، ولا بذاءة قول. نسأل الله طيّب القول. لقد هداهم الله للطيّب من القول، وبَشَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتلك الهداية. كتبنا الله منهم.

هذا وإن للقول شأنه وخطورته؛ فكم من كلمة قالت لصاحبها دعني! وكم من قولٍ أورد المهالك، تقول العرب: مقتل الرجل بين فكّيه!

وكم أثار القول من أحقادٍ وضغائن، في الأمثال العربية «جَرح السنان ولا جَرح اللسان».

وفي الحديث عن معاذ بن جبل: يا رســولَ اللهِ، وإنّا لمؤاخذون بما نتكلَّــمُ به؟ فقال: «**وهل يُكِبُّ النّاسَ في النّارِ على وجوهِهم** أو قال: **على مناخرِهم إلّا حصائدُ ألســنتِهم**»[1]. والمغتاب تطير حســناته لذاك الذي اغتابه. إنه القول عندما ينحرف ويفقد الحصانة.

إن شأن القول عظيم يستخفّ به بعض البشر، فيتركون ألسنتهم تهذي بكل قول، وما علموا أن من خير النعم، حفظ اللســان من الزلل وفاحش القول.

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٣٤٤-٣٤٥ رقم٢٢٠١٦)، والترمذي (٥/ ١١ رقم٢٦١٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ١١٤ رقم١١٢٢).

وفي آية أُخرى أثنى الله جَلَّجَلَالُهُ على استماع القول الحسن، وهذا يعني الزجر والنهي عن استماع القول القبيح، القول المنكر. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:١٨].

إنه الفوز يستمعون فيتبعون؛ أي يعملون بما استمعوه من قولٍ حسن! وأُولئك الذين جمعوا، بين استماع القول الحسن والعمل به، فازوا بهداية الله وبرزانة العقول. كتبنا الله منهم!

«ومن القول السـديد، لين الكلام ولطفه، في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة، بما هو الأصلح»[1].

ومما جاء في تفسـير التحرير والتنوير لابن عاشور: «التَّقْوى جِماعُ الخَيْرِ في العَمَلِ والقَوْلِ. والقَوْلُ السَّـدِيدُ مُبِثُّ الفَضائِلِ، وابْتِداءُ الكَلامِ بِنِـداءِ الَّذِينَ آمَنُوا لِلاهْتِمامِ بِهِ، واسْـتِجْلابِ الإصْغاءِ إلَيْهِ. وتَقْدِيمُ الأمْرِ بِالتَّقْوى مُشْعِرٌ بِأنَّ ما سَيُؤْمَرُونَ بِهِ مِن سَدِيدِ القَوْلِ هو مِن شُعَبِ التَّقْوى، كَما هو مِن شُعَبِ الإيمانِ.

والقَوْلُ: الكَلامُ الَّذِي يَصْدُرُ مِن فَمِ الإنْسانِ يُعَبِّرُ عَمّا في نَفْسِهِ.

والسَّدِيدُ: الَّذِي يُوافِقُ السَّدادَ. والسَّدادُ: الصَّوابُ والحَقُّ، ومِنهُ تَسْدِيدُ السَّهْمِ نَحْوَ الرَّمْيَةِ؛ أيْ عَدَمُ العُدُولِ بِهِ عَنْ سِمَتِها بِحَيْثُ إذا انْدَفَعَ أصابَها، فَشَمَلَ القَوْلُ السَّـدِيدُ؛ الأقْوالَ الواجِبَةَ، والأقْوالَ الصّالِحَةَ النّافِعَةَ، مِثْلَ ابْتِداءِ السَّلامِ، وقَوْلِ المـؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ: إنِّي أُحِبُّكَ.

(١) تفسير السعدي (ص٦٧٦)، والباحث القرآني، سورة الأحزاب.

والقَــوْلُ يَكُونُ بابًا عَظِيمًا مِن أبْوابِ الخَيْرِ، ويَكُونُ كَذَلِكَ مِن أبْوابِ الشَّرِّ.

وفي الحَدِيثِ «رَحِمَ اللهُ امْرءًا قالَ خَيْرًا فَغَنِمَ، أوْ سَكَتَ فَسَلِمَ».

وفي الحَدِيثِ الآخَرِ: «مَن كانَ يُؤْمِنُ بِــاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ».

ويَشْــمَلُ القَوْلُ السَّــدِيدُ ما هو تَعْبِيرٌ عَنْ إرْشــادٍ مِن أقْــوالِ الأنْبِياءِ والعُلَماءِ والحُكَماءِ، وما هو تَبْلِيغٌ لِإرْشــادِ غَيْرِهِ مِن مَأْثُورِ أقْوالِ الأنْبِياءِ والعُلَمــاءِ. فَقِراءَةُ القرآن عَلى النّاسِ مِنَ القَوْلِ السَّــدِيدِ، ورِوايَةُ حَدِيثِ الرَّسُولِ ﷺ مِنَ القَوْلِ السَّدِيدِ.

وفــي الحَدِيثِ: «**نَضَّــرَ اللهُ امْرءًا سَــمِعَ مَقالَتِي فَوَعاهــا فَأدّاها كَما سَمِعَها**».

وكَذَلِكَ نَشْرُ أقْوالِ الصَّحابَةِ والحُكَماءِ وأئِمَّةِ الفِقْهِ.

ومِنَ القَوْلِ السَّدِيدِ تَمْجِيدُ اللهِ والثَّناءُ عَلَيْهِ مِثْلَ التَّسْبِيحِ.

ومِنَ القَــوْلِ السَّــدِيدِ الآذانُ والإقامَةُ قــالَ تَعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

فَبِالقَوْلِ السَّــدِيدِ تَشِــيعُ الفَضائِلُ والحَقائِقُ بَيْنَ النّاسِ؛ فَيَرْغَبُونَ في التَّخَلُّقِ بِها.

وبِالقَوْلِ السَّــيِّئِ تَشِــيعُ الضَّلالاتُ والتَّمْوِيهاتُ؛ فَيَغْتَــرُّ النّاسُ بِها، ويَحْسَبُونَ أنَّهم يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

والقَوْلُ السَّدِيدُ يَشْمَلُ الأمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ»[1].

إن القول السديد منهج الأخيار، ذاكم مصعب بن عمير أرسله رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة قبل أن يهاجر إليها، أرسله ليُفَقِّه الأنصار بعد أن آمنوا به وبايعوه عند العقبة، فكان أول سفراء الإسلام، وأول مبشّر بدين الله الحق على ظهر الأرض! وشرع يقول القول السديد لأهل المدينة، فترقّ قلوبهم، وتلين مشاعرهم، وصار الناس في المدينة المنورة يُسلمون تباعًا. إنه القول السديد الذي وُفِّق له الصحابي الجليل مصعب بن عمير رضي الله عنه.

ذات يوم فاجأه -وهو يعظ الناس- (أسيد بن خضير) سيد بني عبد الأشهل بالمدينة، فاجأه شاهرًا حربته، يتوهج غضبًا وحنقًا على هذا الذي جاء يفتن قومه عن دينهم. ويدعوهم لهجر آلهتهم، ويتحدث معهم بكلامٍ ليّن يلج القلوب.

قال أسيد مخاطبًا مصعب: «ما جاء بك إلى حيّنا، تُسفّه ضعفاءنا. وتفتن أهلنا؟ إن كُنت تريد الحياة فاعتزلنا واتركنا وشأننا».

وانفرجت أسارير مصعب بالخير، وتحرّك بالقول الطيّب والحديث الحسن، فقال: «أو لا تجلس فتستمع؟! فإن رضِيتَ أمْرَنا قَبِلْتَهُ. وإن كرهته كففنا عنك ما تكره».

وكان أُسيد رجلًا أريبًا عاقلًا، سمع العقل يتحدث، سمع مصعب يدعوه أن يسمع لا غير. فإن اقتنع، تركه لاقتناعه، وإن لم يقتنع ترك

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (٢٢/ ١٢٢-١٢٣).

مصعب حيّهم وعشيرتهم، وتحول إلى حي آخر وعشيرة أخرى غير ضارٍّ ولا مضارّ.

هنالك أجابه أُسيد قائلًا: أنْصَفْت. وألقى حربته إلى الأرض، وجلس يصغي.

ولم يكد مصعب يقرأ القرآن، ويفسّر الدعوة التي جاء بها محمد بن عبدالله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، حتى أخذت أسارير أسيد تبرق وتشرق. وتتغير مع مواقع الكلم، وتكتسي بجماله! أي والله، سمع القول المبارك، سمع كلام الله الخالد.

ولم يكد مصعب يفرغ من حديثه حتى هتف به أسيد بن حضير وبمن معه قائلًا: «ما أحسن هذا القول وأصدقه. كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدين؟».

وأجابوه بتهليلة رجّت الأرض رجًّا، ثم قال له مصعب: «يطهر ثوبه وبدنه، ويشهد أنّ لا إله إلا الله».

فغاب أُسيد عنهم غير قليل، ثم عاد يقطر الماء الطهور من شعر رأسه، ووقف يعلن أنّ لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وسرى الخبر كالضوء. وجاء سعد بن معاذ فسمع القول السديد، وأصغى لحديث مصعب واقتنع، وأسلم، ثم تلاه سعد بن عبادة، وتمّت بإسلامهم النعمة، وأقبل أهل المدينة بعضهم على بعض يتساءلون: إذا كان أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة قد أسلموا، ففيمَ

تخلّفنا؟ هيّا إلى مصعب، فلنؤمن معــه، فإنهم يتحدثون أن الحق يخرج من بين ثناياه!»[1].

إنه القول الحســن، القول الســديد، القول الطيب، ســبق الرســول ﷺ إلى المدينــة، وحين وصــل -بأبي هو وأمِّي- وســمعوا منه ﷺ ازدادوا يقينًا وثباتًا.

إنها القلوب الطاهرة، والنفوس الزكية، ما أن سمعت إلا واستجابت. رزقنا الله حسن الاستماع، وحسن القول، وحسن العمل.

(١) رجال حول الرسول (ص٢٤-٢٥).

الكمال

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

يومٌ من أيام الإسلام المجيدة، يومٌ فريد في التاريخ يجب على كل مسلم معرفته والفخر ببشائره! يومٌ يرى فيه الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الإسلامَ وقد عزَّ، وينظر للمسلمين من حوله وقد سادوا وصارت لهم الزعامة والقيادة، وأصبح القول قولَهم والقرار قرارَهم. يومٌ كلُّه ذكرٌ وتهليل، وتكبيرٌ وتلبية. يومٌ في مكانٍ وزمانٍ تهتزُّ فيه الأرض توحيدًا لله، لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك. يومٌ اختفى فيه الشرك، وذلَّ فيه الكفر. يومٌ صار فيه الوثن ماضيًا، وبات الطاغوت فيه حسيرًا.

في ذلك اليوم السعيد، وقد امتلأت فيه عرفات تلبيةً وذكرًا، تكبيرًا وتمجيدًا، نزل جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآيات، وبلَّغَ بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسعدَ بها خير البشرية، وزفّ الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الخبر فورًا لأصحابه الأطهار! وكأني بهم ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد علاهم السرور، وأشرقت وُجوههم بشرًا وضياء.

في ذلك اليوم المبارك يقرِّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأس الكفار من غلبة دين الله وذلَّتهم، فلا خشية بعد ذلك اليوم منهم، وإنما الخشية من الله وحده.

وجاء التعبير القرآني بصيغة الحاضر والمستقبل؛ فالكفار يئسوا من وأدِ دين الله في الماضي، وفي الحاضر والمستقبل؛ فالغلبة والعزّة لدين الله، والخوف من الله وحده، فها هي عرفات تعجّ بالموحّدين والملبّين، ومنذ ذلك اليوم وديـن الله يتمدّد في أرض الله الواسعة، وصارت له المهابة والغلبة، وها هو في هذا الزمان، ومع ضعف المسلمين، يزداد انتشارًا وتوسعًا.

في ذلك اليوم البهي جاءت البشارات من السماء، وأكرِم بها من بشارة! جاء خيرٌ، أَكْرَمَ اللهُ بِهِ أُمَّةَ الإسلام، جاءت التزكية من الله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. إنها بشارة الكمال، والتمام، والرضا.

ويبقى هذا القرار الربّاني ما بقيت الأرض، فالإسلام هو دين الله الخالد ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، ولا قبول لسواه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

إنه دين الله الكامل، لا قبول لمشكّك، ولا سماع لكذّاب، إنه دين الله الحق!

وإنها نعمة الله التامّة، لانقصٌ فيها ولا خلل، هي كمال الدين وتمامه!

وهو الإسلام رضيه الله دينًا خالدًا لخلقه، فهنيئًا لمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠]. شملنا الله برضاه، وجعلنا من التابعين بإحسان.

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لآية هذا المجلس: «اليوم المشار إليه يوم عرفة؛ إذ أتمَّ الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالًا بليغًا، بعد ما كانوا حريصين على ردّ المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك. فلما رأوا عزّ الإسلام وانتصاره وظهوره، يئسوا كلَّ اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون؛ ولهذا في هذه السنة التي حجّ فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع- لم يحجّ فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٣]؛ أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، وردّ كيدهم في نحورهم.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع؛ ولهذا كان الكتاب والسنة كافيَيْن كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه. فكل متكلِّف يزعم أنه لا بُدَّ للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.

﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾؛ أي: اخترته واصطفيته لكم دينًا، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكرًا لربكم، واحمدوا الذي مَنَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها»[1].

ومما قاله الشيخ ابن عثيمين: «﴿ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: الذي نزلت فيه هذه

(١) تفسير السعدي (ص١٠٠).

الآية: ﴿يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾، يعني: يئسوا من أن يُغيّروه أو يبدلّوه؛ لأن الدين الإسلامي -والحمد لله- انتشر وبان وظهر.

﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾؛ لأنه لا داعي إلى الخشية الآن ما دام دينكم قد ظهر، ويئس هؤلاء الكفار من أن يقضوا عليه، فلا تخشوهم واخشون. والخشية هي الخوف الناتج عن علم، دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال أهل العلم: والفرق بين الخشية والخوف أن الخشية تكون عن علم، والخوف لا يلزم أن يكون عن علم.

ثانيًا: أن الخشية تكون من عِظم المخشي، وإن كان الخاشي قويًّا، لكن المخشي يكون أقوى منه، والخوف لا يدل على عظم المخوف، وإنما يدل على ضعف الخائف، وهذا فرقٌ واضح، الخوف يدل على ضعف الخائف أمام من يخاف منه وإن لم يكن قويًّا، فالطفل الذي له أربع سنين يخاف من الطفل الذي له ثمان سنوات مع أن الثاني ضعيف، لكن الذي يخشى من ملك أو صاحب سلطان قوي هذا يقال: إنه خاشٍ.

﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: جعلته كاملًا، وليس المعنى أنني أتممت شرائعه؛ لأنه نزل بعد هذه الآية شيء من الشرائع.

وقوله: ﴿أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؛ أي: ما تدينون الله به من العبادة.

﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ التي هي إكمال الدين، وهي أكبر النعم، ومعنى إتمامها أنه ليس فيها نقص.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ رضيت لكم الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ دينًا تدينون الله به، فلا تتخذوا دينًا سواه»[1].

وأورد الشيخ ابن عثيمين عددًا من الفوائد، فقال: «من فوائد الآية الكريمة:

* أن المشركين أيسوا من تغيير الناس عن دينهم؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ﴾، ونظير هذا قول النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ».

* ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم خشية الكفار التي يترتب عليها المداهنة في دين الله؛ لقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

* ومن فوائدها: بيان نعمة الله على هذه الأمة، وله الحمد والمنَّة بإكمال الدين؛ لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

* ومن فوائد الآية: شرف ذلك اليوم الذي أُكمل فيه الدين؛ لأنه لولا ذلك لم يكن لقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فائدة، لكن فيه الإشارة إلى شرف ذلك اليوم، ولكن هل نُشرّف ذلك اليوم بما لم يُشرّفه الله؟ لا، ولكن نقتصر على ما جاء من شرفه؛ ولهذا لما «قال أحد اليهود لعمر بن الخطاب: إن الله أنزل آية لو نزلت علينا معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، وتلا الآية»: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، «فقال عمر: إني أعلم متى نزلت على رسول الله ﷺ. وذكر أنها نزلت يوم

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة المائدة.

الجمعة في يوم عرفة». ولكن الشأن كل الشأن ألا نعظّم ذلك اليوم بأكثر مما جاء، وإنما قلت ذلك؛ درءًا لقول من قال: إنه ينبغي أن نشرِّف اليوم الذي ولد فيه الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سُئل عن صوم يوم الإثنين قال: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَبُعِثْتُ فِيهِ**». أَوْ: «**أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ**».

قال: فكونه نصَّ على أنه ولد فيه يدل على أن له شرفًا، فيقال: الشرف يُتلقّى من الشرع، والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لم يذكر شرف اليوم الذي ولد فيه بوقته من الشهر، بل ذكر شرفه بوقته من الأسبوع، وهناك فرق بين هذا وهذا، ثانيًا: أن الشرف الذي يُعطى لهذا اليوم الذي أُنزل فيه القرآن على الرسول ووُلد فيه هو الصوم فقط، هكذا جاءت السنة، وما سوى ذلك فلا، فلو أن أحدًا أراد أن يُكثر الصلاة في يوم الإثنين بناءً على أنه اليوم الذي وُلد فيه الرسول وبُعث فيه، لقلنا: هذا خطأ.

* ومن فوائد هذه الآية: أنَّ تمسُّكنا بالدين يجب أن نكون فخورين به؛ لقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فأضافه الله إلينا لنفخر به، ونعتزّ به، وندافع عنه، وهل الأمر كذلك بالنسبة لحال الناس اليوم؟ بالنسبة لحال الناس اليوم كثير من المسلمين -مع الأسف- بالعكس، كثير من المسلمين يستحي أن يقول إنه مسلم، وهذا ذلٌّ عظيم.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله عَزَّوَجَلَّ تفضّل على عباده بإتمام النعمة؛ لقوله: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.

* ويتفرع على ذلك: أنه عَزَّوَجَلَّ يُثني على نفسه بما أنعم به من أجل أن يتحبّب لعباده بنعمه، ولهذا جاء في الحديث: «أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنَ النِّعَمِ»، وهذا هو الموافق للفطرة؛ أن أي إنسان يُحسن إليك فإنك سوف تحبّه، هذا وهو مخلوق مثلك، فكيف بالخالق عَزَّوَجَلَّ؟!

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما خالف ما جاءت به الشريعة فهو غير مَرْضِيٍّ عند الله ولا مقبول؛ لقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، وهذا يشمل الدين كله، والفروع التي تكون بزعم الفاعل من الدين، فمثلًا هل رضي الله لعباده الكفر؟ لا، هل رضي لعباده أن يبتدعوا في دينه ما ليس منه؟ لا، فهذه كلمة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ يعني بأصوله وفروعه وجملته وجزئه»[1].

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة المائدة.

اللَّغْو

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

ما أكثر اللَّغو في هذه الأزمنة؛ كم تَقطَّعَت من علاقات، وكم ازدادت من خصومات بسبب اللّغو، وكم كادَ قومٌ لآخرين، وتفرّقت جموعُ محبّين بسبب اللّغو، لو أعرضنا عن اللّغو لعِشنا بسلام، ولو أعرضنا عن اللّغو لرَقَّتِ القلوب، وصَفَتِ النفوس. إن الإعراض عن اللّغو صفةُ النفوس المؤمنة القابضة على دينها، المُعتزّةِ بقِيَمها. وإنّ تجاهل اللّغو قيمةٌ أعلى القرآن شأنها، وحثَّ عليها الرحمن. إنّ اللّغو هو فارغُ الحديث الذي لا طائل منه، وهو الهَذْرُ المُهدِر للوقت، وهو الداءُ العُضالُ المُفسِدُ الحِسَّ واللسان، وهو الزاد السامج، والطعام المسموم. إن القلوب المُؤمنة الصافية لا تسمع لذاك الهذر، ولا تأبه بذاك الداء؛ ساميةٌ بأخلاقها، طاهرةٌ بأنوارها، فأصحابُها؛ كبارٌ في رَدّهِم، وعِظامٌ في جوابهم.

إن هذه الآية وصيةٌ خالدةٌ، للنفوس المطمئنة، الراضية بدينها، ولوحةٌ عطر للقلوب المترفِّعة عن هذرِ القول، ولغوِ الكلام، هي

توجيهٌ بالترفّع عن الجُهّال، والسمو عن الحمقى؛ فلا خصومةَ ولا جدال، وإنما خيرٌ وحُبٌّ، حتى لتلك النفوس المريضة بداءِ اللّغو. وفي آيةٍ أخرى تأتي صفةُ مدحٍ وثناءٍ للذين يُعرضون عن اللّغو، ولا يأبهون به ولا يستوقفهم؛ لأنه من سقط الحديث ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ [الفرقان:٧٢].

جاء في لسان العرب: «اللَّغْو واللَّغا: السَّقَط وما لا يُعتدُّ به من كلامٍ وغيره، ولا يُحصَل منه على فائدة ولا على نفع»[١].

يقول ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: «وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ﴾؛ أي: لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم، بل كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾، ﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: إذا سفّه عليهم سفيه، وكلّمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه، أعرضوا عنه، ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح، ولا يصدر عنهم إلا كلامٌ طيّب. ولهذا قال عنهم: إنهم قالوا: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ أي: لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبّها»[٢].

قال محمد بن إسحاق في السيرة: «قَدِمَ على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلًا أو قريبٌ من ذلك، من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد،

(١) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (١٥/ ٢٥٠)، مادة: لغا.
(٢) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، ت: سامي بن محمد سلامة (٦/ ٢٤٥).

فجلسوا إليه وكلّموه وساءلوه -ورجالٌ من قريش في أنديتهم حول الكعبة- فلما فرغوا من مُساءلة رسول الله عمّا أرادوا، دعاهم إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يُوصَف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفرٍ من قريش، فقالوا لهم: خَيّبكُم الله من رَكْب. بَعثكُم مَن وَراءكُم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتُم دينكُم وصدّقتمُوه فيما قال؛ ما نعلم ركبًا أحمق منكم. أو كما قالوا لهم. فقالوا لهم: سلامٌ عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيرًا. قال: ويُقال: إن النفر النصارى من أهل نجران، فالله أعلم أي ذلك كان. قال: ويقال -والله أعلم- إنّ فيهم نزلت هذه الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القصص:٥٢] إلى قوله: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]»[1].

وقال ابن قيِّم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الآية، وإن كان سبب نزولها خاصًّا، فمعناها عام متناوَل لكلّ من سمع لغوًا فأعرض عنه، وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ [القصص:٥٥][2].

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٤٥)، والسيرة النبوية لابن هشام، (١/ ٣٩٢).
(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية، ت: حامد الفقي، (١/ ٢٤٢).

وأخرج النسائي من حديث عبدالله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثر الذِّكر، وَيقِلُّ اللغوَ، ويُطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة»[1].

إن المجالس والمُجالسة تعمر وتزدان بذكر الله، وبكل ما فيه خير للجميع، أمَّا إذا ورد فيها اللغو؛ فالخير المبادرة لوأده مُباشرة، وإن تعذّر إيقاف اللغو، وغَلَبَ اللُّغاةُ، فَتَرْكُ الجَلْسَةِ والإعراضُ عنها أفضلُ وأوجبُ. في بداية دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة حقد اليهود، وناصبوا الدعوة العداء، وكادوا لها كيدًا كبيرًا. ومن تلك الصور الكيدية أن مرَّ اليهودي شاس بن قيس ذات يوم بمجلسٍ اجتمع فيه نفرٌ من الأوس والخزرج، وكان شاسُ رجلًا حقودًا قدْ بلغ من العمر عِتِيّا؛ تيبَّسَ جسمُه، وتزايدَ شرُّهُ، فساءته تلك الجلسة، وذاك الصفاء والحبّ الذي صار بين الأوس والخزرج بعد الحروب الطويلة والعداوة العظيمة، فقال: «قد اجتمع ملأُ بني قيْلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَؤهُم بها من قرار، فَأَمَرَ فتى شابًّا من يهودٍ كان معه، فقال: اعمدْ إليهم، فاجلسْ معهم، ثم اذكرْ يوم بُعَاث وما كان من قبله، وأنشِدْهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، فَفَعَلَ، فتكلّمَ القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثبَ رجلان من الحيّيْن على الرُّكَب،

(١) أخرجه النسائي (٣/ ١٠٨ رقم ١٤١٤)، وصححه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٣٣ رقم ٦٤٢٣)، والحاكم (٢/ ٦١٤ رقم٤٢٢٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصحّحه الألباني في صحيح سنن النسائي: (رقم١٣٤١).

فتقاولا، ثم قال أحدُهما لصاحبه: إنْ شئتُم رَدَدْناها الآن جذعَة -يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم- وغضِبَ الفريقانِ جميعًا، وقالوا: قد قُلنا، موعدُكم الظاهرة -والظاهرة: الحَرَّة- السّلاحَ، السّلاحَ، فخرجوا إليها، وكادت تنشب الحرب.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وأَلَّفَ بين قلوبكم؟**».

فعرف القوم أنها نزغةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مُطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس ابن قيس»[1].

هذا نموذجٌ من نماذج الكيد اليهودي، وتجسيدٌ لما يُحدثُه اللّغو من عداوةٍ وقطيعة. عَمَّرَ اللهُ مجالسَنا بالحبِّ والودِّ والخير.

(١) السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ٥٥٥-٥٥٦).

محبَّةُ المال

قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:١٩، ٢٠].

وقال في آية أخرى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧].

محبّةُ المال غريزةٌ بشرية، وفي هذه الآيات يبيّن الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حُبّنا للدنيا، فكأننا نأكل المال من حبّه كَمَا الزاد، ونُحبّه جمًّا، والجَمُّ: هو الكثير، وهو ما اجتمع من ماء البئر.

إن القرآن يُخبرنا -وخبره يقين- أن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعل في تكويننا وعواطفنا وغرائزنا حبّ المال، وقد ورد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«لو أنَّ لابنِ آدَمَ واديًا مِن مالٍ لابتغى إليه ثانيًا، ولو كان له ثانيًا لابتغى إليه ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدَمَ إلّا ترابٌ، ويتوبُ اللهُ على مَن تاب»**[1].

قال الشيخ ابن عثيمين: ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ ما يُورِثه اللهُ العبدَ من المال، سواء ورِثه عن ميِّتٍ، أو باع واشترى وكسب، أو خرج إلى البرِّ وأتى بما يأتي

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٧١١ رقم٣٨٩٨) وقال: حديث حسن، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (رقم٣٨٩٨)، وهو من رواية أُبيِّ بن كعب.

به من عُشــبٍ وحطبٍ وغير ذلــك، المهم أن التراث ما يَرِثه الإنســانُ، أو ما يورثه اللهُ الإنسانَ من المال، فإن بني آدم يأكلونه أكلًا لَمًّا، وأمَّا المال فقال: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾؛ أي: عظيمًا، وهذا هو طبيعة الإنسان. لكن الإيمان له مؤثِّراته، قد يكون الإنســان بإيمانه لا يهتــمُّ بالمال، وإن جاء شَكَرَ اللهَ عليه، وأدَّى ما يجب، وإن ذهبَ لا يهتمُّ به، لكن طبيعة الإنسان من حيث هــو كما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ في هاتين الآيتين. نســأل الله تعالى أن يوفِّقنا وإياكم لما فيه الخير والصلاح، وأن يقينا شــرَّ أنفسنا، إنه على كل شيء قدير»[1].

وأقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أوجد غريزة حب المال لعمارة الأرض، فضلًا عن كونه ابتلاءً وامتحانًا، وحثّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على البذل والصدقة. فالمـُتتبع لســور القرآن الكريم، يجد معظمها تتناول المال والدعوة للإنفاق، وقد بــدأ الخطاب القرآني بالأقارب، وجعل لهم حقًّا في مالِك ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:٢٦].

ذكر الذهبي في سير أعلام النبلاء عن الحسن البصري أنه كان يقول: «مــا أعَزَّ أحدٌ الدرهَمَ إلّا أذلّه الله. وقال: بئس الرفيقان؛ الدينار، والدرهم لا ينفعانك حتى يفارقاك»[2].

وورد فيه أيضًا «عن عبدالرحمن بن زيد بن أســلم قلت لأبي حازم: إني لأجد شيئًا يُحزنني، قال: وما هو يابن أخي؟ قُلتُ: حُبّي للدنيا. قال: اعلم أن هذا لشيءٌ ما أعاتب نفسي على بعضِ شيء حبّبهُ الله إليَّ؛ لأن اللهَ

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الفجر.
(٢) سير أعلام النبلاء: الذهبي (١٢/ ١٨٣).

حبّب هذه الدنيا إلينا. لتكُنْ مُعاتبتنا أنفسَنا في غير هذا. ألا يدعونا حُبَّها إلى أن نأخذ شيئًا من شيء يكْرَهَهُ الله، ولا نمنع شيئًا من شيء أحبَّهُ الله، فإذا نحن فعلنا ذلك لم يضرنا حُبُّنا إياها»[1].

ولا غرو على حُبّ الدنيا، فأولئك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أقبلوا على غنائم بدر وكادوا يختلفون ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم، وجاء القرآن يقرّر توزيع تلك الغنائم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١]. هي الدنيا آسرة فاتنة.

قال الشيخ ابن سعدي: «الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمّة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصّة بدر أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها، فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ﴾ كيف تُقسَّم، وعلى من تُقسَّم؟ قُلْ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلّموا الأمر لهما»[2].

إن المال فتنة الدنيا وزينتها، تضعف عنده ومعه النفوس، فأولئكم الصحابة تنازعوا على الغنائم ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معهم، والموتى أمامهم، إنها سجيّة جبلَ الله عليها البشر، هي ابتلاءٌ وامتحان ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

(١) سير أعلام النبلاء: الذهبي (٦/ ٢٥٥).
(٢) تفسير السعدي (ص٣١٥).

ولتقويم النفوس البشرية المؤمنة، وليعيش المجتمع المسلم في طُمأنينة، ويسمو عن حياة البهائم، وشريعة الغاب؛ تتابعت آيات تهذيب النفوس، وحثّها على البذل والسخاء دون مَنٍّ ولا أذى، وجاءت آيات البشائر والترغيب، الامتحان والتمحيص، ومقاومة غريزة الإمساك. فالشيطان يدفع للشحّ والبخل، والقرآن يندب للنفقة والجود ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٦٨].

هذا، ولقد خلّد التاريخ مواقفَ لرجالٍ غلبوا شُحَّ النفس، فبذلوا المال في سبيل الله، وأجهدوا أنفسهم في تحرّي المستحقّين لصدقاتهم، وأوقفوا المال الكثير لتكون صدقاتٍ جاريةٍ لهم بعد الموت. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، أو علمٌ يُنتفَع به، أو ولدٌ صالح يدعو له**»[1].

قرأت منذ أيام، قصّة حدثت في القرن الثالث الهجري، لخراساني قَدِمَ بمالٍ لأبيه لينفقه على أفقر الناس في مكة المكرمة وفقدَه، وعرض ابن الجوزي تفاصيل القصة في كتابه (صفة الصُّفوة). إنها قصة طواها الزمن وغابت، ولكن أبقى الله ذكرها، وظلّت الأجيال ترويها، ويترحّمون على أهلها ورُواتها. شملنا الله برحمته ووالدينا. بل أذكر أنني بُعيَد صلاة الفجر قبل أيام جلست أقصُّ أحداثها على زوجتي، ومن ثمَّ رفعنا أيدينا وترحّمنا على أولئك المنفقين، الذي طوّعوا غريزة حبّ المال، فجعلوها مُهرةً ركبوها وقادوا زمامها للخير، وقلنا: إنه من عمل الصالحات

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٢٥٥ رقم١٦٣١).

الخالد، ونحسب أن ذكْرَنا لهم بعد تلك السنين الطوال هو من القبول لتلك النفقة، وأن تسخيرَ اللهِ خلقَهُ للدعاء لهم؛ لأن الله عدَّهم من عباده المشمولين بكرمه وجزيل إحسانه.

قال الطبري المؤرخ وشيخ المفسرين: «كُنت بمكّة سنة أربعين ومئتين، فرأيت خُراسانيًّا ينادي: معاشر الحاج من وجد هِمْيَانا[1] فيه ألف دينار، فردَّه عليَّ أضعفَ الله له الثواب، قال: فقام إليه شيخٌ من أهل مكة كبير من موالي جعفر بن محمد، فقال له: يا خراساني، بلدنا فقيرٌ أهلُه، شديدٌ حالُه، أيامُه معدودة، ومواسمُه منتظرَة، لعلّه يقع بيد رجلٍ مؤمن يرغب فيما تبذله له حلالًا يأخذه ويردّه عليك. قال الخراساني: فكم يريد؟ قال: العُشر: مئة دينار. قال: لا أفعل، ولكنا نحيله على الله عَزَّوَجَلَّ. قال: وافترقا.

قال ابن جرير: فوقع لي أن الشيخ صاحب القريحة والواجد للهمْيَان، فاتّبعته فكان كما ظننتُ، فنزلَ إلى دار مُسْتَفِلةٍ، خَلِقَة البابِ والمدخلِ، فسمعتُه يقول: يا لُبابة. قالت له: لبيك أبا غياث. قال: وجدتُ صاحب الهِمْيَان ينادي عليه مطلقًا، فقلت له: قيّده بأن تجعل لواجده شيئًا. فقال: كم؟ فقلتُ: عُشرُه. فقال: لا، ولكنا نحيله على الله عَزَّوَجَلَّ، فأيُّ شيءٍ نعمل ولا بدّ لي من ردِّه؟ فقالت له: نقاسي الفقر معك منذ خمسين سنة، ولك أربع بناتٍ وأُختان وأنا وأمي وأنت تاسع القوم، أشْبِعنا واكسِنا، ولعل الله عَزَّوَجَلَّ يُغنيك فتُعطيه أو يُكافئه عنك ويقضيه. فقال لها: لست أفعل، ولا أحرق حُشاشتي بعد ستٍّ وثمانين سنة.

(١) الهِمْيَان: نطاق يوضع فيه النفقة، ويُشدُّ من الوسط.

قال: ثم سكت القوم وانصرفت، فلما أن كان من الغد على ساعات من النهار، سمعت الخراساني يقول: يا معاشر الحاج وفدَ الله من الحاضر والبادي، من وجد هِمْيَانا فيه ألف دينار فردّه أضعف الله له الثواب. قال: فقام إليه الشيخ، فقال: يا خراساني، قد قلتُ لك بالأمس ونصحتك، وبلدنا والله فقيرٌ قليلُ الزرع والضّرع، وقد قلتُ لك أن تدفع إلى واجده مئة دينار، فلعله أن يقع بيد رجلٍ مؤمنٍ يخاف الله عَزَّوَجَلَّ فامْتَنَعْتَ، فَقُلْ لَهُ: عشرة دنانيرٍ منها فيرُدّه عليك، ويكونُ له في العشرة الدنانير سترٌ وصيانة. قال: فقال له الخراساني: لا نفعل، ولكن نحيله على الله عَزَّوَجَلَّ. قال: ثم افترقا.

قال الطبري: فما اتَّبَعتُ الشيخَ ولا الخُراساني، وجلستُ أكتب كتاب النسب للزبير بن بكّار. فلما كان من الغد سمعت الخراساني ينادي ذلك النداء بعينه، فقام إليه الشيخ، فقال له: يا خراساني قلت لك أول أمس العُشر منه، وقلتُ لك أمس عُشر العُشر، أعطِ دينارًا، عُشْرَ عُشر العُشر يشتري بنصف دينار قُريبةً يستفي عليها للمقيمين بمكة بالأجرة، وبنصف دينار شاةً يحلبها، ويجعل ذلك لعياله غذاء. قال: لا نفعل، ولكن نحيله على الله عَزَّوَجَلَّ.

قال: فجذبه الشيخ، وقال له: تعال، خُذْ هِمْيَانك ودعني أنام الليل، وأرِحنا من مُحاسبتك. فقال له: امشِ بين يديَّ، فمشى الشيخُ وتبعهُ الخُراساني وتبعتُهما، فدخل الشيخ فما لبث أن خرج وقال: ادخل يا خراساني فدخلَ ودخلتُ. فنبشَ تحت درجة له مُزبلة فأخرج منها الهِمْيَان أسود من خرقٍ بخارية غلاظ، فقال: هذا هِمْيَانك. فنظر إليه

وقال: هذا هِمْيَاني. قال: ثم حلّ رأسه من شدٍّ وثيق، ثم صبّ المال في حجر نفسه وقلّبه مرارًا، وقال: هذه دنانيرنا. وأمسك فَمَ الهِمْيَان بيده الشمال، وردَّ المال بيده اليمنى فيه، ثم شدّه شدًّا سهلًا ووضعه على كتفه، ثم أراد الخروج، فلما بلغ باب الدار رجع، فقال للشيخ: يا شيخ مات أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وترك من هذه ثلاثة آلاف دينار، فقال لي: أَخرِج ثُلثها ففرّقه على أحقّ الناس عندك، وبِع رحلي واجعله نفقةً لحجّتك، ففعلتُ ذلك، وأخرجت ثلثها ألف دينار، وشددتها في هذا الهِمْيَان، وما رأيت منذ خرجتُ من خراسان إلى ها هنا رجلًا أحقّ به منك، خذه بارك الله لك فيه، قال: ثم ولّى وتركه. قال: فولّيت خلف الخراساني، فعدا أبو غياث فلحقني وردّني، وكان شيخًا مشدود الوسط بشريط معصب الحاجبين، ذكر أن له ستًّا وثمانين سنة، فقال لي: اجلس فقد رأيتك تتبعني في أول يوم، وعرفت خبرنا بالأمس واليوم، سمعتُ أحمد بن يونس اليربوعي يقول: سمعتُ مالكًا يقول: سمعتُ نافعًا يقول: عن عبدالله بن عمر أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعمر وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «إذا أتاكما الله بهدية بلا مسألة ولا استشراف نفسٍ فاقبلاها ولا تردّاها، فتُردّ لها على الله عَزَّوَجَلَّ». وهذه هديةٌ من الله، والهدية لمن حضر.

ثم قال: يا لُبابة وفلانة وفلانة، فصاح ببناته وأخواته وزوجته وأمها، وقعد وأقعدني، فصرنا عشرة، فحلّ الهِمْيَان، وقال: ابسطوا حجوركم، فبسطتُ حجري، وما كان لهن قميصٌ له حجر يبسطونه، فمدوا أيديهم، وأقبل يعد دينارًا دينارًا حتى إذا بلغ العاشر إليَّ قال: ولك دينار، حتى فرغ

الهِمْيَان، وكانت ألفًا فيها ألف، فأصابني مئة دينار، فداخلني من سرور غناهم أشدّ مما داخلني من سرور صيانتي بالمئة دينار.

فلما أردتُ الخروج قال لي: يا فتى، إنك لمباركٌ وما رأيت هذا المال قطّ ولا أمَّلته، وإني لأنصحك أنه حلال فاحتفظ به، واعلم أني كنت أقوم فأصلي الغداة في هذا القميص الخَلق ثم أنزعه فيصلّين فيه واحدةً واحدة، ثم اكتسب إلى ما بين الظهر والعصر، ثم أعود في آخر النهار بما فتح الله عَزَّوَجَلَّ لي من أقطٍ وتمرٍ وكُسيرات ومن بُقولٍ نُبِذَت، ثم أنزعه فيتداولونه، فيصلّين فيه المغرب وعشاء الآخرة، فنفعهنَّ الله بما أخذن، ونفعني وإياك بما أخذنا، ورحم صاحب المال في قبره، وأضعف ثواب الحامل للمال، وشكر له.

قال ابن جرير: فودّعته وكتبت بها العلم سنتين أتقوَّت بها، وأشتري منها الورق، وأسافر وأعطي الأجرة. فلما كان بعد سنة ستٍّ وخمسين، سألتُ عن الشيخ بمكة فقيل: إنه مات بعد ذلك بشهور، ووجدت بناته ملوكًا تحت ملوك، وماتت الأختان وأمهن، وكنتُ أنزل على أزواجهن وأولادهن فأحدثهم بذلك، فيأنسون بي ويكرمونني، ولقد حدثني محمد بن حيان البجلي في سنة تسعين ومئتين أنه ما بقي منهم أحد. فبارك الله لهم فيما صاروا إليه»[1]

وبعد، فهذه القصة عَطِرَةُ الرائحة، خَلَّدت ذاك العمل الصالح، وأبقت ذكر أولئك القوم الذين أحسبُهم -والله حسيبهم- من المقبولة نفقتهم. غفر الله لنا ولهم، وغَفَرَ لكل قارئٍ لهذا التدبُّر، آمين.

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي، ت: محمود فاخوري، ومحمد قلعة جي، (٢/ ٢٦٠-٢٦٤).

الملائكة والعرش

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

آيتان متقاربتان أشارتا إلى الملائكة والعرش؛ فآية هذه الجلسة هي آخر آية في سورة الزمر، وأول الصفحة [٤٦٧] في المصحف الشريف. وفي آخر هذه الصفحة من أول سورة غافر أتى ذكر الملائكة والعرش في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧]. فبين السورتين والآيتين اتساقٌ وانسجام.

مشهدٌ عظيم، عرش الله العظيم الذي لا تحيط به عقولنا، ولا تدركه أبصارنا، يُخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الملائكة حوله، ومَنْ حوله، وحَمَلتُه، جميعُهم يُسبِّحون بحمد الله، وسوف نراهم. فالخطاب عام، ومما قاله الشيخ ابن عثيمين في: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الزمر:٧٥]: «﴿وَتَرَى﴾ أيها المخاطب، ويحتمل

أن المراد به رسول الله ﷺ، ولكن القول الأول أولى؛ لأن القول الأول يشمل القول الثاني، ولا عكس، فإنك إذا قلت: وترى يا محمد؛ حجبت هذا الخطاب عن بقية الأمة، وإذا قلت: وترى أيها المخاطَب؛ صار عامًّا للنبي ﷺ ولغيره من الأمة، والقاعدة أنه إذا دار اللفظ بين معنى عام ومعنى خاص، فإنه يحمل على المعنى العام؛ لأنك إذا حملته على المعنى العام دخل فيه الخاص ولا عكس»[1].

إذن، كما ورد عن ابن عثيمين، فالخطاب عام، فنحن أُمّةُ محمد ﷺ سوف نرى الملائكة تسبّح، سوف نراهم رؤية بصرية، ونعرف صورهم وأشكالهم، فكيف نحن في ذلك اليوم العظيم؟ كيف نحن في يوم انتهى فيه الفصل والحساب بين الخلق كلهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر:٦٩]، فهلّا نتدارك أنفسنا ونحن في مرحلة الاختيار والإرادة، فنُربّي ألسنتنا على التسبيح والتحميد، إننا في ذاك المشهد نحتاج لكل حسنة -سبحان الله وبحمده، سبحان الله وبحمده- ويُبشّرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آية غافر أن الملائكة حملة العرش، وهم يسبّحون بحمد الله، يستغفرون لعباده المؤمنين -جعلنا الله من المشمولين باستغفار ودعاء حملة العرش- إن هاتين الآيتين تُخبرنا عن ذاك المشهد الرهيب، وإخبار الله حقٌّ وصدقٌ. فكيف حالنا ذاك اليوم، يوم القضاء الحق. إن ما نعمله في دنيانا سوف نجده هناك، وهناك قد انتهى كل شيء ويبقى التسبيح، وقد بلغنا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مضمونهُ، وعلّمنا رسول الله ﷺ تفاصيله. إن هذه الآيات الشريفات نعمةٌ من الحقّ سبحانه، تُصوّر لنا ذاك اليوم العظيم والمشهد الكبير. فلنبادر، ولنجعل التسبيح

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الزمر.

والتحميد خُلقنا وسُلوكنا، فنحمده ونسبّحه كُلَّ حين. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[1]. قولوا وردّدوا ولا تملّوا قولوا: سبحان الله وبحمده. ردِّدوها بألسنتكم، ردِّدوها بقلوبكم، ردِّدوها يقينًا، ردِّدوها اعتقادًا، ردِّدوها: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده.

ومما قاله الشيخ ابن عثيمين: «﴿**الْعَرْشِ**﴾ هو عرش الله عَزَّوَجَلَّ الذي استوى عليه، وهو أعظم المخلوقات وأعلاها وأوسعها، فإن الكرسي وسع السماوات والأرض؛ يعني أحاط بها وشملها، والعرش أعظم من الكرسي، وقد جاء في الحديث: «أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي الْكُرْسِيِّ كَحَلْقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ» حلقةٌ كحلقة المغفر، وهي حلقةٌ ضيّقة أُلْقِيت في فلاة من الأرض. «وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى هَذِهِ الْحَلْقَةِ». إذن فيكون هذا العرش عظيمًا لا يقدر قدره إلا الله عَزَّوَجَلَّ»[2].

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥] يسبحون تسبيحًا مصحوبًا بالحمد؛ أي يقولون: «سبحان الله وبحمده»، والجَمْعُ بين التسبيح والحمدِ هو كمالُ المُسبَّح والمحمود؛ لأن بالتسبيح زوال النقائص والعيوب، وبالحمد إثبات الكمال، فيكون الجمع بين التسبيح والحمد مفيدًا لمعنى أكثر مما لو انفرد التسبيح، أو انفرد الحمد.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بين جميع الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أي العدل ﴿قُضِيَ﴾؛ أي:

---

(١) أخرجه البخاري (١٦/ ٥٥٩ رقم٦٦٨٢).

(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الزمر. والحديث أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٩٩ رقم٨٦١) من حديث أبي ذر.

حُكِم؛ يعني القضاء معناه الحكم. وقوله: ﴿بَيْنَهُم﴾؛ أي بين جميع الخلق ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالعدل، فيدخل المؤمنون الجنة والكافرون النار.

والفرق بين الحمد والمدح مع تساويهما في الحروف؛ أن المدح وصف بالكمال، لكن لا يستلزم المحبة، فالله تعالى يُحمد ويُمدح، لكن الحمد أخصّ من المدح؛ لأن المدح هو مطلق الثناء، وأما الحمد فهو ثناء مقرون بمحبّة وتعظيم.

وقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: خالق العالمين، ومالكهم، ومدبّرهم. والْعَالَمُ كُلُّ مَنْ سِوىَ الله»[1].

ومما قاله الشيخ ابن سعدي عند قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: «لم يذكر القائل من هو؟ ليَدُل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حَمْدَ فضلٍ وإحسان، وحَمْدَ عدلٍ وحِكمة»[2].

هذا، وأورد الشيخ ابن عثيمين في هذه الآية الكريمة عدّة فوائد:

* «أولًا: إثبات الملائكة؛ لقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].
* ومن فوائدها: إظهار عظمة الله في ذلك اليوم، حيث تحفّ جنوده بعرشه، وهذا من مظاهر العظمة وكمال السلطان أن يُرَى الجنود حافِّين بمالكهم وخالقهم وسيدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الزمر.
(٢) تفسير السعدي (ص٧٣١).

* ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العرش؛ لقوله: ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾.

* ومن فوائد الآية الكريمة: الثناء على الملائكة؛ وذلك بحُسن انتظامهم بحفّهم من حول العرش، وهذا حُسْن فِعْلي، وبكونهم يُسبِّحون الله بحمده، وهذا حُسْن قولي، فيجمعون بين تعظيم الله تعالى بالفعل وتعظيمه بالقول.

* ومن فوائد الآية الكريمة: اختيار الجمع بين التسبيح والحمد؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾؛ وذلك لأن بالتسبيح زوال النقص والعيب، وبالحمد إثبات الكمال.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ربٌّ لهؤلاء الملائكة مع عظمهم؛ لقوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، وأن ربوبيته للملائكة ربوبية خاصة بدليل الإضافة.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى يقضي بعد هذا كله بين الخلق بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: حُكِم بينهم.

والقضاء؛ قضاء الله تعالى نوعان: كوني، وشرعي؛ فالشرعي مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] يعني: وَصَّى ألا نعبد إلا الله، وقضاء كوني مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء:٤]، فإن هذا لا يمكن أن يكون قضاءً شرعيًّا؛ لأن الله لا يقضي بالفساد، ولكنه قضاء كوني.

وبهذا نعرف الفرق بين القضاء الكوني والشرعي؛ فالكوني فيما يُحَب وما لا يُحَب، والشرعي فيما يُحَب، والفرق الثاني

أن الكوني لا بُدَّ من وقوع المقْضِيِّ، والشـرعي لا يلزم منه وقوع المقضي؛ إذ قد يقع، وقد لا يقع.

* ومن فوائد الآية الكريمـة: أن القضاء في ذلك اليوم قضاء بالعدل ليس فيه جور بوجه من الوجوه؛ لقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

* ومـن فوائدها: حَمْد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك اليوم الذي يتم فيه الأمر ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمـر:٧٥] وإذا قارنت بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] تبيَّن لك أن الله تعالـى محمودٌ في أول الأمر وآخره؛ فـي أول الأمر في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وفـي آخره بعد أن قُضِيَ بين الخلائق بالحق قيل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

* ومـن فوائـد الآية الكريمـة: بيان اسـتحقاق الله تعالـى للحمد كله؛ لقولـه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. و(أل) ذكرنا أنها للاسـتغراق، واللام للاختصاص والاستحقاق.

* ومـن فوائدها: إثبـات عمـوم الربوبية؛ لقولـه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. والعالَمون كُلُّ مَنْ سِـوَى الله، قال بعض العلماء: إنما سموا بهذا؛ لأنهم عَلَم على خالقهم.

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ»[1].

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الزمر.

الملّة

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].

الهداية بيد الله، أنعم الله على سيّد البشرية بالهداية، وأمره عَزَّوَجَلَّ أن يتحدث بهداية الله له الصراط المستقيم الذي هو دين الله الحق؛ ملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. والملَّة كما قال عنها الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الملَّة بمعنى الدين؛ أي: دين إبراهيم، ودين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هو أنه كان حنيفًا مسلمًا لله، ولم يكن من المشركين، وإبراهيم هو الخليل عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، الذي هو أبو الأنبياء وأشرفهم بعد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعله الله إمامًا ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل:١٢٠]، وجعل ملّته هي الملّة الحنيفية القويمة»[(١)]. إذن، فالملّة هي الدين، والدين الحق هو الإسلام، وجميع الأنبياء كانت دعوتهم للإسلام، قال ابن كثير: «جميع الأنبياء كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له؛ كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الأنعام.

وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢].

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٠، ١٣٣].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس:٨٤-٨٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة:٤٤].

وقل عيسى عليه السلام لقومه: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا، إلى أن نسخت بشريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة؛ ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلَّات، ديننا واحد**». أولاد العَلَّات، هم الإخوة من أبٍ واحدٍ وأمّهات شتّى، فالدين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات. كما أن إخوة الأخياف، عكس هذا: بنو الأم الواحدة من آباء شتّى. والإخوة الأعيان، الأشقاء من أب واحد وأم واحدة. والله أعلم»[1].

إذَنْ، فالإسلام هو دين الأنبياء جميعهم؛ فنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: إنه من المسلمين، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوصي بنيه بالإسلام، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو ربَّه أن يموت مسلمًا، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ تؤكد الآيات أن دعوته هي الإسلام، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلن أتباعه الحواريون المؤمنون برسالته، ويشهدون أنهم مسلمون.

وآخر الكتب السماوية القرآن الكريم يُؤكدُ فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الدين المقبول هو الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]، لا أديان أُخرى غير الإسلام ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

وبعد هذا الوضوح في القرآن الكريم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، وهذه الآيات الكاشفة لمنهج

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٦).

الأنبياء جميعهم أن الدين هو الإسلام، وأنه ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد قامت الحجة على جميع البشر؛ فلا أديان أخرى غير الإسلام، ولا إكراه في الدين، منْ أبصر فليُبصر، ومنْ عمي فليعمى. نسأل الله نُور البصيرة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦].

عن ابن أبزى عن أبيه، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أصبح قال: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملّة أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين**»(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أنه قال:** قيل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيُّ الأديان أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»(٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قالت:** وضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذقني على منكبه، لأنظر إلى زفن الحبشة، حتى كنت التي مللت، فانصرفت عنه.

وقال عبدالرحمن عن أبيه قال: قال لي عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومئذ: «**لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة**»(٣).

هذا هو ديننا الحق نسأل الله الثبات ونُور البصيرة.

هذا، وبقراءة الآيات السابقة قراءة تدبّرية، نرى عظمة الإسلام،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٤/ ٨٠ رقم١٥٣٦٤)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٤ رقم٢٦٥٤٠)، والنسائي في سننه الكبرى (٦/ ٤ رقم٩٨٣١)، والبزار (٥/ ٢٩١ رقم١٩١١)، والدارمي (٣/ ١٧٦٠ رقم٢٧٣٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧/ ١٩٠ رقم٢٩٨٩).
(٢) أخرجه البخاري تعليقًا (١/ ٤٣)، باب الدين يسر.
(٣) أخرجه الإمام أحمد (٤١/ ٣٤٩ رقم ٢٤٨٥٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٢٨ رقم ١٨٢٩). وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٨١).

فالأنبياء السابقون كانت دعوتهم للإسلام، ولئن انحرف أتباعهم عن الإسلام، وصار منهم اليوم منْ يُحارب الإسلام ويسخر منه، فقد نالت أُمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرف الالتزام وشرف التسمية ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج:٧٨].

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا النص القرآني سَمَّانا المسلمين، يقول ابن عاشور في تفسيره: «الضمير في ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عائدٌ إلى الجلالة، كضمير ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾، فتكون الجملة استئنافًا ثانيًا؛ أي هو اجتباكم وخصّكم بهذا الاسم الجليل، فلم يعطه غيركم، ولا يعود إلى إبراهيم.

والإشارة في قوله: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ إلى القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف:٤]؛ أي وسمّاكم المسلمين في القرآن»[1].

نسأل الله أن يخصّنا بفضله، ويهدينا إلى سواء الصراط.

(١) التحرير والتنوير: ابن عاشور (١٧/ ٢٥٣).

نصرُ اللّه

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

ردِّد هذه الآية مستشعرًا عظمة الله، جازمًا بوعده؛ فالقوة لله، والنصر بيد الله؛ إذ يُؤكّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نصره لأنبيائه، ونصره للذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة!

إن نصر الله آتٍ، وعزّه ثابت، لا محالة ولا شك في ذلك، ومهما علا الباطل واشتد، فنصر الله لعباده المؤمنين مُتحقِّق ثابتٌ ثبوت الشمس من مطلعها ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]. قامت دولة النبوة والراشدين في المدينة المنورة.

وفي سنوات وجيزة، نشروا دين الله في أرضه، وأسقطوا أقوى دولتين في زمانهما؛ دولة فارس والروم، وذاك أنهم صدقوا ماعاهدوا الله عليه، ونصروا دين الله، فنصرهم الله، وفي سنوات وجيزة غيّروا وجه الأرض ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧]. إن القوة بكل أنواعها وفنونها بيد الله. حلّ وباء كورونا (كوفيد ١٩) بالكرة الأرضية في هذا العصر، فوقفت كل الدول عاجزة صاغرة ذليلة، فيروسٌ صغيرٌ لا يُرى، انهارت

أمامه القوة البشـــرية، بما وصلت إليه من أسلحة فتّاكة، وقوّة وجبروت، وعلـــوم وبحـــوث ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثـر:٣١]. إن النصـــر والقوة والعزّة بيـــد الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

إن وعد الله بـــاقٍ، ودين الله خالد، وجُنـــده منصورون ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣]، وقد أمر الله الأخذ بالأســـباب، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفـــال:٦٠]. أمرٌ واضحٌ بإعداد القوة التي نســـتطيعها، وليس القوة المماثلـــة لقوة الأعداء، وبعد أن نبذل جُهدنا وما نقْدرُ عليه، يأتي النصر من عند الله لعباده المؤمنين.

ورد في تفســـير البغوي أن نصـــر الله، كما «قَالَ ابْنُ عَبَّـــاسٍ: بِالْغَلَبَةِ وَالْقَهْرِ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: بِالْحُجَّةِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعُذْرِ. وَقِيلَ: بِالِانْتِقَامِ مِنَ الْأَعْـــدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ قَـــدْ كَانَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَهُمْ مَنْصُـــورُونَ بِالْحُجَّةِ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ، وَقَدْ نَصَرَهُـــمُ اللهُ بِالْقَهْرِ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ وَإِهْلَاكِ أَعْدَائِهِمْ»[1].

وقال الزمخشـــري: «فِي الْحَياةِ الدُّنْيـــا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْـــهادُ أي في الدنيا والآخـــرة، يعنى أنه يغلبهم في الدارين جميعًا بالحجة والظفر على مخالفيهـــم، وإن غلبوا في الدنيـــا في بعض الأحاييـــن؛ امتحانًا من الله، فالعاقبة لهم، ويتيح الله من يقتصُّ من أعدائهم ولو بعد حين: والأشهاد. جمع شـــاهد، كصاحب وأصحاب، يريد: الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ»[2].

(١) تفسير البغوي، معالم التنزيل، ط، دار طيبة (٧/ ١٥٢).
(٢) الكشاف: الزمخشري (٤/ ١٧٢).

ومما قاله الشيخ ابن عثيمين عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ «أتى بصيغة التعظيم؛ لأن المقام يقتضيه؛ إذ إن النصر لا بُدَّ أن يكون من قوي، ولم يقل الله جَلَّوَعَلَا: أنا أنصر، قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾؛ لأن المقام يقتضي العظمة والقدرة والقوة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٥١] هم الذين أَقَرُّوا بقلوبهم، وأذعنوا واستسلموا بجوارحهم، وقَبِلوا ما أخبرت به الرسل، هؤلاء هم المؤمنون.(١).

وحين نقرأ القرآن الكريم بتريّث وتدبّر نجد الآيات التي تُؤكّد نصر الله وتمكينه لعباده المؤمنين بقلوب صادقة مخلصة؛ إذ يفتح لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بركاته، فهنيئًا لمن بارك الله له ونصره وفتح له خيراته ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

ومما قاله الشيخ ابن سعدي عند تفسيره لهذه الآية: «لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا صَدَّقَتْهُ الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرًا وباطنًا بترك جميع ما حرّم اللّه، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدرارًا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم في أخصب عيش، وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كدٍّ ولا نصَب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتّقوا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؛ بالعقوبات، والبلايا، ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو آخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة.

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة غافر.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]»[1].

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبشّر ويحذّر في عدد من آياته؛ فالنصر والبركة لعباده المؤمنين إيمانًا صادقًا تُصَدِّقُهُ أعمالهم، وذاك التاريخ الإسلامي خير مثال؛ إذ نرى فيه خطوبًا تمرّ بالمسلمين يشتدّ فيها البلاء، وتسوء حالتهم، وما أن يصدقوا ربَّهم قولًا وعملًا، إلا ونصر الله يتحقّق، فمنذ عهد النبوة والراشدين؛ تشتدّ الخطوب، وتضيق الدروب، ويأتي نصر الله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤]. إن نصر الله قريب فلا يأس.

بقي القدس قرابة مئة عامٍ في أيدي الصليبيين، وجاء صلاح الدين الأيوبي بقلبٍ صادق، وإيمانٍ صافٍ، وعزيمةٍ حاسمة، وقام بتأسيس الدولة الأيوبية، وقضى على الدولة الفاطمية ومذهبها الضال بمصر بعد أن استمرت ٢٦٢ سنة. وأنقذ القدس من الاحتلال الصليبي، فبعد ٩١ عامًا من احتلال الصليبيين للقدس، استلم المسلمون بيت المقدس، وذلك في يوم الجمعة ٢ ديسمبر سنة ١١٨٧م الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هجرية.

لقد صدق صلاح الدين مع ربّه، فأعزه الله ونصره، ونصر رجاله الذين صدقوا ربّهم، ومما ذكره المؤرخون من صفات صلاح الدين؛ أنه تميز

(١) تفسير السعدي (ص٢٩٨).

بنقاء السريرة وحسن العقيدة، وكان كثير الذكر لله تعالى، شديد المواظبة على الصلاة في أوقاتها، ومواظبًا على السّنن والرواتب، وقيام الليل، وملتزمًا بإخراج الزكاة وصوم رمضان، وممن يحبّون سماع القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بشغف، ويشترط في إمامه أن يكون عالمًا بالقرآن الكريم، ومتقنًا لحفظه، وكان كثير التعظيم لشعائر الدين، وحسن الظنّ بالله تعالى، متوكّلًا عليه، وكان من أبرز صفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى إقامته للعدل، فقد كان يؤمن أنّ العدل أحد نواميس الله في كونه، وأنه ثمرة من ثمرات الإيمان. وكان من أعظم الشجعان، شديد البأس، لا يخاف في الحق لومة لائم، والكرم من أبرز سجاياه التي يتّصف بها، حتى إنّه عند وفاته لم يجدوا في خزانته إلّا سبعة وأربعين درهمًا ناصريّة من الفضّة، ومن الذهب إلا جرام واحد، وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ عظيم الاهتمام بنصرة دين الله والذبّ عنه، فنصره الله، وأعلى شأنه، وخلّد ذكره[1].

(١) انظر: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، محمد بن راغب الحلبي (٢/ ١٦٨-١٦٩).

نورُ اللّه

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصفّ:٨].

بعد أن عاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اليهودَ والنصارَى في الآيات السابقة لهاتين الآيتين في سورتيِّ التوبة والصفِّ، كشف الله عَزَّوَجَلَّ عما أهمَّهم من كراهية، وأعمل أفكارهم من حقد، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالم السرّ وأخفى، أخبر عَزَّوَجَلَّ عن الإرادة التي في نفوسهم، وهي عداوةُ ما جاء به خير البشرية محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن رغبتهم المستمرة في القضاء على دين الله الحق، وعلى نُوره المُبين.

وجاء التعبير بصيغة فعل المضارع ﴿يُرِيدُونَ﴾ الذي يفيد استمرار وقوع الحدث في الحاضر والمستقبل؛ أي في زمان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيما بعده، فما يُزْعِجُهُم هو ما جاء به خير البشرية عَلَيْهِ السَّلَامُ! وإرادتهم تلك هي العمل على المكر والكيد لدين الله وإزالته.

﴿لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ الإطفاء يعني خمود الضوء وانتهاؤه، فلا يبقى له بريقًا ولا شعاعًا.

ووسيلتهم التي اتخذوها لإطفائه هي الأفواه؛ إذ أرسل يهودُ المدينة وفُودَهُم لكفار قريش ولغطفان وقبائل العرب، وحرّضوهم على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى النور الذي جاء به، فكانت معركة الأحزاب ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. حزّبوا الاحزاب على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَمَعُوهُم بأفواههم ومكرهم، وهو ما يقومون به ويمكرونه في كل زمان!

إن عملهم وكيدهم هو لإطفاء ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ الذي بُعث به خيرُ البشرية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويأبى سبحانه تمكينهم فنورُه خالد ودينُه قائم ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢] وفي آية الصفّ يتحدّى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اليهود والنصارى وغيرهم، فيقول: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨]. إنه دين الله المُبارك المحفوظ من لدنه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

إن إرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غالبة ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

حديثه صدقٌ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

ووعده حقٌّ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

إن التعبير القرآني في آيتيّ هذا المجلس يأتي في صورة مُوحيةٍ ناطقة،

تمنح المسلمين الواعين الثقة والقوة، فهل يستطيع أحدٌ بفيهِ إطفاءَ ضوء الشمس ونور القمر؟ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥].

إن ما في الوجود الدنيوي من نور مصدره النور الإلهي ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥].

فهم أحقر من إزالة النور الرباني ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة:٣٢].

إن هذا التعبيرَ العظيمَ تأكيدٌ لأمَّةِ الإسلام أن دينَهُم هو الحق، فلا خوفٌ على دين الله ونوره المبين!

إن حرب اليهود والنصارى باقيةٌ مستمرة، وقد أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آية أخرى متى يكفّون كيدهم ومكرهم، فقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

إن هذه الآيات تحكي الإعجاز للقرآن الكريم، فأفتك الأسلحة في هذا العصر؛ سلاح الإعلام، سلاح اللسان، سلاح الأفواه. اليوم تتبارى كبريات الوسائل الإعلامية لحرب الإسلام؛ دين الله الحق ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الصف:٨] وحين طوّروا سلاح الإعلام ووسائِلَه، صار -ولله الحمد- وسيلة لنشر دين الله، وسبيلًا لإبلاغه.

تلك الصور المُسيئة لسيد البشرية صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلوها سلاحًا لأفواههم؛ للنيل منه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فكانت وسيلةً لإثارة الباحثين عن الحق، فسألوا عن الإسلام وقرؤوا عنه، فأسلم كثيرون، وممن أسلم رسّام الصور المُسيئة نفسه ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

هذا، ومما ورد في تفسير القرطبي لآية الصف ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨]، قوله: «الْإِطْفَاءُ هُوَ الْإِخْمَادُ، يُسْتَعْمَلَانِ فِي النَّارِ، وَيُسْتَعْمَلَانِ فِيمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا مِنَ الضِّيَاءِ وَالظُّهُورِ. وَيَفْتَرِقُ الْإِطْفَاءُ وَالْإِخْمَادُ مِنْ وَجْهٍ، وَهُوَ أَنَّ الْإِطْفَاءَ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَالْإِخْمَادُ إِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْكَثِيرِ دُونَ الْقَلِيلِ، فَيُقَالُ: أَطْفَأْتُ السِّرَاجَ، وَلَا يُقَالُ أَخْمَدْتُ السِّرَاجَ. وَفِي ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ هُنَا خَمْسَةُ أَقَاوِيلَ: أَحَدُهَا: أَنَّهُ الْقُرْآنُ، يُرِيدُونَ إِبْطَالَهُ وَتَكْذِيبَهُ بِالْقَوْلِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ زَيْدٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ الْإِسْلَامُ، يُرِيدُونَ دَفْعَهُ بِالْكَلَامِ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. الثَّالِثُ: أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ يُرِيدُونَ هَلَاكَهُ بِالْأَرَاجِيفِ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ. الرَّابِعُ: حُجَجُ اللهِ وَدَلَائِلُهُ، يُرِيدُونَ إِبْطَالَهَا بِإِنْكَارِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ، قَالَهُ ابْنُ بَحْرٍ. الْخَامِسُ: أَنَّهُ مَثَلٌ مَضْرُوبٌ؛ أَيْ مَنْ أَرَادَ إِطْفَاءَ نُورِ الشَّمْسِ بِفِيهِ فَوَجَدَهُ مُسْتَحِيلًا مُمْتَنِعًا، فَكَذَلِكَ مَنْ أَرَادَ إِبْطَالَ الْحَقِّ، حَكَاهُ ابْنُ عِيسَى. وَسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا حَكَاهُ عَطَاءٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَبْطَأَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أَبْشِرُوا! فَقَدْ أَطْفَأَ اللهُ نُورَ مُحَمَّدٍ فِيمَا كَانَ يُنْزِلُ عَلَيْهِ، وَمَا كَانَ لِيُتِمَّ أَمْرَهُ، فَحَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، وَاتَّصَلَ الْوَحْيُ بَعْدَهَا»[1].

هذا وبتدبُّر الكلمات القرآنية في آيتي هذا المجلس وما كاده الكائدون للإسلام منذ عهد النبوة وحتى وقتنا الحاضر، نعرف عجزهم وفشلهم من أن يُطفئوا نور الله؛ فمعجزة الله الخالدة القرآن الكريم قُوةٌ عظمى تتحطم أمامها كُل مكائدهم.

(١) تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٨٥).

إنه قوةٌ هادية ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة:١٦].

إنه قُوة نُورانية أنزلها الله لا تستطيع أيُّ قوة في الأرض؛ في كُلِّ زمانٍ، وفي كُلِّ مكانٍ، إطفاءها ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [التغابن:٨]. إنه قوةٌ تتحدى كل قوى الكفر ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]. إنه قوةٌ أقوى من قواتهم المادية والنووية وغيرها من أسلحة الفتك والإبادة! إنه قوةٌ ناعمةٌ نافذةٌ ولَجت عُقولَ مفكريهم وعلمائهم، فهزت عددًا منهم؛ فتحولوا من العداوة إلى الصداقة! ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور:٣٥].

إنه قوةٌ جذبت عمالقة الفكر، فأخرجتهم من الظلمات إلى النور؛ ليكونوا مدافعين عن نور الله! ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

كانوا يقولون إبان الحرب العالمية: بريطانيا دولة لا تغيب عنها الشمس من قوتها وكثرة مستعمراتها، وفي ذلك الوقت وقف زعيم من زعمائها وبيده المصحف، وقال: لن نغلبَ المسلمين وننتصر عليهم طالما هذا الكتاب في أيديهم!

لقد صدق وهو كذوب، فالقرآن قوةٌ ناعمةٌ ظاهرةٌ حفظ اللهُ به نورَه المبارك!

إنه قوةٌ خالدةٌ غالبةٌ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١٧٤].

أنزله الله وسماه نورًا مُبينًا! والإبانة مُتعددة الدلالة، فالإبانة نورٌ يكشف الخفي إن كان حسيًّا، ويكشفُ الخفي إن كان معنويًّا، ويكشف الخفي في كُلِّ مكان، وفي كُلِّ زمان.

ومما قاله الشيخ ابن عثيمين حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾: «الخطاب هنا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لإفادة أن رسالة النبي ﷺ عامة، لا تختص بقوم دون قوم؛ فالناس كلهم مخاطبون بشريعة النبي ﷺ حتى اليهود والنصارى مخاطَبون بذلك. وقوله: ﴿بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ البرهان هو الدليل، والمراد به الآيات التي جاءت بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأعظم آية جاء بها الرسول ﷺ هي القرآن الكريم الذي بقي آية للرسول إلى أن يأذن الله تعالى بخراب العالم.

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا﴾ يعني به القرآن، والنور ضد الظلمة، وهل هو نورٌ معنوي أو حسي؟ هو نورٌ معنوي لا شك؛ لأنه به يستنير القلب والوجه والقبر والبعث؛ فالقرآن كله نور، لكنه يحتاج إلى تأمّلٍ وتدبّرٍ لمعانيه وعملٍ به. وفي هذه الآية الكريمة فوائد:

* منها: أن القرآن الكريم نازِلٌ لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ويترتب على هذا عموم رسالة النبي ﷺ.

* ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب على من لم يعرف اللغة العربية أن يتعلّمها ليتوصل إلى الاستفادة من القرآن؛ لقوله:

﴿بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾. ومن المعلوم أنك لو تلوته على رجل أعجمي، فكما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٩٨-١٩٩]؛ لأنهم لا يعرفونه، ولا يتذوّقون طعمه.

* ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الربوبية، وأن إرسال الرسل وإنزال الكتب من مقتضى ربوبيته؛ لقوله: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

* ومن فوائدها: أن القرآن الكريم نور، ولكن لا يتذوق ذلك، أو لا يشاهد ذلك، إلا من جمع بين أمرين: الأول: التدبر، والثاني: التذكر؛ دليل هذا قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ لأي غرض؟ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذه واحدة، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]. فمن تدبر الآيات، وسلم من الهوى، وسلم من تحريف الأدلة، واتّعظ بما فيها، فإنه سيجد نورًا عظيمًا في قلبه، ويُكشَف له من العلوم ما لا يُكشف لغيره.

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن القرآن الكريم فيه بيان كل شيء؛ لأن النور لا بُدَّ أن تستبين به الأشياء كالنهار إذا طلع بانت به الأشياء، وكالحجرة إذا أسرجتها فإنها لا بُدَّ أن يبين بها ما كان خافيًا، فالقرآن تبيانٌ لكل شيء، ولكن قد يخفى البيان؛ إما لقلة الإيمان، وإما لقلة العلم، وإما لقصور الفهم، وإما لسوء القصد، وإلا فإن القرآن بيّنٌ ونورٌ لكل أحد، لكن قد يكون عند الإنسان ضعف إيمان؛ بمعنى أنه لا يثق أن القرآن فيه تبيان كل شيء، أو يكون قاصر العلم، ليس عنده أداة يتمكن بها من استنباط الأحكام من الأدلة، ومن ثَمَّ صِرنا

محتاجين إلى تعلّم أصـــول الفقه، وإما أن يكون من قصور الفهم، يكون إنسان عنده علم وعنده تدبّر، لكن ما يفهم، والناس يختلفون في هذا اختلافًا عظيمًا؛ تجد بعض الناس يســتطيع أن يستنبط من الآية أو الحديث فوائد كثيرة لا يســتنبط غيره مــن ذلك إلا قليلًا بالنسبة له، وذلك فَضْلُ اللهِ يُؤتيه من يشاء.

ولهذا لما سُئلَ عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل خصَّكمُ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشـــيءٍ؟ -يعني وأوصى إليكم- قــال: «والذي فَلَقَ الحبةَ وبرَأَ النســمةَ ما عندنــا إلا ما في القــرآن، إلا فهْمًا يُعطى رجلٌ فــي كتابه وما في هذه الصحيفة». قالوا: ما الذي فيها؟ قال: «العَقْلُ، وفِكَاكُ الأســيرِ، وألا يُقتلَ مسلمٌ بكافرٍ»[1].

فالشاهد من هذا الأثر قوله: فهمًا يؤتيه الله من يشاء، وأنت إذا تأملت كلام العلمــاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ وجدت الفرق العظيم بينهم في الفهم؛ تجد مثلًا هذا العالم يشرح حديثًا، ثم يستنبط منه عشرين فائدة، وآخر يشرحه ولا يستنبط إلا خمس أو أربع فوائد، وكذلك في الآيات»[2].

نسأل الله نوره المبين، وثباته، وتوفيقه.

(١) أخرجه البخاري (١/ ١١٥ رقم١١١).
(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة النساء: ١٧٤.

الهُدهُد

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٠-٢٣].

تحكي هذه الآيات قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وتُبيِّن أن للهدهد لغةً يُعبّر بها، ويتفاهم بهـا، وصدق المولى عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

وفي سـورة النمل التي وردت فيهـا هذه الآيات تأكيـدٌ أن للطيور والنمل منطقًا وقولًا ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

وجاء في السنة النبوية أن الحيوانات تكلّمت بصوتٍ سمعها وفهمها البشر!

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «صلّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: بينما رجلٌ يسوقُ بقرةً؛ إذ ركبها فضربها، فقالت: إنّا لم نُخلق لهذا إنّما خُلقنا للحرث، فقال الناس: سبحان الله بقرةٌ تكلم!

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فإني أُومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هُما ثمَّ.** (أي لم يكونا حاضرَيْن).

وبينما رجل في غنمه؛ إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة، فطلبه حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب: هذه استنقذتها منّي، فمنْ لها يومَ السَّبُعِ؟ يومَ لا راعٍ لها غيري؟

فقال الناس: سبحان الله! ذئبٌ يتكلم!

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فإني أُومنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثمَّ**»[1] (أي لم يكونا حاضرَيْن)، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

سبحان الذي أعطى كل شيء خلقه فهدى.

نَطَقت الطيور، وتَكلَّمت الحيوانات، وفهم البشرُ نُطقها وكلامها، هذا ما هو ثابتٌ في القرآن والسنة ولئن تطور العلمُ، وتعددت برامجه فما عِلْمُنَا إلّا قطرة في محيط، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥].

إن آيات هذه الجلسة تعرض قصة طائر الهدهد مع نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمع عظمة ملك نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما أعطاه الله من ملكٍ وعلم، فقد عَلِمَ طائرُ الهدهد ما لم يعلمُه سليمان؛ إذ أحاط ذاك الطائر

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤١ رقم٢٣٢٤)، ومسلم (٤/ ١٨٥٧ رقم٢٣٨٨).

البسيط بما لم يُحط به سليمان، ويا له من علمٍ وهداية! عرف الطائر بكفر ملكة سبأ وقومها! كيف عرف وكيف علم! ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٤-٢٦].

إن في هذا إشارة إلى أن الطيور من حولنا والهداهد تحلّق فوقنا وتعرف العصاة منا والمذنبين، وتستنكر انحراف أهل العقول والإدراك البشري، فهذا الهدهد يحكي القرآن الكريم إنكاره واستغرابه.

وشكّك نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قول الهدهد وخبره ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٧، ٢٨].

قال ابن الجوزي في تفسيره: وإنما شَكَّ (سليمان) في خبره؛ لأنه أنكر أن يكون لغيره في الأرض سلطان»[1]. لقد صدق الله عَزَّوَجَلَّ لم نؤتَ من العلم إلا القليل!

ونقل الهدهد رسالة أعظم ملك عرفته البشرية، رسالة موجزة، رسالة تُعَلِّمُنَا فنَّ الكتابة والبلاغة، رسالة تتضمّن أعظم أوامر الطاعة والانقياد، كلماتٌ موجزة، ذات دلالاتٍ عظيمة، نهيٌ عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتَّكبُّر.

(١) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد، ابن الجوزي، (٦/ ١٦٧).

قال الـرازي: «هذا الكتاب على وجازته يحـوي كل ما لا بُدَّ منه في الدين والدنيا.

كان الهدهد، ورسـالة الهدهـد معجز، والمعجز يـدل على وجود الصانع، وعلى صفاته، وعلى صدق المُدَّعي، فلما كانت تلك الرسـالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جَرَمَ لم يذكر في الكتاب دليلًا آخر»[1].

وقـال الماوردي في تفسـيره: «كُتُب الأنبياء موجـزة مقصورة على الدعاء إلى الطاعة من غير بسطٍ ولا إسهاب»[2].

وقال الزمخشـري في تفسـيره: «وكانت كُتُب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جُملًا لا يُطيلون ولا يُكثِرون»[3].

﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٢٨-٣٢].

ويحمل الهدهد الرسـالة، ويؤكد القرآن الكريم وصولها، فقد قرأت ملكة سبأ الرسـالة وأخبرت قومها واستشارتهم: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ

(١) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب (٢٤/ ١٦٧)، الباحث القرآني، سورة النمل.
(٢) تفسير الماوردي، النكت والعيون، دار الكتب العلمية، بيروت، (٤/ ٢٠٧).
(٣) تفسير الزمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٣٦٤).

﴿إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٢٩-٣٥].

ويعود الهدهد وقد عرف الرأي وما استقرت عليه ملكة سبأ بإرسال الهدية ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

ويُبلِّغُ الهدهد نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بقرارها، وعلى الفور يعود الهدهد بقرار نبي الله سليمان الحاسم الجازم ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل:٣٦، ٣٧].

إنه الهدهد الصغير ينقل الرسائل المتبادلة بين الكبار؛ بين نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وملكة سبأ.

إنه الإعجاز الربّاني؛ هدهدٌ يحمل الرسائل، هدهدٌ يعي حوار البشر ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومما ذكره الرازي في تفسيره عن أهمية العلم وشرفه، أن سليمان «لَمْ يَفْتَخِرْ بالملك والقوة، وافْتَخَرَ بِالعِلْمِ ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾، فافْتَخَرَ بِكَوْنِهِ عالِمًا بِمَنطِقِ الطَّيْرِ»[1].

الهُدْهُدُ مَعَ أَنَّهُ في نِهايَةِ الضَّعْفِ، ومَعَ أَنَّهُ كانَ في مَوْقِفِ المُعاتَبَةُ قالَ لِسُلَيْمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، فَلَوْلا أَنَّ العِلْمَ أَشْرَفُ الأَشْياءِ وإلّا فَمِن أَيْنَ لِلْهُدْهُدِ أَنْ يَتَكَلَّمَ في مَجْلِسِ سُلَيْمانَ بِمِثْلِ هَذا الكَلامِ، ولِذَلِكَ يُرى

(١) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب (٢/ ٤٠٧)، الباحث القرآني، سورة النمل.

الرَّجُلُ السّاقِطُ إذا تَعَلَّمَ العِلْمَ صارَ نافِذَ القَوْلِ عِنْدَ السَّلاطِينِ، وما ذاكَ إلّا بِبَرَكَةِ العِلْمِ»[1].

(١) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب (٢/ ٤٠٧)، الباحث القرآني، سورة النمل.

الهروب

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣-٢٤٥].

ترد في كتاب الله قصص الأمم الغابرة، وحكايات الأنبياء السابقين مع أممهم، للعبرة والعظة، تأتي تلك القصص؛ لا تسليةً للنفوس، وتزجيةً للوقت، ولكن لمعرفة منهج الحياة الواجب اتخاذه، والسير وفق هديه. تأتي تلك الأحداث؛ لتنبيه حاملي القرآن أن رسالتهم في الحياة الدنيا اتباعٌ لهديهِ سبحانه، ودعوة وتبليغ لمنهج الحق.

وفي هذه الآية يعرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كلمات موجزة قصة أُمّة من الأمم القديمة، هربوا من ديارهم حذر الموت، وخوفَ الردى، ولم يوضِّح ربُّنا مَنْ هم أولئك الخارجون؟ ولا زمان هروبهم، ولا موقع ديارهم، ولا عددهم، إلا أنّهم أُلوف. وبَيَّنت الآية أن سبب الخروج هو الحذر من الموت، فيا ترى هل كان الخوف من الموت والفرار؛ بسبب نُزُولُ وباء

حَلَّ بهم؟ أم هي الحروب مع المناوئين لهم؟ أم هو عدو قد سُلّط عليهم ليستأصلهم، أم هو جور حاكمهم والدفع بهم لقتال الظلم والبطش؟ أم هو تسلّط وبغي بعضهم على بعض؟ لم يرد تفصيل ذلك، المهم، هو الهروب حذر الموت!

وبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه لا قدرة لهم على الهروب من قضاء الله وقدره، فقدَرُ الله غالب ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف:٢١]، والموتُ لا مفرّ منه، هو الشيء الوحيد الذي تهرب منه، وتلقاه أمامك ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الجمعة:٨].

إنه لا قُدرة لمخلوق على الهروب من خالقه، فكلّ ما في الكون مملوكٌ لله، وطوعَ إرادته، أمرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين الكاف والنون، يقول -جلّت قدرته- للشيء كُن فيكون! ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠].

إن قدرة الله لا حدود لها. إن العظمة والتحدّي له سبحانه وليست لغيره، إن القوة الغالبة لكل قُوةٍ هي لله سبحانه. قال فرعون لقومه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، فأذلَّهُ الله، ومما أذلّه الله به؛ الجراد، والقُمَّل، والضفادع، فبقي حقيرًا عاجزًا عن تلك المخلوقات الضعيفة، حتى صاح وقومه، ورجوا نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يدعو الله لرفع ذاك البلاء عنهم ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٣٣، ١٣٤].

تجتاح البشرية بين الحين والآخر فيروسات متناهية الصغر، فتشلّ حركتها، وتجعلها أقزامًا، تختفي معها قوتها، وتمّحي حيالها سلطتها، وهذا العام ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م عَمَّ الكرة الأرضية وباء كورونا [كوفيد ١٩]، فيروس لا يُرى، وقفت أمامه دول العالم صاغرةً ذليلة؛ اختفت صواريخهم وقنابلهم المدمرة، وتوقفت طائراتهم الحارقة وكل ما لديهم من قوة، وعجز أطباؤهم وباحثوهم، وتاهت مُختبراتهم، وبقي البشر شهورًا معزولين في دورهم، محجورين في مساكنهم، وصار الفيروس كل لحظة يفتك بهم، وجأر العالم كله؛ مُسلمُهم، وكافرُهم، إلى ربّهم، وأيقنوا ألا منجاة لهم إلا بالله! أشعرهم ذاك الفيروس الصغير أنهم جميعًا ضيوفٌ على الأرض، وليسوا أسيادها!

إن تلك الأمة التي هربت من الموت في ماضي الزمن لم تسلم من الموت؛ إذْ يقرّر القرآن في كلمات موجزة أن ذاك الحذر لم ينفعهم في اتقاء الموت والنجاة منه، وأنهم بعد الموت لم يكن لهم حَوْلٌ ولا طَوْلٌ، ولم يبذلوا جُهدًا في استرجاع الحياة، وإنما هي إرادة الله في الحالتين؛ الإماتة، والإحياء. وهذا الخبر اليقين بهذه القصة هداية للجماعات المسلمة في كل زمان ومكان، فالموت والحياة بيد الله؛ ولهذا كُنْ مع الله، وثِقْ بالله، واحمل روحك على كفِّك في سبيل الله، وجُدْ بمالك في سبيل الله. فبعد ورود حادثة الهروب من الموت ترد آيتا الأمر الربّاني: الآية الأولى: بذل المُهج في سبيل الله، وذاك أصعب ما يبذله المسلم؛ خدمةً لدينه ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإذا كان الله يأمر المسلمين أن يجودوا بأرواحهم لخدمة دين الله وتبليغه، فكيف بوسائل التبليغ الميسرة،

المُــتاحة لكل مُســلمي هذا الزمان. إن كل مســلم مأمور بتبلغ دين الله بالأمس واليــوم ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨].

تنبّه أخي المســلم!! ماذا عملت لتبليغ دعوة الله؟ تذكّر أنك سَتُسْأَل يوم تلقــى ربــك! ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخــرف:٤٤]، فهل أعددت جوابك! تأمّل، فَكِّر.

ثم ترد الآية الأخرى: آية مُغالبة الشحِّ بالمال والجُود به في سبيل الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾. إن الإنفــاق جُهــدٌ يندبُنا الله إليه، فكأن المنفق في ســبيل الله مُقــرضٌ لله! يا الله كم في هذا النــدب من ترغيبٍ وتحبيب! هلّا خصّصت جُزءًا يســيرًا من دخلك، ونويت به إقراض ربّك الغني عنك. أدرك نفسك، وأسرع بالتنفيذ، واتركِ التسويف، فقد يأخذك الموت فجأة، ولات ساعة مندم.

قال أبو جعفر الطبري عند تفســيره لهذه الآية: «إنما حثّ الله -تعالى ذكــره- عباده بهذه الآية، على المواظبة على الجهاد في ســبيله، والصبر على قتال أعداء دينه. وشــجعهم بإعلامه إياهم، وتذكيره لهم، أن الإماتة والإحياء بيديه وإليه، دون خلقه، وأن الفرار من القتال والهرب من الجهاد ولقاء الأعداء، إلى التحصّن في الحصون، والاختباء في المنازل والدور، غير مُنجٍ أحدًا من قضائه إذا حلَّ بســاحته، ولا دافع عنه أسباب منيّته إذا نزل بعقوَتِهِ»[1].

(١) عقوتـه: عقـوة الـدار: سـاحتها وما حولهـا قريبًـا منهـا، يُقال: نـزل بعقوتـه، ونزلت الخيـل بعقوة العدو.

وقال أبو جعفر عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣]: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: إن الله لذو فضل وَمَنٍّ على خلقهِ؛ بتبصيره إياهم سَبيل الهُدى، وتحذيره لهم طرق الرَّدى، وغير ذلك من نعمه التي ينعمها عليهم في دنياهم ودينهم، وأنفسهم وأموالهم، كما أحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت بعد إماتته إيّاهم، وجعلهم لخلقه مثلًا وعظةً يتّعظون بهم، وعبرةً يعتبرون بهم، وليعلموا أن الأمور كلها بيده، فيستسلموا لقضائه، ويصرفوا الرغبة كلها والرهبة إليه»[1].

وقال ابن كثير في تفسيره: «كان فِي إِحْيَائِهِمْ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وُقُوعِ الْمَعَادِ الْجُسْمَانِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أَيْ: فِيمَا يُرِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ وَالدَّلَالَاتِ الدَّامِغَةِ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾؛ أَيْ: لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ. وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَ حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ فَرُّوا مِنَ الْوَبَاءِ؛ طَلَبًا لِطُولِ الْحَيَاةِ، فَعُومِلُوا بِنَقِيضِ قَصْدِهِمْ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ سَرِيعًا فِي آنٍ وَاحِدٍ.

ويُروى عن سَيْفِ اللهِ الْمَسْلُولِ عَلَى أَعْدَائِهِ أَبِي سُلَيْمَانَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ: لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مَوْقِفًا،

(١) تفسير الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن (٥/ ٢٧٩).

وَمَا مِنْ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ رَمْيَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ، وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِـــي كَمَا يَمُوتُ الْبَعِيرُ! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ؛ يَعْنِي: أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ؛ لِكَوْنِهِ مَا مَاتَ قَتِيلًا فِي الْحَرْبِ، وَيَتَأَسَّـــفُ عَلَـــى ذَلِكَ، وَيَتَأَلَّمُ أَنْ يَمُوتَ عَلَى فِرَاشِهِ.

وَقَوْلُـــهُ: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾؛ أَيْ: أَنْفِقُوا وَلَا تُبَالُوا، فَاللهُ هُوَ الرَّزَّاقُ، يُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فِي الرِّزْقِ، وَيُوَسِّعُهُ عَلَى آخَرِينَ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ أَيْ: يوم القيامة»[1].

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٦٤).

وبشِّر

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥].

أمرٌ إلهيٌ بالبشارة، وما أعظمها وأجلّها من بشارة! بشارةٌ تسُرُّ القلوب، وتَبْهَجُ النفُوس؛ جنات وأنهار، ثمارٌ مُتشابهة، وأزواجٌ مُطهرة، ونعيمٌ وخلود.

قال ابن قيم الجوزية: «تأمل جلالة المـُبشِّر ومنزلته وصدقه وعظمته، وعظمة منْ أرسله إليك بهذه البشارة، وقد بشّرك به، وضمّنه لك، وجعله أسهل شيءٍ عليك وأيسره، وجمع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات، وما فيها من الأنهار والثمار، ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين، بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد، وعدم انقطاعه»[1].

لقد وردت هذه البشارة في أول سورة البقرة، فوقفتُ فرحًا ووجلًا؛

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ابن قيم الجوزية (ص١٤٩)، وانظر: بدائع التفسير (١/ ١٠٩).

فرحًا بالنعيم الذي أطمح أن أكون من أهله المـُبَشَّرِين، ووجلًا أن أخسر هذه البشارة!

أي والله بشـــارةٌ ووعدٌ من الخالق سبحانه! ومَنْ نحنُ في هذا الكون العظيـــم حتى نحظى بهذا التلطّف العذب! ربّاه لك الشـــكرُ والثناء، ربّاه إليك الملتجأُ والرجاء، ربّاه لك الحمدُ والدعاء.

مما ذكره الزمخشـــري حول هذه الآية قولـــه: «إن قلت: مَن المأمور بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾؟ قلت: يجوز أن يكون رســـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يكون كلَّ أحد، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «بشّـــر المشّـــائين إلى المساجد في الظُّلَم بالنور التام يوم القيامة». لم يأمر بذلك واحدًا بعينه، وإنما كلَّ أحدٍ مأمورٌ به، وهذا الوجه أحسن وأجزل؛ لأنه يؤذن بأن الأمر، لعظمه وفخامة شأنه؛ محقوقٌ بأن يبشَّر به كلَّ من قَدر على البشارة به»[1].

ولقد تكررت البشـــارة والوعد الســـار في القـــرآن الكريم للمؤمنين الذين يعملون الصالحـــات؛ فلهم الخلود في الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨٢].

ولهم الوفاء ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:٥٧].

ولهم أنواع النعيـــم يتقلّبون فيه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ

(١) الكشاف: الزمخشري (١/ ١٠٤). والحديث أخرجه أبو داود (١/ ٢٠٩ رقم٥٦١)، والترمذي (١/ ٤٣٥ رقم ٢٢٣)، وابن ماجه (١/ ٢٥٧ رقم ٧٨١)، وصححه الحاكم (١/ ٣٣١ رقم ٧٦٨)، وابن خزيمة (٢/ ٣٧٧ رقم ١٤٩٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١/ ١٠٢ رقم ٤٢٥).

جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء:٥٧].

ولا يكلّفهم الله فوق طاقتهم، ولهم نعيمٌ لا يشوبه كدر، قد أزال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الغِلَّ من قُلُوبهم ومحاه، ولهم الثناء والإطراء ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٖۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٢، ٤٣].

وأعمالهم الصالحة في الدنيا محفوظة لا تضيع ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠].

ولهم جنات الفردوس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف:١٠٧، ١٠٨].

وتتوالى آيات البشائر؛ فلهم جنّات النعيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ [لقمان:٨].

ولا مِنَّةَ عليهم في أُجورهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [فصّلت:٨].

ولهم الفوز الكبير ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج:١١].

يارب رُحماك صدّقناك، وآمنَّا بوعدك، فلا أصدق منك سبحانك؛ وعدك حقٌّ، وقولك صدقٌ. فالسباقَ السباق، والبدارَ البدار ﴿وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء:١٢٢].

ولهم التهنئة، ولهم الثناء والإكرام ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد:٢٩]. وما أسعد مَن حظي بثناء الله!

وتحيُّتهم في الجنة سلام، وأكرم به من سلام يتبادلونه في نعيمٍ وسرور ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم:٢٣].

تزدان أجسادهم بأساور من الذهب واللؤلؤ، وتتغطى أجسامهم بلباس الحرير، وتلهج ألسنتهم بالطَّيِّب من القول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٣-٢٤].

ويزداد التكريم الربَّاني، فتتعدّد آيات التبشير والترغيب للمؤمنين في عمل الصالحات. أعاننا الله على طاعته، والمزيد من عمل الصالحات، ورزقنا الله نعيمه وودَّه.

ومما ذكره الشيخ ابن عثيمين في آية هذا المجلس قوله: «﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذين آمنوا بما يجب الإيمان به مما أخبر الله به ورسوله، وقد بيّن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أصول الإيمان بأنها: «**الْإِيمَانُ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1]، لكن ليس الإيمان

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٤ رقم٥٠)، ومسلم (١/ ٣٦ رقم٨).

بهذه الأشياء مجرد التصديق بها، بل لا بُدَّ من قبول وإذعان، وإلا لما صحَّ الإيمان. وأما قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فهو ثمرة الإيمان أن الإنسان يعمل الأعمال الصالحات، والأعمال الصالحات هي التي بُنيت على أساسين هما: الإخلاص لله، والاتّباع لرسول الله ﷺ، فما لا إخلاص فيه فهو فاسد؛ لقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

وما لم يكن على الاتباع فهو مردودٌ أيضًا لا يُقبل؛ لقول النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(٢). إذن، فالصالح ما كان خالصًا لله، متَّبعا فيه شريعة الله. ويُذكر عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: ما كان خالصًا صوابًا»(٣).

وقال الشيخ ابن سعدي: «﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بجوارحهم، فصدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. ووصفت أعمال الخير بالصالحات؛ لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودنياه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنَّته»(٤).

وقال البغوي: «﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أَيِ الْفِعْلَاتِ الصَّالِحَاتِ يَعْنِي

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٨٩ رقم ٢٩٨٥).
(٢) أخرجه البخاري معلقًا في باب النجش (٥/ ٣٥٥)، ومسلم موصولًا (٣/ ١٣٤٣ رقم ١٧١٨).
(٣) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة البقرة.
(٤) تفسير السعدي (ص٤٦).

الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَهْلِ الطَّاعَاتِ، قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ أَيْ أَخْلَصُوا الْأَعْمَالَ، كَمَا قَالَ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الْكَهْفِ:١١٠]؛ أَيْ خَالِيًا مِنَ الرِّيَاءِ. قَالَ مُعَاذٌ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ الَّذِي فِيهِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الْعِلْمُ، وَالنِّيَّةُ، وَالصَّبْرُ، وَالْإِخْلَاصُ»[1].

وفي نهاية المصحف الشريف يُسمّي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أُولئك المبشَّرين بأنهم خير البرية، ويُقرّر رضاه عنهم ورضاهم عنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البيّنة:٧، ٨]. وَهَبنا الله خشيته، وجعلنا من عباده الذين رضي عنهم.

إن بشائر الله لها ثمنٌ كبير -نسأل الله العونَ على طاعته- فلا نستسهل العمل، ولا نَغْتَرَّ بأعمالنا. نسأل الله القبول والتسهيل.

روى الصحابي حذيفة بن اليمان موقفًا صعبًا بشّر فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وندبهم إليه فتردَّدوا.

تقول كتُب السيرة: «تحالفت الأحزاب وجاءت تتدافع تنشد استئصال الإسلام من المدينة المنورة، وصمد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من الصحابة، وتململ المنافقون، وأخذوا يستأذنون الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقولون: إن بيوتنا مكشوفة للعدو، وما هي بمكشوفة، ويستأذنون النبي: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب:١٣].

(١) تفسير البغوي (١/ ٧٣).

واشتد الخطب على المسلمين، وبلغت القلوب الحناجر ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١٠، ١١].

حالةٌ رهيبةٌ أصابت المسلمين؛ عظُم البلاء، واشتدّ الخطب، وبلغ الخوف مبلغه.

قوة الدنيا تحالفت واتّحدت، وجاءت لتطفئ نور الله، وأنّى لهم ذلك، فقد وجدوا رجالًا صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حفروا الخندق حول المدينة، وأعدّوا ما استطاعوا من قوة، ولجأوا إلى الله يستغيثونه وينشدون نصره، ومن كان الله معه كان له النصر والعزة.

طال الحصار، وفرّق الله جمعهم، فَدَبَّ الخلاف بينهم، وبعث الله عليهم ريحًا شديدة البرودة؛ تقلّب خيامهم، وتكفأ قدورهم، وتقذف وجوههم بالحصباء، وتسُدُّ عيونهم وخياشيمهم بالتراب ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩]. وهنا رغّب رسول الله ﷺ في معرفة ما هم عليه؟ في تلك الليلة العاتية.

قال حذيفة: «كنّا في تلك الليلة صافّينَ قعودًا، وأبو سُفيان ومن معه من مُشركي مكة فوقنا، وبنو «قريظة» من اليهود أسفلَ مِنّا نخافهم على نِسائنا وذرارينا، وما أتت علينا ليلةٌ قطّ أشدّ ظلمةً، ولا أقوى ريحًا منها، فأصواتُ ريحها مثل الصواعق، وشدّة ظلامها تجعلُ أحدنا ما يرى إصبعهُ، ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ، فقال: «**مَن رَجُلٌ يقوم فيَنظُرَ لنا ما فَعَلَ القَومُ، ثم يَرجِعَ**» -يَشرُطُ له رسولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعةَ-

«أســأَلُ اللهَ أنْ يكونَ رَفيقي في الجَنَّةِ»، فما قامَ رَجُلٌ مِن القَومِ مع شِــدَّةِ الخَوفِ، وشِدَّةِ الجُوعِ، وشِدَّةِ البَرْدِ، فلمَّا لم يَقُمْ أحَدٌ، عند ذلك قامَ النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وجعلَ يمرُّ بنا واحدًا واحدًا حتى أتى إليَّ وما عليَّ شيءٌ يقيني مــن البرد إلا مِرْطٌ -ثوبٌ غير مخيط من مئزرٍ ونحوه- لامرأتي ما يُجاوز رُكبتــيَّ. فاقتربَ منّي وأنا جاثٍ على الأرض، وقال: «من هذا؟». فقلت: حُذيفة، قال: «حذيفة؟» فتقاصرتُ إلى الأرضِ؛ كراهية أن أقومَ من شِدَّة الجُوع والبردِ، قلت: نعم يا رســول الله، فقــال: «إنه كائنٌ في القومِ خبر، فتسلَّلْ إلى عَسكرهم وائتني بخبرِهم..».

فخرَجت وأنا من أشــدِّ الناسِ فزعًا، وأكثرِهم بردًا، فقال رســول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهمَّ احفظهُ من بينِ يديهِ، ومن خلفِه، وعن يمينه وعن شِماله، ومن فوقه ومن تحتِه**».

فواللهِ، ما تمَّت دعوة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حتــى انتزع الله من جَوفي كل ما أودعهُ فيه من خوفٍ، وأزالَ عن جَسدِي كلَّ ما أصابه مِن بردٍ.

فلما ولَّيتُ ناداني عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقال: «**يا حُذيفة لا تحدِثنَّ** -لا تفعلن- **في القوم شيئًا حتى تأتيني**»، فقلتُ: نعم، ومضيتُ أتسلّلُ في جُنحِ الظلام، حتى دخلت في جُند المُــشركين، وصرتُ كأني واحدٌ منهم. وما هو إلا قليلٌ حتى قام أبو سُفيان فيهم خطيبًا، وقال: يا مَعشرَ قريشٍ إني قائلٌ لكم قولًا أخشــى أن يَبلغ محمدًا، فلينظر كلّ رجلٍ منكم مَن جليسهُ، فما كان منّــي إلا أن أخذتُ بيد الرَّجل الذي إلى جنبــي وقلت: من أنت؟ فقال: فلانُ بنُ فلان.

وهنا قال أبو سفيان: يا مَعشر قريشٍ، إنكم والله ما أصبحتم بدارِ قرارٍ، لقــد هلكتْ رواحلنا -دوابنا-، وتخلّت عنا بنــو قريظة -قبيلة من قبائل يهود المدينة- ولقينا من شدَّةِ الرِّيحِ ما ترَون، فارتحلوا فإنّي مُرتحِلٌ، ثم قــامَ إلى جَمَلِه ففكَّ عِقاله، وجلسَ عليه، ثم ضربهُ فوثبَ قائمًا... ولو أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرني ألَّا أحدِث شيئًا حتى آتيه لقتلته بسهْم.

عند ذلك رَجعتُ إلى النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فوجدته قائمًا يُصلي في مِرطٍ لبعض نسائهِ، فلما رآني أدناني إلى رجليهِ، وطرحَ عليَّ طرفَ المــرط، فأخبرته الخبر، فسُرَّ به سرورًا شديدًا، وحمد الله وأثنى عليه»[1].

إن هذا الموقف يعرض بشــارة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه أن يكون المتطوع رفيقًا للرســول -عليه الصلاة الســلام- يوم القيامة، فمن شدّة البرد والخوف تردّدوا عن القيام، حتى عزم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حذيفة أن يكون صاحب المهمّة.

نسأل الله العون على طاعته.

(١) صور من حياة الصحابة (٢٩٣- ٢٩٥).

وعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا

قال تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفتاه والخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥].

هو العلم، وما أدراك ما العلم!

في سورة الكهف جاءت قصة الخضر مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وتعليمه له مما علّمه الله؛ لتدلّ على أن التعليم مهنةٌ شريفة، نستنبط شرفها من تدبّر آياتٍ مُتعددة في القرآن الكريم؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المعلِّم الأول؛ علَّم أبَا البشرية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بداية خلقه، وميَّزهُ من الملائكة بما علَّمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من علم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:٣١-٣٣].

وعلّم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خير الرُّسُل سيدنا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأول ما نزل عليه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

إنه العلم؛ شرَّفَهُ اللهُ، وخلَّدَ شرفَهُ في القرآن الكريم؛ إذ يقول سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

هذا، وبالتأمّل والتدبُّر في قصة موسى والخضر التعليمية، ظهر لي منها الفوائد الآتية:

١. أن مهنة التعليم ليست مهنةً عامةً لكل أحد، بل لها متطلبات خاصة يجب أن تتوفر في شخصية المعلِّم، فلا يُمارسها إلا مَنْ توفرت فيه تلك الصفات.

٢. أن أهم صفات المعلم الواجب توفرها فيه هي تحلِّيه بصفة الرحمة؛ إذ وردت الإشارة إلى هذه الصفة مرتبطة بالمعلِّم والتعليم في موضعٍ آخر في القرآن، فسورة الرحمن ابتدأت بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن:١-٢]، فاختار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صفة الرحمة لترتبط بتعليم القرآن، مع أن صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كثيرة، لكن اختياره صفة الرحمة في سياق تعليم القرآن يوحي بتلازم هذه الصفة مع أسلوب التعليم؛ ليثمر نجاحه، ويؤدي دوره المنوط به بصورة أفضل. إذن، فالرحمة هي الشرط الأول في المعلمين.

٣. أن القسوة والفظاظة في التعليم صفة مذمومة وغير مجدية في نتائجها، ومن ثم مَن فقد الرحمة أو ضعفت لديه الرحمة يجب ابتعاده وإبعاده عن التعليم؛ إذ إن الخشونة، والجفاء لا مكان لهما في مهنة التعليم.

٤. أن المعلم يجب أن يكون متمكِّنًا من العلم الذي يُعلّمهُ، فالخضر علّمه الله علمًا من لدنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فصار به أُستاذًا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلّا مثلُ ما نقص هذا العصفور من هذا البحر»[(١)]. سبحانه! سبحانه!

٥. التعليم يتطلب الصبر، فنبيُّ الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو المعلِّم لبني إسرائيل، جاء ليتعلّم من الخضر؛ ولهذا قال لفتاه ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ [الكهف:٦٠]؛ إذ يدرك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أهميةَ العلم، ولهذا سوف يصبر وينتظر الوقت الطويل؛ لينهل من علم الخضر. جاء في تفسير ابن كثير: «عن عبدالله بن عمر، الحُقُب: ثمانون سنة»[(٢)]. وفي قواميس اللغة: الحُقب بالضم ثمانون سنة، ويقال أكثر من ذلك[(٣)].

٦. في هذه القصة درسٌ تربوي للمتعلمين وأدبهم مع معلِّميهم، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو النبي، والله أمره، لم يقل للخضر: إن الله أمرني باتّباعك، وإنما تلطّف وترقّق في القول: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف:٦٦]. الرُّشد: نقيض الغيِّ، وهو الاستقامة على طريق الحق، وحسن التصرف، والحكمة في تناول الأشياء.

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٤٥١ رقم٤٧٢٥). من حديث أُبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٧٤).
(٣) انظر: لسان العرب: ابن منظور (١/ ٣٢٤) مادة: حقب.

٧. تؤكد هذه القصة أن العلم جاذبٌ للعلم، فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإن تلقّى العلم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وجاء بالمعجزات، فقد اشتاق للمزيد من العلم، وأصرّ على فتاه أن يجد الخضر ليتعلم منه. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا»[1].

٨. تُعلّمنا القصة أدب الحوار بين المعلم والطالب، فمع اختلاف الفهم وتباين الرأي لم يغضب وينفعل؛ أيٌّ من المعلم والطالب، وإنما كان الاستنكار من المعلم الخضر، والاعتذار من نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٩. تُنبه القصة إلى الرفق والصبر عند سماع العلم الذي لا تستوعبه مداركك ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

١٠. مثلما كانت بداية القصة ليِّنٌ وتلطّف في طلب العلم والرفقة، كانت النهاية وضوح العلم وجلاء الحقيقة، فافترق المعلم والطالب، وانتهت الصحبة بمودّة وعدم خلاف وقطيعة واحتفظ كل طرف للآخر بفيضٍ من الودِّ والتقدير ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢].

هذا وإن الفوائد التي يُمكن استنباطها كثيرة، وقد نبّه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ لِمَا كتبهُ شيخه ابن سعدي، حول هذه القصة، قال: «الحقيقة أن لشيخنا عبدالرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ فوائد جمَّة عظيمة لا تجدها في

(١) أخرجه الحاكم (١/ ١٦٩ رقم ٣١٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ولم أجد له علة. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٦٦٢٤). من حديث ابن عباس وأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

كتاب آخر، ذَكَرَ فوائدَ عظيمة في قصة موسى والخضر ينبغي لطالب العلم أن يراجعها؛ لأنها مفيدة جدًّا جدًّا»[1].

إن في تدبّر القرآن -وقد أمر الله به- والوقوف عند آياته بتفكر، فوائد كثيرة؛ إذ يفتح الله لمن يشاء من المتدبّرين؛ فيوضات من الفوائد العلمية، والهدايات الشرعية، فيستنبطها كما استنبط الشيخ ابن سعدي تلك الفوائد في قصة الخضر.

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الكهف.

وقودُ النَّار

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٠].

كفى بالله زاجرًا، وكفى بالله واعظًا. استوقفتني هذه الآية، وما تتضمّنه من وعيدٍ وتخويف!

تخيّل شرارةً من نار الدنيا مسَّتْكَ اليوم، ستقفزُ وتصرخُ، فكيف بمَنْ سيكون مصيرُه مادةً لاحتراق النار!

ربَّاه نسألُك النجاة!

كنوز الدنيا التي تمتلكها، وأولادك لن ينفعوك؛ فمنذ لحظة موتك ينتهي كل شيء، ولا ينفع الندم، ويحدث الفرار والانفراد، والأماني والترجّي، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠١]. لا تعارف ولا تعاضد، كُلٌّ همُّهُ نفسُه، كُلٌّ يسأل النجاة!

قال الرازي في تفسيره: «اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عنه كل ما كان منتفعًا به، ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة.

أما الأول (زوال الأسباب)، فهو المراد بقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ [آل عمران:١٠]؛ وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب في الدنيا يفزع إلى المال والولد، فهما أقرب الأمور التي يفزع المرء إليها في دفع الخطوب، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أن صفةَ ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا؛ لأن أقرب الطرق إلى دفع المضار إذا لم يتأتَّ في ذلك اليوم، فما عداه بالتعذّر أولى، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]، وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ [الكهف:٤٦]، وقوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٨٠]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وأما القسم الثاني: من أسباب كمال العذاب (اجتماع الأسباب)، فهو أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٠]، وهذا هو النهاية في شرح العذاب، فإنه لا عذاب أزيَد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الحطب اليابس»[1].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لآية هذا المجلس: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كفروا بما يجب الإيمان به، فكفروا بالله، أو باليوم الآخر، أو بالملائكة، أو بالكتاب، أو بالنبيين، أو بالقدَر، إذا كفروا بأي واحدٍ من هذه الأشياء الستة فهُم كفار؛ لأن الإيمان لا يتبعّض كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء١٥٠، ١٥١]. وقال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ

(١) تفسير الرازي، مفاتيح الغيب (٧/ ١٥٢-١٥٣)، الباحث القرآني، سورة آل عمران.

بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥].

فالذين كفروا بما يجب الإيمان به؛ وهي الأركان الستة التي بيّنها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جوابًا لجبريل حين سأله عن الإيمان فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

هذه إذا كفر بواحدٍ منها فهو كافر. الكفّار لهم أموال، ولهم أولاد، وربما يعطيهم الله من الأولاد والأموال أكثر مما يعطي المؤمنين، فهل ينتفعون بهذا؟ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ ﴿تُغْنِىَ﴾ لها معنيان: تمنع أو تدفع، فهؤلاء الأموال والأولاد لا يمنعون عن هؤلاء الكفار شيئًا، ولا يدفعون عنهم شيئًا، فهم إن وقع بهم شيء من عذاب الله ما استطاع هؤلاء الأولاد أو هذه الأموال أن ترفعهم، وإن قضى الله عليهم بشيء لم يستطيعوا أن يمنعوه ويدفعوه، إذن ﴿لَن تُغْنِىَ﴾ لم تمنع، ولم تدفع، ولم ترفع. ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٠] ﴿أَوْلَٰدُهُم﴾ الذكور أو الإناث؛ لأن الولد إذا أُطلق فهو شامل للذكر والأنثى، والدليل على أن الولد يشمل الذكر والأنثى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة؛ ولهذا تجد الواحد منهم عنده من الأموال العظيمة الكثيرة شيء كثير، ولكن لو جاءه ملك الموت، ما منعته هذه الأموال، وعنده من الأولاد والحشم والخدَم الشيء الكثير، ولا تغني عنه شيئًا.

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٤ رقم٥٠)، ومسلم (١/ ٣٦ رقم٨).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران ١٠].

﴿وَقُودُ﴾ يعني ما توقد به النار مثل الحطب، الحطب وقود النار، هؤلاء الكفار هم وقود النار، ولها وقود آخر هو الحجارة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]. فهؤلاء وقود النار، وإذا كانوا -والعياذ بالله- وقودها فإنها تتسعَّر بهم أو تُسَعَّرُ بهم، وهي في الوقت نفسه تحرقهم، نسأل الله العافية.

قال: ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾، والنار: اسم من أسماء جهنم، وهي الدار التي أعدّها الله تعالى للمكذبين برسلهم، وحرُّها شديد، وفيها زمهرير، بردُه شديد، والعياذ بالله من حَرِّها.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «نارُكُم جُزءٌ من سبعين جُزءًا من نار جهنم»، قِيل يا رسول الله إن كانت لكافيةً، قال: «فُضِّلَتْ عَلَيهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُهُنَّ مِثلُ حَرِّها»[1]. أعوذ بالله، يكون مقدارها سبعين، يعني بالإضافة إلى نار الدنيا تكون أشدَّ منها، فتكون مثلها سبعين مرة.

وأورد الشيخ ابن عثيمين فوائد من آية هذا المجلس، فقال:

* يُستفاد من هذه الآية الكريمة: أن الكفار لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا.

* ومن فوائدها: أن المؤمنين قد ينتفعون بأموالهم وأولادهم، وهو

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣١٨ رقم٣٢٦٥).

كذلك، فالمؤمن يتصدّق بماله فينتفع، ويدعو له ولده في حياته وبعد موته فينتفع. أما الكافر فلا ينتفع ولو دعا له ولده، إلا إذا كان حيًّا فيحلّ أن يدعو له بالهداية، وأما أن يدعو له بعد موته فلا يمكن أن يدعو له.

* من فوائد الآية الكريمة: أن الكافر يملك، وَجْهُ ذلك. قوله: ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾، فأضاف المال إليهم، وهو دليل على أن الكافر يملك ماله، واختلف العلماء في المرتد الذي يكفر بعد إسلامه، هل يزول ملكه عما تحت يده أو لا؟

فمن العلماء من قال: إنه إذا ارتدّ الإنسان زال ملكه عمّا تحت يده، وعلى هذا فلا يصح أن يتصرّف فيه، ولكن القول الراجح: أنه لا يزول ملكه إلا إذا مات على ردّته، فإن ملكه لا ينتقل إلى ورثته، بل إلى بيت المال، ومن المعلوم أننا لو قلنا: بأن المرتد يزول ملكه لحصل إشكالٌ عظيم في عصرنا هذا، ما هو؟

أن بعض الناس لا يصلي، والذي لا يصلي مرتد، فإذا قلنا: بزوال ملك المرتد لزم من ذلك أن كل تصرّف يتصرّف به في ماله من لا يصلي فهو تصرّف غير صحيح، إن باعوا شيئًا لم يصح البيع، وإن اشتروا شيئًا لم يصح الشراء، وإن استأجروا شيئًا لم يصح الاستئجار، وإن آجروا شيئًا لم يصح التأجير، وهذا وإن قال به بعض العلماء، لكن الراجح أن ملكه باقٍ على ماله حتى يموت، فإذا مات فإننا نصرف ماله إلى بيت المال، ولا يرثه أحد من

ورثتــه لقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ»(١).

* من فوائد الآيــة الكريمة: بيان قــدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأنــه لا ينفع مالٌ ولا بنون من الله شيئًا؛ لقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾. ومِن غير الله؟ تغني، من غير الله تغني، يمكن يدفع شيئًا من ماله ويسلم من القتل، يمكن أن يكون عنده أولاد شجعان، إذا أراده أحدٌ بسوء دافعوا عنه، لكن من الله لا يغني عنهم مالٌ ولا ولد.

ومن فوائد الآية: تشــجيع قلوب المؤمنيــن على الكافرين، وجه ذلك أن أموالهم وأولادهم لا تغني من الله شيئًا، فإذا انتصرنا بالله فــإن ما عندهم من الذخائر، والأموال، والأولاد لا يغنيهم من الله شــيئًا؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قدرته وقوته لا يقهرها شيء؛ ولهذا قال: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠].

* ومن فوائد الآية الكريمة: أن الكفار في النار؛ لقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠]، ولكن هل نشــهد لكل كافر أنه في النار بعينه، الجواب: لا، لكن نشــهد على سبيل العموم، ونقول: كل كافر في النار، كما نقول: كل مؤمن في الجنة، ولكن لا نشــهد لواحد معيّن بالجنة، ففرقٌ بين العموم وبين الخصوص»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٧/ ٩٤رقم ٦٧٦٤)، ومسلم (٣/ ١٢٣٣ رقم١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد ﷺ.

(٢) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة آل عمران.

هذا وبعد، إن العذاب الناري لا تكاد الأسماع تتحمله، فكيف يغفل عنه الكفار والعصاة. نسأل الله السلامة.

أين كفار قريش؟ أين أبو جهل؟ وأين أُميّة بن خلف؟ وأين أولئك الذين آذوا رسول الله ﷺ؟ وأين من جاء من بعدهم من الكفار والمنافقين؟!

أين الجبابرة؟! وأين الطُغاة الذين سمعنا عنهم، وقرأنا تاريخهم الأغبر؟! سفكوا الدماء، وأذلوا، وقتلوا! وأين ظلمة رأيناهم في زماننا هذا؟!

الجميع رحلوا، وهم هناك بين يدي الله، رأوا الآن العذاب الشديد، لا مفرَّ ولا مهرب!

رحل الأوائل والأواخر، وغاب المُعَذِّبُون والمُعَذَّبُون، عذاب الدنيا وقتيٌّ ينتهي، وعذاب الآخرةِ أبديٌّ يدوم!

تخيَّل أخي في الله مكانَك يوم القيامة، وتذكّر أين أنت صائر! تذكّر وعيد الله للكفار. كلمتان مُخيفتان تهزُّ القلوب هزًّا ﴿وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾.

نار الدنيا رأيناها وشعرنا بها عندما نقترب منها نهرب بأجسادنا، وفي الدنيا لدينا القدرة على الابتعاد، ولدينا الإرادة والهروب، لكن في الآخرة لا قدرة ولا إرادة ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج:٢٢].

في الآخرة لو كان احتراقًا ونهاية لكان الأمر أهون، فالألم والصراخ وقتيًّا، وينتهي كل شيء، لكنه العذاب المستمر، والألم المتجدد، اقرأ الخبر

اليقيـــن: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٦، ٣٧].

يصطَرِخُـــون لا يصرخون! أي يصيحون بـــكل طاقتهم ولا يُجابون، صُراخٌ وألم، نسأل الله النجاة! ويزداد عذابهم وصراخهم، وينادون مالكًا خـــازن النار، واقرأ إجابـــة مالك لهـــم: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

إنه الخلود والعذاب القاســـي الشـــديد، والعياذ بـــالله، لقد اختاروا بأنفسهم ذاك المصير: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٤-٧٦].

وتتوقد بهـــم النار، ويضُمُّ اللهُ لهم وقودًا آخر، هو الحجارة التي نراها اليوم في دُنيانا صلبة صماء لا نأبه بها، لكنها في الآخرة تكون وقودًا للنار، وقودًا تشتد حرارته، يلسع المـُعَذَّبين، ويزيد من احتراقهم وعذابهم، اقرأ قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

وحين يصرخون ويستغيثون لا يُجابون، فَحَوْلُهم ملائكةٌ غِلاظٌ قُساةٌ لا يســـمعون لهم ولا يرحمونهم، يُنفّذون أمر الله بتعذيبهم. لقد حذّرهم الله في الدنيا وعَصَوا، واختاروا الكفر، فكان لهم ما هُدّدوا به في الآخرة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وتغشـــاهم النار من جميـــع جوانبهم، وتُحـــرق وجوههم، ويلقون التقريع والتوبيخ، كانوا في الدنيا يُكَذِّبُون ويسخرون من الواعظين ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤، ١٠٥].

ولا ينفعهم الإقرار بالذنب والندم، ولا الترجي والاســتعطاف، فقد فــات الأوان ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٦، ١٠٧].

ويأتيهم الجــواب القاســي، والردّ العنيــف، والتذكيــر بماضيهم وسُــخريتهم من الناصحين: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨ - ١١٠].

إنها آياتٌ زاجرة، لكن قلوب بعض البشر؛ قاسية جافة، جاهلة غافلة، لو تَدَبَّرَتْ كلمات الله، ونظرتْ في هــذه الآيات وتدبّرتها لجفاها النوم، إنهــا تتضمنُ تهديدًا يهز الجماد الذي لا يعقل لــو عقل، ويُفتِتُ الصخر لو اســتوعب ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

إن الله -جلَّت عظمته- يمنحُنا اليوم الإمهال، ويدعونا للعمل والتفكر والإيمان، فغدًا حساب وجزاء، ولا عمل ولا خيار!

وإن العجــب من جفــاء وغِلْظَة بعــض القلوب، نســأل الله العافية ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا

﴿يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾

[البقرة: ٧٤].

إن الحجارة تهتزُّ من خشـــية الله، قال الشيخ ابن عثيمين: «الجمادات تعرف الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقولـــه: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾، وهذا دليل على أنهـــا تعرف الله، وهذا أمر معلوم من آيـــات أخرى في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [الجمعة:١]، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء:٤٤].

نسأل الله الجنّة والنّجاة من النّار.

وَهَمَّ بها

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣-٢٤].

في هذه الآية تأكيدٌ لفعل الهَمِّ الذي أشارت إليه الآية، وأنه مُتحقِّقٌ!

﴿هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ امرأةٌ ورجل، سيدةُ القصر، امرأةُ العزيز، ونبيُّ الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ!

لكن ما هو الهمَّ الذي صدر عنهما؟

إن هناك فرقٌ بين ما همَّتْ به امرأة العزيز، وما همَّ به يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ما هَمَّت به امرأةُ العزيز قباحةٌ ومعصية، وما همَّ به يوسف شيءٌ آخر نعرضه فيما بعد.

إن اللغة العربية التي اختارها الله -عز وجل- لكتابه الكريم، عظيمةٌ شريفةٌ مُوحية، ذات معانٍ ودلالات، يهتدي لها منْ يَفْتحِ لهم إشراقات!

لقد اتَّفق المفسرون واختلفوا!

اتفقوا أن ما همَّتْ به امرأةُ العزيز هو الفاحشة والزنا!

واختلفوا فيما همَّ به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فبعضهم أخذَ اللفظ على ظاهره بأن يوسف همَّ بالمعصية لولا أن رأى برهان ربِّه!

ولكن ثمّةَ علماء فتحَ الله لهم إشراقاتٍ عظيمة، تستدعي الدعاء لهم والترحُّم عليهم، فالشيخ الشعراوي رَحِمَهُ اللَّهُ كتب كلامًا ذهبيًا حول ما همَّ به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: «الهَمُّ هو حديث النفس بالشيء؛ إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه. ومن رحمة ربنا بخلْقه أنّ مَنْ هَمَّ بسيئةٍ وحدَّثتْه نفسه أن يفعلها، ولم يفعلها، كُتِبتْ له حسنة.

وقد جاءت العبارة هنا في أمر المراودة التي كانت منها، والامتناع الذي كان منه، واقتضى ذلك الأمر مفاعلة بين اثنين يصطرعان في شيء؛ فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله في حقها: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ..﴾.

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه موقفها حين قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وكذلك بيَّن موقف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وهنا يبيّن لنا أن نفسه قد حدّثته أيضًا: وتساوى في حديث النفس؛ لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربِّه.

ويكون فَهْمُنا للعبارة: ولولا أن رأى برهان ربّه لَهَمَّ بها؛ لأننا نعلم أن ﴿لَوْلَآ﴾ حرف امتناع لوجود؛ مثلما نقول: لولا زيد عندك لأتيتك.

ولقائلٍ أن يقول: كيف غابت قضية الشرط في الإيجاد والامتناع عن الذين يقولون: إن الهمَّ قد وُجِد منه؟

ولماذا لم يَقُل الحق: لقد همَّتْ به ولم يهم بها؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة؟

ونقول: لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطةَ المطلوبة؛ لأن امـرأة العزيز هَمَّتْ به؛ لأن عندها نوازع العمل، وإنْ لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عِنِّين أو خَصَاه موقف أنها سيدته فخارتْ قواه.

إذن: لو قال الحق سـبحانه: إنه لم يَهِمّ بها؛ لكان المانع من الهَمِّ إما أمر طبيعي فيه، أو أمر طارئ؛ لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهَمِّ بها، ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعيًا، وهو قد بلغ أشُدَّه ونُضْجه، ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها.

وهكذا لم يَقُمْ يوسـف عَلَيْهِ السَّلَامُ بما يتطلبه ذلـك لنقص فيه؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضَيَّعَتْ رجولته بغتة؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب فـي ليلة الزفاف، حين لا يسـتطيع أن يَقربَ عروسـه؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه، ويقرب عروسه.

إذن: لو أن القرآن يريد عدم الهَمِّ على الإطلاق؛ ومن غير شيء، لَقَال: ولقد هَمَّتْ به ولم يَهِم بها.

ولكن مثل هذا القول هو نَفْيٌ للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة؛ لجواز أن يكون عدم الهَمِّ راجعًا إلى نقص ما، وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم؛ حيث يسـتحي الخـادم أن ينظر إلـى البنات الجميلات للأسرة التي يعمل عندها؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التي تعمل في المنزل المجاور؛ لأن للعواطف التقاءات.

ومن لُطْفِ الله بالخلق أنه يُوجِدُ الالتقاءات التفاعلية في المتساويات، فلا تأتي عاطفة الخادم فـي بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذي يعمل عنـده، وقد يَطْلُبُ من أهل البيت أن يخرجَ لشـراء أيِّ شـيءٍ من خارج المنزل؛ لعله يحظى بلقاءٍ عابرٍ من خادمة الجيران.

ويجوز أن الخادمَ قد فكّر في أنه لو هَمَّ بواحدة من بنات الأسرة التي يعمل لديها؛ فقد تطرده الأسـرة من العمل؛ بينما هو يحيا سعيدًا مع تلك الأسرة، وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات في كثير من الأحيان.

وهنـا في الآية التي نحـن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سـبحانه: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ﴾.

إذن: فبرهان ربّه سـابق على الهَمِّ، فواحـدٌ هَمّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ؛ لأن برهان ربّه في قلبه، وقد عرف يوسف برهان ربّه من البداية.

وبذلك تنتهي المسألة؛ ولذلك فلا داعي أن يدخل الناس في متاهات أنـه هَمّ وجلس بين شـعبتيها، ولم يرتعد إلا عندما تمثَّـل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل؛ فأفسـقُ الفُسّـاق ولو تمثَّل له أبوه وهو في مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء.

وحين تناقـش مَنْ رأى هذا الـرأي؛ يردُّ بأن هدفـه أن يثبتَ فحولةَ يوسف؛ لأن الهمَّ وجِدَ وأنه قد نازع الهمّ.

ونقول لصاحب هذا الرأي: أتتكلم عن الله، أم عن الشيطان؟

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم: امرأة العزيز، ويوسف، والعزيز نفسه، والشاهد على أن يوسف قد حاول الفِكَاك من ذلك الموقف، ثم النسوة اللاتي دَعتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله؛ والله قد كتب له العصمة، فكُلُّ هؤلاء تضافروا على أن يوسف لم يحدث منه شيء.

وقال يوسف نفسه: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾.

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدِّقة لِمَا قال: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾.

وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

وعن النسوة قال يوسف: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾.

وقال يوسف لحظتها: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾. والصَّبْوة هي حديث النفس بالشيء، وهو ما يثبت قدرة يوسف -عليه السلام- على الفعل، وحماه الله من الصبوة؛ لأن الحق سبحانه قد قال: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.

وانظر إلى لقطة النسوة اللَّاتي تهامسْنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف، ألم يَقُلْنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. فحين دخل عليهن اتّجهت العيون له، وللعيون لغات؛ وللانفعال لغات؛ وإلا لماذا قال يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾.

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مُقدِّمات تدل على أن النسوة نَويْنَ له مثل ما نَوَتْه امرأة العزيز؛ وظَنَنَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده؛ فيتلقفنه هُنَّ؛ وهذا دَأب البيوت الفاسدة.

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه، بعد أن حكم الشاهد أنها هي التي راودتْ يوسف عن نفسه؛ فيدمدم العزيز على الحكاية، ويقول: ﴿ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾.

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال، وحين سأل الشاهدُ النسوة، بماذا أَجبْنَ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قُلْنَ: ﴿مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾.

وقد صرف الله عنه الشيطان الذي يتكفل دائمًا بالغُواية، وهو لا يدخل أبدًا في معركة مع الله؛ ولكنه يدخل مع خَلْق الله؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾. فالشيطان نفسه يُقِرُّ أنَّ مَنْ يستخلصُه اللهُ لنفسه من العباد إنما يعجز -هو كشيطان- عَن غوايته، ولا يجرؤ على الاقتراب منه. والشاهد الذي من أهل امرأة العزيز، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال: ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

وبعد كل هذه الأدلة فليس من حَقِّ أحد أن يتساءل: هل هَمَّ يوسف بامرأة العزيز، أم لم يَهِمّ؟» .[1]

(١) تفسير الشعراوي، ٦٩١١- ٦٨١٨

وقال الرَّازي: «واعْلَمْ أنَّ الَّذِينَ لَهم تَعَلُّقٌ بِهَذِهِ الواقِعَةِ: يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ، وتِلْكَ المَرْأةُ وزَوْجُها، والنِّسْوَةُ والشُّهُودُ، ورَبُّ العالَمِينَ شَهِدَ بِبَراءَتِهِ عَنِ الذَّنْبِ، وإبْلِيسُ أقَرَّ بِبَراءَتِهِ أيْضًا عَنِ المَعْصِيَةِ، وإذا كانَ الأمْرُ كَذَلِكَ، فَحِينَئِذٍ لَمْ يَبْقَ لِلْمُسْلِمِ تَوَقُّفٌ في هَذا البابِ.

أمّا بَيانُ أنَّ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلامُ- ادَّعى البَراءَةَ عَنِ الذَّنْبِ فَهو قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلامُ: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

وأمّا بَيانُ أنَّ المَرْأةَ اعْتَرَفَتْ بِذَلِكَ فَلِأنَّها قالَتْ لِلنِّسْوَةِ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وأيْضًا قالَتْ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

وأمّا بَيانُ أنَّ زَوْجَ المَرْأةِ أقَرَّ بِذَلِكَ، فَهو قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾، ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ [يوسف: ٢٨].

وأمّا الشُّهُودُ، فَقَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦].

وأمّا شَهادَةُ اللَّهِ تَعالى بِذَلِكَ فَقَوْلُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، فَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ تَعالى في هَذِهِ الآيَةِ عَلى طَهارَتِهِ أرْبَعَ مَرّاتٍ:

أوَّلُها: قَوْلُهُ: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ﴾، واللّامُ لِلتَّأْكِيدِ والمُبالَغَةِ.

والثّانِي: قَوْلُهُ: ﴿وَٱلْفَحْشَآءَ﴾؛ أيْ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشاءَ.

والثّالِـثُ: قَوْلُـهُ: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾، مَعَ أَنَّـهُ تَعالى قالَ: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والرّابِـعُ: قَوْلُهُ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وفِيهِ قِراءَتانِ: تارَةً بِاسْـمِ الفاعِلِ، وأُخْرى بِاسْمِ المَفْعُولِ، فَوُرُودُهُ بِاسْمِ الفاعِلِ يَدُلُّ عَلى كَوْنِهِ آتِيًا بِالطّاعاتِ والقُرُباتِ مَعَ صِفَةِ الإخْلاصِ، ووُرُودُهُ بِاسْـمِ المَفْعُولِ يَدُلُّ عَلى أنَّ اللَّهَ تَعالى اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِـهِ واصْطَفاهُ لِحَضْرَتِهِ، وعَلى كِلا الوَجْهَيْنِ فَإنَّهُ مِن أدَلِّ الألْفاظِ عَلى كَوْنِهِ مُنَزَّهًا عَمّا أضافُوهُ إلَيْهِ.

وأمّا بَيانُ أنَّ إبْلِيسَ أقَرَّ بِطَهارَتِهِ، فَلِأنَّهُ قالَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فَأقَرَّ بِأنَّهُ لا يُمْكِنُهُ إغْواءَ المُخْلَصِينَ، ويُوسُـفُ مِنَ المُخْلَصِينَ لِقَوْلِـهِ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فَكانَ هَذا إقْرارًا مِن إبْلِيسَ بِأنَّهُ ما أغْواهُ وما أضَلَّهُ عَنْ طَرِيقَةِ الهُدى.

وعِنْدَ هَذا نَقُـولُ: هَؤُلاءِ الجُهّالُ الَّذِينَ نَسَـبُوا إلى يُوسُـفَ -عَلَيْهِ السَّـلامُ- هَذِهِ الفَضِيحَةَ إنْ كانُوا مِن أتْباعِ دِينِ اللَّهِ تَعالى فَلْيَقْبَلُوا شَهادَةَ اللَّهِ تَعالى عَلى طَهارَتِهِ، وإنْ كانُوا مِن أتْباعِ إبْلِيسَ وجُنُودِهِ فَلْيَقْبَلُوا شَهادَةَ إبْلِيسَ عَلى طَهارَتِهِ» .[1]

وجاء في تفسير الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لآية هذا المجلس قوله:«هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجرًا؛ لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعـي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدّم

(١) مفاتيح الغيب، ٨/ ١٧١

محبــة الله عليهــا، وأما محنته بإخوتــه، فصبره صبر اضطــرار، بمنزلة الأمراض والمــكاره التي تصيب العبد بغير اختيــاره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعًا أو كارهًا، وذلك أن يوسف -عليه الصلاة والسلام- بقي مكرمًا في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾؛ أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر.

﴿وَ﴾ زادت المصيبــة، بــأن ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾، وصــار المحل خاليًــا، وهما آمنان من دخول أحدٍ عليهما، بســبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفســها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾؛ أي: افعــل الأمر المكروه وأقبل إليَّ، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشــم مثله ما يحتشــمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسيرٌ تحت يدها، وهي ســيّدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شــابٌ عزب، وقد توعّدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو بالعذاب الأليم.

فصبــرَ عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه؛ لأنه قد همَّ فيها همًّا تركه لله، وقدّم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالســوء، ورأى من برهان ربه -وهو ما معه من العلــم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم اللــه- ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح؛ لأنه مما يســخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي.

فــلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبــح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم،

والظالم لا يفلح. والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح مَن تعاطاه، وكذلك ما مَنَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء؛ لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه».[1]

وبعد عَرْضِ ما ذكره بعضُ المفسرين، فإنه الشرف العظيم لنبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن جعلنا اللهُ نقرأ قصته ونتعبدهُ بقراءة هذه الشهادات القرآنية، التي تُؤكدُ براءته مما يوسوس به الشيطان أنه -عليه السلام- همَّ بالمعصية، فهو كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: عن عبدالله بن عمر: «**الكَرِيمُ ابنُ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ إسْحاقَ بنِ إبْراهِيمَ**».[2]

هو نبي الله يوسف الطاهر جاءته الابتلاءات، فصبَر صبر اضطرار مع إخوته، وصبر صبر اختيار مع فتنة النساء؛ فحتى لُغة العيون النسائية الفاتنة أدركها عليه السلام، ولجأ فورًا لله يسأله العصمة، لُغةُ عيون نِسوة كُثُر، حدَّقنَ به، وأذهلَهُنَّ حُسْنُه وجمالُه، فقطَّعن أيديهنَّ لا شعوريًا بالسكاكين.

إن جماله الباهر خدَّرَهُن، فأنساهنَّ ألمَ جروح السكاكين، ولهذا قُلن: ﴿**مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾. وأدرك عَلَيْهِ السَّلَامُ فورًا لغة عيونهن،

(١) تفسير السعدي، سورة يوسف، الآية: ٢٤
(٢) صحيح البخاري ٤٦٨٨

فهُنَّ نسوةٌ، ولكل واحدة فتنتُها وجاذبيتُها، فأسرع يطلب من الله العصَمَة والمدَد، فهو بشــرٌ فيه غريزة الرجال وفحولتُهن، فقال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ســائلًا الله عصمته: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

هُم أنبياءُ الله في ســيرهم القــدوة والمثل. رزقنا اللــه نُور البصيرة والهداية.

ويبقى العملُ الصالح

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

وقال سبحانه في سورة مريم: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم:٧٦].

قال الشيخ ابن عثيمين: «﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي الأعمال الصالحة من أقوال وأفعال، ومنها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومنها الصدقات، وغير ذلك، هذه هي الباقيات الصالحات»(١).

وقال الشيخ الشعراوي: «لن ينفعك إلا الباقيات الصالحات. والنبي ﷺ حينما أُهديَتْ إليه شاة، وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تعرف أن رسول الله يحب من الشاة الكتف؛ لأنه لَحْمٌ رقيقٌ خفيف؛ لذلك احتفظتْ لرسول الله بالكتف وتصدّقت بالباقي، فلما جاء ﷺ قال: «**ماذا صنعتِ في الشاة**»؟ قالت: ذهبتْ كلها إلا كتفها، فضحك ﷺ وقال: «**بل بقيت كلها إلا كتفها**»، وفي حديث آخر قال ﷺ: «**هل لك**

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الكهف.

يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبسْتَ فأبليْتَ، أو تصدَّقْتَ فأبقيْتَ». وهذا معنى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾»[1].

هذا وقد تأملتُ هذه الآيات واسترجعتُ التاريخ، وإذ هي أُممٌ رحلت وصارت خبرًا من الأخبار! فيا تُرى ماذا بقي لها من الصالحات؟

قتل قابيل أخاه هابيل وندم: ﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٣١]. وصارت قصتهما خبرًا ورد تأكيده في كتاب الله الكريم، للعظة والعبرة، وذهب الأخوان؛ قابيل، وهابيل، وصارا تاريخًا يُذكر، وبقي لهما العمل الذي قدّماه؛ إن صالحًا، وإن طالحًا، ومن ثم الحساب والجزاء!

وتعاقبت الأمم وجاءهم أنبياء الله بالهدى والرشاد، فآمن بعض قومهم، وكفر آخرون، ورحل الجميع وصاروا تاريخًا يذكر، وبقي لهم وعد الله؛ فلئن عُذِّبت تلك الأمم في الدنيا فقد بقي عذاب الآخرة ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٦]. وقال تعالى في عذاب أمة أخرى ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت:١٦]. إنه عذاب بعده عذاب، نسأل الله السلامة والرشاد، وفي سورة طه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧].

إن عذاب الآخرة لهو الأعظم والأكبر ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٣٣].

---

(١) تفسير الشعراوي (١٤/ ٨٩٢٦-٨٩٢٧).

وكان العــرب أُمةً أُميّة؛ جهلٌ وجهالة، يعبــدون الأصنام، ويتقاتلون سنوات لأجل ســباق فرســين ولدواعي الثأر والعار؛ غالبٌ، ومغلوب، سالبٌ، ومسلوب، يوم فرح، ويوم حزن، خرابٌ، ودمار، نهبٌ، وسلبٌ. يقول شاعرهم:

وأحيانًــا علــى بكــرٍ أخينــا
إذا مــا لــم نجــد إلا أخانــا

ويقول الآخر:

كـذا قضتِ الأيـامُ منذ بـدءِ عهدِها
مصائــبُ قــومٍ عنــدَ قــومٍ فوائــدُ

وجــاء المصطفى ﷺ بالديــن الكامل، بالديــن الخالد، ونزل كتاب الله، نور الأرض، وهادي البشــر، فأنار الطريق، وبنى أُمة، وقامت دولة النبوة والراشدين بعد جهادٍ ومجاهدة، وصبرٍ ومصابرة.

ووضع محمد ﷺ البشــرية على المنهــج الحق، وتركهم على المحجَّة البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يزيــغ عنها إلا هالك! ورحل عليه السلام وخلفاؤه الأطهار رحلوا، وهم المبشرون بالجنة، وأبقوا أعمالًا صالحة، فكانت سيرهم منارات الهدى والرشاد!

وتعاقبت الأجيال، وصار الخلاف والنزاع، ورحل المختلفون، وبقيت سيرهم وأعمالهم الصالحة والفاسدة، وسيلقون الجزاء والحساب!

ذهب المتنازعون على السلطة والحكم، وبقيت أعمالهم، ومن ثمَّ الحساب والجزاء ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۚ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [غافر:١٦، ١٧].

وتتابع المختلفون على الدنيا وحطامها، رحلوا وتركوا ما اختلفوا عليه، وغابوا وما تناحروا لأجله من مال ومتاع، وبقي الحساب والجزاء، ومَنْ له أعمال صالحة! وانطوت سير الشعراء وتهاجيهم؛ جرير، والفرزدق، ونقائضهما، ومن سار في منهج التشاتم والتقاذف رحلوا، وبقي شعرهم وتراثهم، فيا ترى هل هو من الأعمال الصالحة، هناك حسابٌ وجزاء ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩].

وقرأنا تحاسد العلماء، ووشاية الوشاة، وتأويل المتأولين في العصور الماضية؛ فذاك الإمام أحمد بن حنبل وفتنة خلق القرآن، وامتحان العلماء، ثم ابن تيمية ومن بعده، وأذيتهم، قدموا جميعًا إلى ربهم؛ المُمتَحِنُ، والمُمتَحَن، هم الآن بين يدي ربهم، هناك تلاقوا عند حكمٍ عدل! وكلٌّ هناك سيتحسر على التقصير في الأعمال الصالحة.

وتتعاقب الأجيال، وترحل الأمم، ويكون التناوش، والكيد، والحسد، والأذى، والبلى.

إنها الحياة الدنيا تنطوي أيامها، وكل الأعمال مسجلة ومدونة، ويبقى الحساب، والفائز من ترك له أعمالًا صالحة ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٣، ١٤]. إنها الدنيا؛ ممرٌّ ورحلة، وبعدها حسابٌ وسؤال ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩].

كُلٌّ مبعوثٌ ومُحاسَبٌ، كُلٌّ سيتلهف على ما قدّمه من الصالحات الباقيات، سيأتي يوم الحسرة والندامة، سيأتي كُلُّ فردٍ لوحده كما قَدِمَ للدنيا من بطن أمه لوحده، ويترك كل ما تملّكه وتعب عليه ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

يأتي كل فرد ومعه أعماله؛ السيئة، والصالحة التي قدّمها في حياته، وسبقته لآخرته! لا ظلمٌ ولا نقص ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨].

إنه العدل الإلهي سبحانه ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧].

بل هو الكرم الربَّاني؛ مضاعفة الأعمال الصالحة، والأجر العظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

وفي بداية سورتي الإسراء والكهف نسمع ونقرأ بشارة الله وتأكيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قرآنه الكريم بما لعاملي الصالحات عنده من خير كبير؛ خير حسن، خير دائم. اقرؤوا بتدبر قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

وتستهل سورة الكهف بحمد الله؛ أي والله نحمدُه ونشكرُه؛ أن أنزل لنا من لدنه كتابًا كريمًا، أَعْلَمَنَا فيه بوعده وعذابه الشديد للعصاة، وبَشَّرَ المؤمنين به الذين يعملون الصالحات بالأجر والمثوبة!

مما ذكره الشـــيخ ابن عثيمين في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَبُشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قوله: «لا بد مع الإيمان من العمل الصالح، لا يكفي الإيمان وحده، بل لا بُدَّ من عمل صالح، ولهذا قيل لبعض السلف: أليس مفتـــاح الجنة لا إله إلا الله؟ يعني فمن أتى به دخل؟ قال: بلى، ولكن هل يَفتح المفتاح بلا أسنان؟

الجواب: لا، فلا بدَّ من أعمال.

﴿وَبُشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أولًا: نسأل مَنِ المؤمنون؟

المؤمنون الذين آمنوا بما يجب الإيمان به، وقد بيّن الرسول ﷺ ما يجب الإيمان به لجبريل لمـّـــا ســـأله عن الإيمان، فقال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ[1].

﴿ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني يعملون الأعمال الصالحة، ومتى يكون العمل صالحًا؟ لا يمكن أن يكون صالحًا إلا إذا تضمن شـــيئين: الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: المتابعة لشريعة الله؛ فالإخلاص لله بألّا يقصد الإنسان بعمله سوى وجه الله عَزَّوَجَلَّ والدار الآخرة، المتابعة ألّا يخرج عن شريعة الله عَزَّوَجَلَّ ســـواء ما جاء به محمد ﷺ أو غيره، ومن المعلوم أن الشرائع بعد بعثة الرسول كلها منسوخة.

الإخلاص ما ضدّه؟ الشـــرك، والاتّباع ضدّه البدعة، كل بدعة مهما استحسنها مبتدعها فإنها غير مقبولة، بل هي ضلالة كما قال ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٤ رقم٥٠)، ومسلم (١/ ٣٦ رقم٨).

من عمل عملًا على وفق الشـــريعة ظاهرًا، لكن القلب فيه رياء، فهذا لا يُقبل، لماذا؟

لفقد الإخلاص.

إذن لا بُدَّ من أمرين: إخلاصٌ لله عَزَّوَجَلَّ، واتباعٌ لرســـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإلا لم يكن صالحًا، بماذا يبشرهم؟

قـــال: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهـف:٢، ٣] ﴿أَجْرًا﴾؛ أي: ثوابًا، وســـمى الله ثواب الأعمال أجرًا؛ لأنها فـــي مقابلة عمل، وهذا من عدله عَزَّوَجَلَّ أن يسمي الثواب الذي يثيب به الطائع لأمره أجرًا حتى يطمئن الإنســـان بضمان هذا الثواب؛ لأنه من المعروف أن الأجر إذا قام الأجير بعمله فإنه يستحقه، وسماه أجرًا حتى يطمئن العامل بأنه سوف يكافأ به.

وقولـــه: ﴿حَسَنًا﴾ قد جاء في آية أخرى ما هو أعلى من هذا الوصف، وهو قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

وجاء في آية أخـــرى مثل هذه الآيـــة: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]. فهل نأخذ بما يقتضي التساوي أو بما يقتضي الأكمل؟

بما يقتضي الأكمل، فنقول: ﴿حَسَنًا﴾؛ أي: هو أحسن شيء، ولا شك في هذا أن ثواب الجنة لا يعادله ثواب.

وقـــول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: باقين فيـــه إلى ما لا نهاية له؛ فلا مرض، ولا موت، ولا جوع، ولا عطش، ولا حرّ، ولا برد. كل شـــيءٍ كاملٌ مـــن جميع الوجوه. واعلم أن من عقيدة أهل الســـنة والجماعة أن

الجنة موجودة الآن، وأنهـــا مؤبّدة، وأن النار موجودة الآن، وأنها مؤبّدة، هذه عقيدة أهل الســـنة والجماعة، وقد جاء هذا في القرآن، فآيات التأبيد بالنســـبة لأصحاب اليمين كثيرة، وبالنسبة لأصحاب الشمال ذُكر التأبيد في آيات ثلاث:

الأولـــى؟ في ســـورة النســـاء، قـــول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩].

والآية الثانية؟ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [الأحزاب:٦٤، ٦٥].

والآيـــة الثالثـــة؟ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ [الجن:٢٣].

وإذا كان الثلاث آيات من كلام الله عَزَّوَجَلَّ قرينة للتأبيد فلا ينبغي أن يُقال بخلاف ذلك. إذن، ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا﴾ هذا دليل على أبدية النار، فانتبهوا للقاعدة في مذهب أهل الســـنة والجماعة: أن الجنة والنار مخلوقتان لله؛ لأن الله ذكـــر في الجنة ﴿أُعِدَّتۡ﴾، وذكر في النار ﴿أُعِدَّتۡ﴾. هما مؤبَّدتان، لا تفنيان؛ لا هما، ولا من فيهما»[1].

هذا وبالله التوفيق.

(١) تفسير ابن عثيمين، الباحث القرآني، سورة الكهف.

يُبشِّرُ وبُشرَى

١. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩].

٢. وفي سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

إنه القرآن الكريم يُبشّرُ وهو بذاته بُشرَى! جمع التبشير والبِشارة! يُبشّر بالأجر الكبير، بالخير وهو الخير، وهو ذاته بُشرى، هو نُورٌ يجلو الظلمة، ويهدي للخير، هو نجاةٌ من نار تلظَّى، هو سفينة الحياة، هو المعجزة الربّانية الساطعة الضوء. كل المعجزات قرأنا عنها ولم نرها، غابت واختفت مع أقوامها؛ ناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء الطير لإبراهيم، وإحياء الموتى وإنزال المائدة لعيسى، وغيرها من معجزات حسّية، جاء بها أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأقوامهم وانتهت، أما القرآن المعجزة الخالدة، فقد أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكون معجزة مُستمرة.

كانت معجزات أنبياء الله السابقين خارقة، وفوق الإدراك، ولكن غلبت أقوامهم الشقاوة فعاقبهم الله ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

أما معجزة سيد البشرية محمد ﷺ فكانت معجزة نورٌ وهداية، وخلودٌ ودوام. كرّر ﷻ تأكيد نزولها من السماء، وجاء فيها الإنذار والبشارة، طريق الجنة وطريق النار، اسلُك الطريق الذي تختاره، لا يوجد شيءٌ آخر في دُنيانا يُنذر ويُبشر، ويهز القلوب، ونعرف أنه من السماء غير القرآن، هو النور والعطر، هو الهادي والحياة! ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف:١٢].

ربَّاه لك الحمد، ولك الشكر، وعدك حق، وقرآنك صدق، بلَّغْتَنا فلا حجة لجاهل، وأخبرتَنا فلا عذر لغافل.

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره آية الإسراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾: «يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾؛ أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من الواجبات والسنن، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعده الله لهم في دار كرامته لا يعلم وصفه إلا هو»[1].

ويسمع العارفون جلال هذا القرآن؛ البشارة والتبشير، فتتقاطر دموعهم؛ خشوعًا وذلة لله ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣].

(١) تفسير السعدي (ص٤١٨).

لقد فهم الصحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هذه الآيات؛ فعملوا بمُقتضاها، وآمنوا بمدلولها، فغيّروا الدنيا في سنواتٍ وجيزة. ذاك الصحابي جابر بن عبدالله يُبشّره الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشارةً تهتز لها القلوب، وتَنْسَكِبُ لسماعها دموع الأعين؛ إذ يقول جابر: لقيني رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن استشهد أبي في معركة أُحد، فقال: «**يا جابرُ! ما لي أراكَ مُنكَسِرًا؟** قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ! استُشْهِدَ أبي وترَكَ عيالًا ودَينًا. قالَ: **أفلا أبشِّرُكَ بما لقيَ اللهُ بِهِ أباكَ؟** قالَ: بلى: يا رسولَ اللَّهِ! قالَ: **ما كلَّمَ اللهُ أحدًا قطُّ إلّا من وراءِ حجابٍ، وَكَلَّمَ أباكَ كِفاحًا، فقالَ: يا عَبدي! تَمنَّ عليَّ أُعْطِكَ، قالَ: يا ربِّ! تُحييني فأُقتَلُ فيكَ ثانيةً. فقالَ الرَّبُّ سبحانَهُ: إنَّهُ سبقَ منِّي أنَّهم إليها لا يُرجعونَ. قالَ: يا ربِّ! فأبلِغْ مَن ورائي، قالَ: فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** [آل عمران:١٦٩]»[(١)].

في هذا الحديث، وبهذه الآية الشريفة، يُبشرُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جابرًا بما لقي والده بعد استشهاده، ويقرأُ عَلَيْهِ السَّلَامُ آية بشارة تدفع عباد الله للتسابق نحو الشهادة، والدفاع عن دين الله، فصنعوا المعجزات، ونشروا دين الله في أرضه. إنه القرآن الكريم بُشرى ونور، رزقنا الله تدبَّره والأنس به.

إن الإيمان بما ورد في كتاب الله، والعمل بنية الحصول على بشائر القرآن نجاة. إن القرآن يتضمّن خير الدنيا والآخرة ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٣٠ رقم ٣٠١٠)، وحسنه. وابن ماجه (١/ ١٦٨ رقم ١٩٠)، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٠٦ رقم٢١١٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم٧٩٠٥).

لقد كـــرر الله عَزَّوَجَلَّ في قرآنه آيات البُشـــرى والبشـــارة، وآيات التخويف والترغيب ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

قال الشـــيخ الشعراوي: «﴿تَبَارَكَ﴾ مادة الباء والراء والكاف عادةً تدلُّ على البركة، وهي أن يعطيك الشيء من الخير فوق ما تظن فيه، ويزيد عن تقديرك، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفي العشـــرة، فتقول: إن هذا الطعام مُبَاركٌ أو فيه بركة.

ومن معاني تبارك: تعالى قَدْره، و ﴿تَبَارَكَ﴾ تنزّه عن شـــبه ما ســـواه، وتبارك: عَظُم خَيْره وعطاؤه. وهذه الثلاثة تجدها مُكمِّلة لبعضها.

ومـــن العجيب أن هذا اللفظ ﴿تَبَارَكَ﴾ مُعجزٌ في رَسْـــمه، ومُعْجز في اشتقاقه، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أن هذه الكلمة وردتْ في القرآن تسْع مرات: سبع منها بالألف ﴿تَبَارَكَ﴾، ومرتان دون الألف، فلماذا لم تُكتب بالألف في الجميـــع، أو دونها في الجميع؟ ذلك ليدلُّك على أن رَسْـــم القرآن رَسْـــم توقيفيّ، ليس أمرًا (ميكانيكيًّا)، كما في قوله تعالى في أول سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ فرَسْـــم كلمة اسم هنا بالألف، وفي باقي القرآن من دون الألف.

إذن: فالقرآن ليس عاديًّا في رَسْـــمه وكتابته، وليس عاديًّا في قراءته، فأنت تقرأ في أي كتاب آخر علـــى أيِّ حالٍ كنتَ، إلا في القرآن لا بُدَّ أن تكون على وضوء، وتدخل عليه بطُهْر. إلخ ما نعلم من آداب تلاوة القرآن.

ومن حيث الاشـــتقاق نعلم أن الفعل يُشـــتَقُّ منه الماضي والمضارع والأمر واســـم الفاعل. إلخ، لكن ﴿تَبَارَكَ﴾ لم يذكـــر منها القرآنُ إلا هذه

الصيغة، وكأنه يريد أنْ يخصَّها بتنزيه الله تعالى، مثلها مثل كلمة سبحان؛ لذلك على كثرة ما مرَّ في التاريخ من الجبابرة أَرْغَمُوا الناسَ على مدحهم والخضوع لهم، لكـــن ما رأينا واحدًا مهما كان مجرمًـــا في الدين يقول لأحد هؤلاء: ســـبحانك. لذلك نقول في تسبيح الله: سبحانك، ولا تُقال إلا لك. مهما اجترأ الملاحدة فإنهم لا ينطقونها لغير الله.

إذن: ﴿تَبَارَكَ﴾ تدور حول معَانٍ ثلاثة: تعالى قَدْره، وتنزَّه عن مشابهة ما سواه، وعَظُم خَيْره وعطاؤه. ومَنْ تعاظُم خَيْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه لا مثيل له: في قَدْره، ولا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في فعله. وهذا كله من مصلحتنا نحن، فلا كبيرَ إلا الله، ولا جبارَ إلا الله، ولا غنيَّ إلا الله»[1].

إن تأمُّـــل آيتيِّ هذا المجلس وتدبُّرها يزيد عبادَ الله المؤمنين طمأنينةً، وتشرح صدورهم لنور الله، فالبشارة والتبشير فرحٌ وسعادة.

رزقنا الله نور البصيرة، والفرحة يوم لقائه الأكبر.

(١) تفسير الشعراوي (١٧/ ١٠٣٥٥-١٠٣٥٧).